سلسلة
المقالات الصحفية
الإصدار رقم ١

الإنسانيّة قبل التديّن

خواطر حول الإشكاليات الفكرية
وتحديات الخطاب الإسلامي وقضايا
الشباب في خضم الأحداث المتشابكة

علي زين العابدين بن عبد الرحمن الجفري

الإنسانية قبل التدين

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م



www.daralfaqih.com

دار الفقيه للنشر والتوزيع

أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة

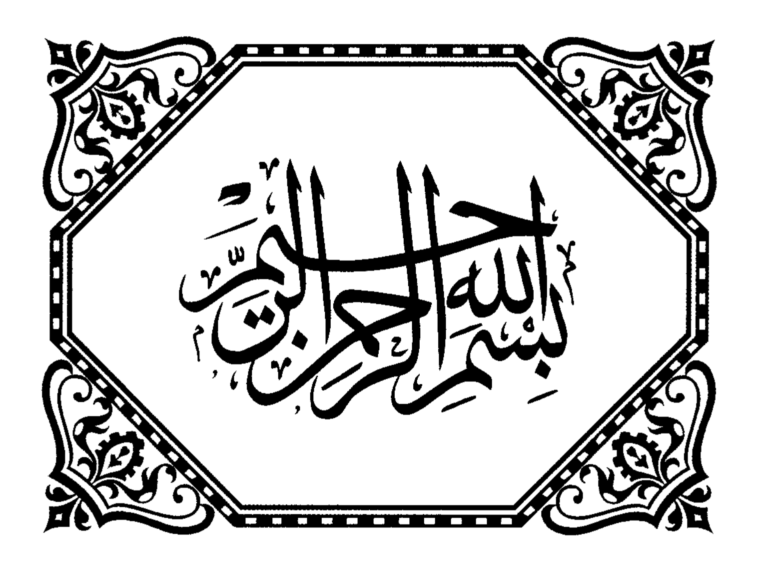
هاتف: 6678920 9712+

فاكس: 6678921 9712+

سلسلة المقالات الصحفية - الإصدار (١)

الإنسانية قبل التدين

علي زين العابدين بن عبد الرحمن الجفري


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لله حمداً يوافي نعمَه ويكافئ مزيدَه، وصلّ اللهم على سيّدِنا مُحمّدٍ وعلى آل بيتِه وأصحابه وتابعيهم والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين.

وبعد فهذه باكورة سلسلة المقالات الصحفية للحبيب علي زين العابدين الجفري، وتضم بعض المقالات التي نُشرت أصولُها تباعاً على صفحاتِ جريدة «الوطن» القاهرية في السنتين الماضيتين استجابة وتوضيحاً ومتابعة للإشكاليات الفكرية وتحديات الخطاب الإسلامي في خضم الأحداث المتشابكة التي جرت في أمتنا العربية الإسلامية.

وبالنظر إلى طبيعة المحتوى؛ فقد اقتصرت جهود المراجعة على تنسيق فقراتها وتخريج ما وشيت به من آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة في هامش كل صفحة والتي قام بها مشكوراً فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مع إعادة نظم ما عالج منها



موضوعات واحدة أو كانت تعبيراً عن نوع من التحديات المشتركة في وحدات جامعة قدر الإمكان.

ولأن «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»، فإننا نتقدم بأخص آيات الشكر والتقدير لأسرة جريدة «الوطن» الغراء لحرصهم على نشر تلك المقالات يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، فلهم منا كل الشكر والتقدير.

مكتب الحبيب علي زين العابدين الجفري

أبو ظبي ـ تريم



(١)

نقد الذات

طبيبُ الأسنان ونَفْسُ الداعية



[الخميس ٦/١٢/٢٠١٢]

الحمد لله

أخيرًا وبعد سنتين من التسويف ذهبت إلى طبيب الأسنان.

ويا لهول ما أراني الطبيب على شاشة عرض الصور، ضرسٌ كان محشوًا، وتأخرتُ عن تركيب تاج الحشوة له، فأضحى منخورًا مسوسًا، بَشِعًا مُروعًا، مُقززًا مُنفرًا.

نبهني ألم العلاج إلى أن للإهمال ثمنًا ومغرمًا، وأشفقت على حالة الضرس وقد افترسه التسوس، فشوّه منظره بعد أن كان سويًا. قد سخَّره الله لخدمتي فأخلص وكافح لما يقرب من ٤٠ سنة ليلاً ونهارًا، دون شكوى أو اعتراض أو تردد، فكان الإهمال في تنظيفه والتسويف في تطهيره سببًا في تَلفِهِ بل وتحوّله إلى مصدر ألم وإزعاج.

سرحْتُ في غمرة الألم متأمّلاً كيف أنّ الألم يأتي من إهمال

ما استرعانا الله تعالى إياه.

وكذلك نفوسنا، نعم كذلك نفوسنا الأمارة بالسوء. فقد تجتهد النفس في خدمة أهدافنا السامية لسنوات دون كلل أو ملل أو شكوى، ولكن إهمالنا لتزكيتها وتطهيرها يجعلها تالفة بشعة كما بدا الضرس في الصورة. بل قد تصبح النفوس المهمَلة سببًا في إلحاق الضرر والأذى بما كانت بالأمس تخدمه، وبمن كانت تخدمه، تمامًا كما يفعل الضرس بصاحبه إذا نخره التسوس، فكم يسبب له من الآلام والمتاعب.

كنت أنظر إلى الشاشة وأتساءل: هل يا ترى وصلت نفسك إلى هذا المستوى من التلف؟ هل أضحت بهذا القدر المنفِّر من البشاعة؟

لِم لا وقد أكثرت من الاستمتاع بمضغ (حلويات) مدح المتابعين بشَره؟ لِم لا وقد أطلت التلذُّذ بالتهام (سكاكر) ثناء المحبين وتصفيق المستمعين بنهَم؟

هل أهملتَ تنظيفها (بسِوَاك) الانكسار والاعتراف حتى تراكمت عليها الأوساخ من مخلفات الشهرة والظهور؟ أم أنك أغفلت تعقيمها (بمعجون) التفكر في عظيم ستر الله لعيوبك عن مادحيك وسَعة حلمه عن مخازيك؟ لعلها تستحيي من الله فترعوي

عن غيّها وضلالها.

وهل وصل بك الإهمال لتطهير نفسك إلى حدٍ نخر فيها بسببه (سوس) حب الظهور ومرض (أنا)؟ هل أضحت نفسك كريهة مؤذية بشعة كالحال الذي صار إليه هذا الضرس؟

ولكن انتبه لا تستعجل واحذر من الإجابات المظلمة التي تأتي من استيلاء حالة النفي والإنكار أو التبرير. فلا تقل إنك روَّضتها بعمل الخير ونفع الناس. لا تقل إنك جاهدتها سنوات طويلة لتخدم الدين ليل نهار. لا تقل إن المشاقّ التي تحمّلتها، والتضحيات التي بذلتها، والأذى الذي أصابك في سبيل الله، والصبر والاحتساب اللذين قابلت بهما كل الابتلاءات في رحلة الدعوة كانت كافيةً في تطهير هذه النفس المذنبة الطالحة، وتخليصها مما علق بها من أوساخ ادّعاء الاستحقاق.

لا تقل ذلك. فهذا الضرس، أيضًا لم يتوقف يومًا عن خدمة بقية الأعضاء، ليلاً ونهارًا، صيفًا وشتاءً، ولم يتبرّم يومًا من برودة ما يرد عليه أو من حرارته. وقد أمضى عقودًا في طحن الطعام وتهشيمه وتجهيزه لإرساله بعد ذلك إلى المعدة. بل إن هذا المسكين لم يقتصر في الخدمة على مجرد (المضغ) الذي هو مجال اختصاصه الذي خلقه الله من أجله فحسب، فقد كان يسارع إلى

امتثال الأوامر حتى في غير مجال وظيفته واختصاصه. فإذا طُلب منه تهشيم شيء أو فتح غطاء لم يكن يستكبر عن الخدمة، وكان يقتحم المغامرات مسارعًا دون تردد أو التفات لما قد تسببه له هذه المغامرات من أضرار. ومع ذلك لم يُغنِه كل هذا عن الحاجة إلى العلاج والتنقية والتزكية. فكان إهمال تنظيفه سببًا في تلوثه، وتراكم الأوساخ عليه.

والأعجب من ذلك أن كل ما قدّمه من خدمات لم تكن لتشفع له فتحميه من نخر التسوس له. أوّاه، وآه.. فلقد كان تألم نفسي من التفكير في هذه الحقيقة الصادمة أشدَّ من ألم عصب ضرس العقل وهو يستقبل الحفارات الطبية التي تعالجه وتنظفه من التسوُّس. وأخذت الأسئلة تعصف بي والقلب يرتجف من هذه الحقيقة المرة.

هل ذهب جهدك أدراج الرياح؟ هل أُحبطت أعمالك وأنت تتيهُ على الآخرين بسجل نجاحاتك المتوهمة؟ هل ستأتي ساعة الوفاة وأنت على هذا الحال من الإفلاس؟ وهل لديك ما تقابل به ربك ساعة الوقوف بين يديه يوم العرض عليه وأنت وحيد فريد عارٍ كيوم ولدتك أُمك؟ فكم مرة استترت فيها من أعين الناس وأنت غافل عن نظر الله إليك؟

بم ستجيب ربك الذي أقسم لك في كتابه بأن الفلاح لمن



زكاها وأن الخيبة لمن دسّاها؟ هل تستطيع التظاهر في حضرته بما اعتدت أن تتظاهر به أمام الناس من دعاوي الورع والصلاح؟ أم أن لسانك المتفصِّح سيسعفك بما تنجو به من عتابه تعالى وسُخطه؟

هيهات، فقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

وما زلت مأخوذًا بصدمة الحقيقة، ذاهلاً بما انكشف منها عما سواها، متجرعًا مراراتها. حتى بدأت نغمة صوت الدكتور عمار الشجية تلامس شغاف القلب وهو يعمل محاولاً إصلاح ما أفسدتُ أنا، لا الدهر، ويترنم قائلاً:

واسأل نجوم الليل هل زار الكرى
جفني وكيف يزور من لم يعرفِ
يا مانعي طيب المنام ومانحي
ثوب السقام به ووجدي المتلفِ
لو أن روحي في يدي ووهبتها
لمبشري بقدومكم لم أنصفِ

الله الله.. الله الله.. كلما ناديت يا هو.. قال يا عبدي أنا الله..

---

(١) سورة يس: ٦٤.



فانهمرت دموع حرّى، والعجيب أن حرارتها كانت بردًا وسلامًا على قلبٍ هاله المعنى، وامتزج فيه الألم بالرجاء والخشية بالحياء في رحاب المحبة، فأخذت أستحضر أبياتًا أخرى من فائية ابن الفارض:

قلبــــي يحـــــدثني بأنـــــك مُتلِفـــــي

روحــي فــداك عرفــت أم لــم تعــرفِ

عطفًــا علــى رمقــي ومــا أبقيــت لــي

مــن جسـمي المضـنى وقلبـي المُـدْنَفِ

اللهم آتِ نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها، يا كريم.



باطن الإثم، ونفس الداعية



[الأحد ٩/١٢/٢٠١٢]

الحمد لله

قرأ الإمام في صلاة المغرب من سورة الصف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[1]، فكان وقع الآيتين مزلزلاً للقلب.

فإذا كان هذا خطاب الله لعموم المؤمنين، فكيف الحال بنا معاشر المتصدرين لتبليغ الخطاب الإسلامي؟ أليس الأمر في حقنا أشد وآكد؟ ألسنا من يبلغ الناس أوامر الله ونواهيه؟ ألسنا نحن من أوجب الله على المسلمين الإنصات إلى خُطبنا وندبهم إلى الاستماع لمواعظنا؟ ونحن نقول لهم قال الله، وقال رسول الله. فكم قلنا ما لا نفعل، وكم قلنا ولم نفعل.

انصرفت من الصلاة مشغول البال بهذا المعنى، ثم تنبهت إلى

---

(١) سورة الصف: ٢، ٣.



معنى أدقّ، يلوح بين ثنايا السياق القرآني الشريف لهذه الآية، المقت هنا هو الكُره العظيم من الله لهذا (السلوك). نعم للسلوك وليس للسالك فقد ربط الله المقت بالقول ولم يقطع بإنزاله على القائل فالقائل لا تزال لديه فرصة التدارك ما دام على قيد الحياة.

وتذكرت أن الله جعل محبته للذوات فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]. ولكنه عندما ذكر الكراهية لم ينسبها إلى الذوات بل جعلها متعلقة بالأفعال والتصرفات فقال: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[2]، ربط الكراهية بالانبعاث ولم يقل كره الله (المتثبطين) فلم يوقعها على شخص من تثبط. وفي هذا تنبيه لنا بأن نتورّع عن الحُكم على الذوات؛ إذ أن الحكم على الذوات يتطلب أن تتوفر لدى من يحكم عليها معرفة قطعية بدواخل النفوس وغياهب النيات ومستقبل المآلات.

وهذا في الأصل يكون لله وحده، فإذا كان من يملك الحق والقدرة على ذلك لم يصرح به في هذا المقام؛ فكيف يكون لنا نحن أن نحكم ونقطع به؟ وذلك بالحكم على ذوات خلقه وكأننا اطّلعنا على دواخل نفوسهم ومستقبل خواتيم أعمالهم فهذا كافر بزعمنا وهذا منافق وهذا عدو لله، وهذا من حطب جهنم، وهذا

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٠.

(٢) سورة التوبة: ٤٦.



يريد، وهذا يقصد، وهذا يُخفى في نفسه، وهذا لم، وهذا لن، دون أن نتنبه إلى أن أكثر هذه الأوصاف خفية دفينة في طيات القلوب، وهي غيب الله وحده من يطلع عليه.

إن من يقتحم هذا الأمر يكون منازعاً لمقام الربوبية وإن لم يقصد حقيقة المنازعة. يا الله كيف سهل علينا التجرؤ على ادعاء الصفات الجلالية للرب؟ كيف سمحنا لأنفسنا بالتطاول على مقام الألوهية؟

وحينها حضرت في الذهن قصة عابد بنى إسرائيل مع فاسق بنى إسرائيل، وكيف أحبط الله حسنات العابد وغفر سيئات الفاسق، لأن العابد جزم بأن الله لن يغفر للفاسق! فوقع في ذنب هو أكبر من شرب الخمر وارتكاب الفواحش ـ مع كونها من الكبائر ـ ألا وهو ذنب منازعة الله في خصائص الربوبية بالحكم على بواطن الخلق ومستقبل مآلاتهم. وهذا الذنب من باطن الإثم وهو كذلك مؤشر يدل على وجود الكِبر في نفس العابد، فالعابد تكبَّر على الفاسق واحتقره بسبب ما عُرف عنه من المجون، والفاسق خجل من مقابلة العابد إجلالاً لما عُرف عنه من العبادة والنسك، وهذا التصرف من الفاسق كان مؤشراً يدلّ على أن ذنوبه ومعاصيه قد أورثت قلبه انكساراً ونفسه تواضعاً.

ورحم الله ابن عطاء السكندري حيث قال: رُبّ معصية أورثت



ذُلاً وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا.

وليس هذا المعنى ببعيد عن معصية آدم حين نسي، فانكسر بين يدي ربه واعترف وتاب فتاب الله عليه. وعبادة إبليس الطويلة التي أورثت في نفسه عجباً، فحسد آدم وامتنع عن السجود له امتثالاً لأمر الله، ثم تكبر عن الرجوع لربه تائبًا معتذرًا فطرده الله.

سبحان الله.. جعل الله بداية استخلافه إيانا في الأرض مرتبطة بهذا الدرس ومع ذلك لم نفقه أهميته! فكم مرة نظرتُ فيها إلى من اختلفت معه بعينٍ متعالية لحظة ظهور قوة الحُجّة التي سُقتها بين يديه وهي تدحض ما كان يطرحه. وكم مرة عاقَرَت نفسي (خمر) الفرح بالانتصار عليه والتشفّي بهزيمته إلى حد (الثمالة). ثم خيَّلتْ لي الأمّارة بالسوء بأن هذا من الفرحِ بإظهار الحق وانتصار الدين فانطلت عليَّ حيلتها وصدقتها وهي كذوب.

وكم مرة تلذّذَتْ هذه النفس (بزنا) النظر إلى إعجاب الناس وتعابير انبهارهم إلى حدٍ بلغت فيه (ذروة النشوة) من عذوبة ثنائهم على الأسلوب الحكيم المهذب، الذي تمكّنت به من استدراج من أحاوره إلى الاعتراف بأنه مُخطئ، وأنه لم يكن مُحقًا فيما ذهب إليه، وجهلتُ حينها أنه كان أرقى مسلكًا، وأصدق حالاً، بل وأعظم شجاعة مني، لحظة اعترافه تلك. بل قد كان هو التقي، وكنت الأثيم.



وكم (كفرت) بنعمة الستر عندما قابلتَ ثناء الناس بنفس (متبجِّحة) بادعاء التواضع والأدب، متفننة في نحت عبارات الاستغفار (الذي يحتاج إلى استغفار كما قالت رابعة العدوية)، متسترة بأدب الاعتراف (الكاذب) بالتقصير، وسُرعان ما ينكشف زيفها إذا أشرقت عليها شمس الاختبار.

فعند أول هجوم يتوجه إليَ بتهمة الكذب والنفاق تثور النفس غاضبة (لا لله) ولكن لعظمتها الموهومة وتبحث في قاموس الاحتيال عن أي مبرر لمهاجمة من اتّهمها، مترقبة إلى حين أن يصدر عنه خطأ ديني، أو سوء تصرف اجتماعي، لتنقضَّ عليه انقضاض النسر على الفريسة إذا لمح منها لحظة ضعف.

أين هذا من موقف مالك بن دينار عندما ناداه أحدهم: يا مرائي، فالتفت إليه وأجابه بتلقائية صادقة: من الذي دلّك على اسمي الذي أخطأه أهل البصرة؟

أواه منك يا نفس وآه..

أهذا ما لبستِ ثوب الدين من أجله؟ أهذا ما أمضيتِ العمر بدعوى الدعوة إليه؟ أيطيب لكِ السُّكرُ بخمر الهوى؟ ولذة المتعة؟ وغيبوبة الجحود؟

إنها أوهام تتلاشى ساعة الإفاقة، ويا لَخوفي من أن تكون

الإفاقة متأخرة، فلا تنتبهين إلا وقد نُصب الميزان الدقيق ذرّي المعيار! والمحاسِب هو الناقد البصير، عالم السر وأخفى! ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].



(١) سورة البقرة: ٤٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٤.

أنا متعصب

[الخميس ١٠/٤/٢٠١٤]

الحمد لله

سرّني أن جلست الأسبوع الماضي مع عدد من الشباب، منهم المتسائل ومنهم المتشكك ومنهم من يعتبر نفسه ملحداً. ودار الحوار

وسأل أحدهم عن الرأي في الفكر «الماركسي» فأجبته بأنه يحتوي على المقبول والمرفوض ولولا وجود ومضات من الحق فيه لما حمل عوامل الاستمرار، فالباطل المحض لا يقاوم عوامل الفناء، ولا يمكن أن يبقى قابلاً للاعتناق من قِبل الصادقين في البحث، ﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]، فهو بالرغم مما نراه باطلاً فيه يحتوي على الاهتمام بالعدالة الاجتماعية وإن اختلفنا معه في فلسفة تحقيقها، ولكنه يبقى فكرًا يقبل الحوار.

والمشكلة الكبرى مع الماركسية بدأت عند نقطة التحول من

(١) سورة الإسراء، ٨١.

التنظير إلى التطبيق في طورها اللينيني والستاليني، حيث احتيل على عواطف الكادحين ثم كانوا هم أولَ الضحايا لمجازر الدولة الماركسية اللينينية الستالينية، ونحن قد عانينا من بشاعة هذا التطبيق في الجنوب العربي «اليمن الجنوبي» فور استقلاله من الاحتلال الانكليزي وانضمامه إلى المعسكر الشرقي.

ثم قلت: «ماركس مفكر، لينين نصّاب، ستالين جزار».

وحاول الشاب أن يدافع عن أسباب المجازر التي ارتكبها ستالين ضد الملايين من شعبه قتلاً وتهجيرًا وتجويعًا على نحو يكاد يصل إلى تبرير هذه الجرائم بمبررات الحفاظ على الدولة وحماية المشروع، في الوقت الذي يشتد نكيره على ما تفعله دولته تحت نفس المبرر وهو لا يُقارن إطلاقًا بما ارتكبه ستالين.

وليس هذا هو المقصود من ذكر الموقف ولكن عندما أراد الشباب الحوار حول الإسلام والإيمان طلبوا أن يكون المجال مفتوحًا دون تقييد، فأجبتهم مُرحبًا: «بالطبع ليس هناك سقف للحوار سوى المنهجية العلمية والأدب في النقد». وهنا أجاب أحدهم بأسلوب خَلوق: ما هو ضابط الأدب في النقد؟ هل يمكن أن نصف الرموز المقدسة لديك بوصف «النصّاب والجزّار» كما فعلت مع لينين وستالين؟



وهنا تنبهت إلى الازدواجية الصادمة التي نعيشها نحن في حديثنا عن أدب الحوار، وإلى التعصب الدفين الذي يوجّه تصرفاتنا، ووقفت وقفة سريعة مع نفسي، فاعتذرت لهم عن اللفظين واعترفت بأنني كنت أمارس ازدواجية المعايير من حيث لا أشعر.

وطال الحوار إلى قرب الفجر حول الأدلة العقلية على وجود الله سبحانه وتعالى، وحول تداخل تأثير العقل والقلب والنفس والروح والجسد على قناعات الإنسان وردود أفعاله، وخرجت بشعور يغمر القلب بأنني تعلمت شيئًا جديدًا عن نفسي الأمّارة بالسوء، وأنني خرجت بحالة أفضل من الحالة التي دخلت بها، وأرجو أن يكون هذا هو ما خرج الشباب به.

وبعد صلاة الفجر في مسجد سيدنا الحسين وانتهاء درس الفجر «في كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق من إحياء علوم الدين»؛ آويت إلى الفراش متقلبًا مع أسئلة للنفس وتوقفات طويلة ما زلت أعيش معانيها حتى كتابة هذه الخاطرة.

لماذا لا تزال حتى الآن ترتكب هذه الحماقات؟ هل كان أدبك صورة زائفة تُجمّل بها صورتك أمام الآخرين؟ إلى متى تستمر مخدوعًا بنفسك الأمّارة بالسوء؟ هل هي ظلمة التعصب المقيت والهوى الأعمى؟ ما قيمة أنك تُدرّس علم الأخلاق وإصلاح القلوب وأنت ما تزال سيءَ الخلق مريض القلب؟ من أين أُتيت؟

وبعدها بأيام توفي الأستاذ محمد قطب المفكر والكاتب الإسلامي المعروف وشقيق الأستاذ سيد قطب؛ وفوجئت بسيل من الرسائل عبر وسائل التواصل الاجتماعي تتساءل وتستنكر ما سمّته «رفض الترحم على الفقيد» فأجبت بأن الفقير إلى الله لم يعلم بوفاته أصلاً فكيف أرفض الترحم عليه «رحمة الله عليه» واستنكرت أن يستمرئ الكذب من يدعي نصرة الإسلام.

فأجاب أحد الإخوة المحترمين بسؤال استنكاري جديد: كيف تتغنى بتمجيد مناقب «مانديلا» وتتجاهل مثل هذا الرمز؟ فكان مفاد الرد بأنه لا مقارنة بين فكر استقر على السلام وفكر بُني على التكفير والدم. وأترك لكم استنتاج ردة الفعل.

بالطبع لم أتوقف كثيرًا أمام ردود الفعل بسبب أنها متكررة في كل مرة يحدث فيها اختلاف فكري، فأمامنا وقت حتى نتعلم فضيلة قبول الاختلاف، ونتعلم الفرق بين نقد الفكر وتجريح الأشخاص، ونتعلم الفرق بين الثناء على المبادئ النبيلة وإقرار العقائد المخالفة.

فقط كان التوقف مع تعليق من أحد أقارب المُتوفَّى يحمل عتباً إنسانيًا لكون الرجل توفي قريبًا وأهله يتلقون العزاء فيه، فشعرت بالخجل من هذا الاقتران بين تناول الفكر وحالة الوفاة فبادرت إلى تعزيته والتأسف له عن ذلك.



هنا نجد أن لدينا مشكلة حقيقية في ازدواجية المعايير والتعصب اللاشعوري الذي يكمن وراء الكثير من ردود فعلنا ومواقفنا بل ومبادراتنا أيضًا. فهي مشكلة موجودة في نفوسنا قبل أن تكون في أفكارنا، ثم تأتي بعض الأفكار لتُغذّيها ثم يُستثمر ذلك في ساحات التديّن والفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع والإعلام.

* تجد ليبراليًا يتكلم عن حرية التعبير بملء فيه، ويُهاجم المُخالف ويتهمه بمصادرة حق الاختلاف، ثم تجده يبادر إلى المطالبة بسن قوانين «تمنع» مشاركة الخطاب الديني في السياسة، وتبرير مصادرة حق المتدين في ذلك بأنه يجعل العامي يتوهم بأن رأي المتكلم هو الدين وأن مخالفه مخالف للدين، مع غفلته عن حقيقة أنه أيضًا يوهم المتكلم بأن خطابه الليبرالي هو الحرية والتقدم وأن مخالفه هو الظلامي الرجعي!

* وتجد الإسلامي الحركي يُنكر على العلماء تعصبهم لمذاهبهم ويتهمهم بتقديس أئمتهم ورفضهم لانتقاد آرائهم، ثم تجده ينتفض عند أول انتقاد لرمز من رموز الحركة الإسلامية وينقضّ على المنتقد بالاتهامات الشنيعة ابتداء من الجهل ومرورًا بمداهنة السلطان وانتهاء بخيانة الدين!

* وتجد الاشتراكي الثوري يُنكر على النظام مصادرته لإرادة





الشعب واستخفافه بحق المواطن في حرية الاختيار، ثم تجده يتهم الشعب بالتخلف والجهل لمجرد أن يكون اختياره مخالفًا لتوجهه!

وهذه المشكلة هي أزمة عالمية نراها ونسمعها ونلمس آثارها في الواقع العالمي، بل ربما نجدها ضالعة في أعماق التاريخ الإنساني ضلوعها في عمق النفس الإنسانية.

نعم أيها الأحبة، فجُلّنا يرفع عقيرة الإنصاف وترك التعصب والازدواجية، وجُلّنا يتهم الآخر بهذا الداء وينكر ذلك عليه، ثم يقع هو في فخ التعصب والازدواجية مع اختلاف طرق التعبير عن ذلك وتنوع مصطلحات الشجب والاستنكار والرفض.

أيها الأحبة، لقد كشفت السنوات الثلاث الماضية عن عورة مُخجلة فينا وهي «الازدواجية» و«التعصب»، فمن يراجع مواقف كل من مؤيدي النظام والمعارضة اللذَين تبادلا الأدوار في بعض بلداننا يجد أن في كل منهم من يُمارس ما انتقده وينتقد ما مارسه بمجرد تبادل الأدوار وتقلّب الأحوال، إنها العيوب التي كانت أنفسنا تسترها عنّا حتى لا نعالج خللها ولا نتخلص من ضررها.

أيها الأحبة من مختلف التوجهات والخلفيات الفكرية: العيب والخلل في أنفسنا قبل أفكارنا.

أيها الأحبة، نحن «متعصبون»، نحن «مزدوجو المعايير».





وعلينا إذا أردنا أن نرتقي بأنفسنا وأوطاننا وأمتنا والبشرية أن نتخلص من هذه «الازدواجية» ومن هذا «التعصب»، فمن هنا البداية الصحيحة.

أيها الأحبة، البداية الصحيحة من معالجة داء «الأنا» «Ego» الذي يحملنا على «التعصب» و«الازدواجية».

البداية الصحيحة من شجاعة «نقد الذات»: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1]، وهناك فرق بين جلد الذات ونقد الذات فالأول هروب من تغيير الواقع والثاني إصرار على البداية الصحيحة لتغييره.

البداية الصحيحة من إعمال البصيرة في عيوب النفس وترك المعاذير والتبريرات: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[2].

اللهم آتِ نفوسنا تقواها وزكِّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها، يا رؤوفًا بالعباد.



(١) سورة يوسف، الآية ٥٣.

(٢) سورة القيامة، الآيتان ١٤ ـ ١٥.




(٢)
نقد الخطاب الإسلامي

نصيحة محبّ

[الأحد ٢٠١٢/١١/٢٥]

الحمد لله

إلى إخوتي الذين اختاروا خدمة الإسلام من خلال العمل السياسي في اليمن ومصر والسودان وليبيا وتونس والمغرب وغيرها من البلاد، بحرص الناصح وحرقة المحب، أقول لكم:

أنتم ذاهبون، والشباب الذين لا يروق لكم فكرهم أو تصرفاتهم هم القادمون؛ وأنتم تتحملون جانبًا من المسؤولية عن مستقبل تعاملهم مع الإسلام، وذلك بحسب تعاملكم معهم اليوم، وتقدير آدميتهم، واحترام عقولهم، ومقابلتهم بصدق المحبة، وحسن التفهّم لما عندهم من هموم ومطالب. فاتقوا الله في الحكم على هؤلاء الشباب، فلولاهم لما سُمع لكم اليوم صوت، وإن وقفت معكم قوى الشرق والغرب.

لا تحكموا على نيّاتهم ومقاصدهم، ولا تجزموا بمآلاتهم،

ففي ذلك منازعة ظاهرة لخصائص الربوبية.

ولا تمنُّوا على الله باستقامتكم، فتزدروهم بمعاصيهم وتحقروهم بهيئاتهم، فهذا كِبرٌ يبغضه الله ويقصِم صاحبه، وإن كان عابدًا أو مجاهدًا.

ولا تركنوا إلى ضجيج من يهتف لكم فليسوا لكم بناصحين. ولا تغترّوا بدولة سلطانكم، فهي حتمًا تدول، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(١).

فرِّقوا بين اجتهاداتكم السياسية، ومخاطبة الناس باسم الله؛ ليس فصلاً للدين عن الحياة، فهو الحياة، ولكن حتى لا يُشاب دين الله المعصوم بدَخَل اجتهاداتكم السياسية، فهي جُهدٌ بشريٌ يعتريه الصواب والخطأ.

وأُذكّركم هنا بما أورده الحافظ ابن القيم في «إعلام الموقِّعين» من قول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ لرجل رفع مسألته إلى القضاء أيام خلافته: ما صنعتَ؟ فقال الرجل: قَضى عليٌّ وزيدٌ بكذا. فقال عمر: لو كنت أنا لقضيت بكذا. قال الرجل: فما يمنعك والأمر إليك؟ قال: لو كنت أردُّك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لفعلت، ولكني أردُّك إلى رأيي، والرأي مشترك. فلم ينقُضْ قضاء

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.



عليٌ ولا رأي زيد بالرغم من أنه أمير المؤمنين.

تأملوا جواب سيدنا عليّ رضى الله عنه عندما سُئل عن سيرهِ إلى معركة صفّين هل كان بعهد عهده إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أم برأي رآه، إذ قال: «بل رأيٌ رأيتُه».

فلم يَنسب قتاله لمن خرجوا عليه بسيوفهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بالرغم من أنه ولي أمر المسلمين واجب الطاعة، وأن الذين خرجوا إلى قِتاله متأولين يمكنه وصفهم بالبغاة.

فالله الله في أنفسكم وفي الشباب وفينا. واعملوا على أن يبقى معنى هذه الآية ساريًا فيمن يخلُفكم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾(١).

وأهمس في أذن الشباب الذين يشعرون بالتضرر من المسار المذكور: الإسلام أكبر مني وممن يرى أنه يدعو إلى نصرته، وهو طريق صلة قلوبكم بربكم القريب الكريم الغفور الرحيم. فلا تعرفوه بنا، بل اعرفونا به. ولا تقيسوا شرعته السمحة من خلال تصرفاتنا وأخلاقنا، بل قيسوا تصرفاتنا من خلال شرعته وخُلق نبيه العظيم.

لا تجعلوا من أخطائنا حجابًا يشوِّش صلتكم بالله، فليس لكم

(١) سورة الحشر، الآية ١٠.



سواه، وهو نعم الصاحب في السفر، ورحلة كفاحكم سفر شاق؛ فالجؤوا إليه تجدوه أقرب إليكم من أنفسكم وأحنّ عليكم من أمهاتكم.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.



رسالة محبّ

[الأحد ٢١/٠٤/٢٠١٣]

الحمد لله

إخوتي قادة العمل «الإسلامي» السياسي في مختلف الدول، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قبل الشروع في المقصود أُشهد الله على محبتكم والإشفاق عليكم من ساعة الوقوف بين يدي حكمٍ عدلٍ لا تخفى عليه خافية، فإن صدقتُ في ذلك فهو وليّ الصادقين، وإن كانت نفسي الأمّارة بالسوء قد لبّست عليَّ الأمر فأسأله أن يُرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه وأن يُرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

فاقبلوا من أخيكم الصغير هذه الكلمات التي سطّرها في المدينة المنورة ليخاطب بها من قلوبكم أوعية القرآن، ومن أعماركم ليالي قضيتموها في تلاوته سُجدًا ورُكّعًا وفي طلب نُصرته مسجونين ومضطهدين ومشردين. وتحمّلوا إخوتي ثِقَل صراحتها فإن ما تشهده

الأعين وتسمعه الآذان وتفقهه القلوب والعقول من تتابع الأحداث مؤذِنٌ بخَطبٍ جلل ينزل بهذه الأمة فيصيب إيمان شبابها وثوابت ثقتهم في دينهم وأخشى عليكم أن تكونوا من أسبابه:

ـ إخوتي، نهاكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طلب الإمارة بقوله فيما رواه البخاري ومسلم: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعنت عليها»(١)؛ فطلبتموها بل سعيتم إليها ونافستم عليها.

ـ وحذّركم من الحرص على الإمارة وأنذركم بأن أوّلها مَغنم وآخرها مَغرم بقوله فيما رواه البخاري: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنِعْم المرضعة وبِئْست الفاطمة»(٢)؛ فبذلتم لها الغالي والنفيس من الفكر والجهد والوقت والمال، بل من دماء شبابكم وغيرهم من شباب الأمة. متوهمين أنها السبيل إلى تحكيم شرع الله والتحقق بالاستخلاف والتمكين.

بينما جاء سياق الوعد صريحاً في «تكليفنا» بالإيمان والعمل الصالح، وتكفل الله لنا بالاستخلاف والتمكين، وذلك في قوله

---

(١) صحيح البخاري في كتاب الأيمان والنذور، صحيح مسلم باب نَدبِ من حلَفَ يمِينًا فرَأَى غَيرَهَا خَيرًا منها أنْ يَأتِيَ الذي هو خَيرٌ ويُكَفِّرُ عن يمِينِهِ.
صحيح مسلم جزء ٣ صفحة ١٢٦٨.

(٢) صحيح البخاري، باب ما يكره من الحرص على الإمارة.

تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(١).

فتأملوا نسبة الإيمان والعمل الصالح إلينا ونسبة الاستخلاف والتمكين إليه، بل تأملوا ارتباط التمكين في الآية الكريمة بالدين وليس بالحكم، لتدركوا مكمن القوة فيه ويتضح لكم كيف استمر انتشاره واتساعه قروناً بالرغم من سقوط الخلافة «الراشدة» بعد ثلاثين سنة من وفاة النبي وتحولها إلى المُلك العضوض كما وصفه في الحديث.

ـ إخوتي، لقد أقسم النبي بالله تعالى أن شريعته تقتضي أن لا يُعطى الإمارة من سألها وذلك فيما رواه مسلم من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّا والله لا نولّي هذا العمل أحدًا سأله، ولا أحدًا حرص عليه»(٢)؛ فرددتم مستشهدين بقول سيدنا يوسف للمَلكِ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾(٣) غافلين عن كون الملك هو من استدعاه قائلاً: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾،

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) صحيح مسلم، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها.

(٣) سورة يوسف، الآية ٥٥.



ولعلكم نسيتم أيضًا أنّ يوسف عليه السلام نبيٌّ معصوم من أهواء النفوس وأطماعها التي حذّرنا منها النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وإن كان هناك من ملوك زماننا أو دُوَله مَن قد استخلصكم لنفسه وعمل على تمكينكم أو وعدكم بذلك، فانظروا في قلوبكم بعد الأشهر القليلة التي مضت عليكم في هذا المخاض نظرة متفحِّص ناقد وتفقّدوها هل عُصمَتْ بما عصم الله به نبيه يوسف أم أنها فُتنت بما حذّرنا منه خاتم النبيين؟

نعم إخوتي، أناشدكم الله أن يخلو كلٌّ منكم بربّه في ساعة محاسبة قدسية صادقة ومساءلة جادّة للنفوس الأمّارة:

كم مرة وجدتم أنفسكم تكذبون فبرّرَت لكم أنفسكم الكذب بأنه ضرورة والضرورات تبيح المحظورات دون مراعاة للضابط الشرعي للضرورة ومشروعية التوسّع فيها؟

وكم مرة وعدتم فوجدتم أنفسكم تخلفون وعودكم وبرّرت لكم أنفسكم ذلك بأن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح دون تحقق من صحة الاستشهاد وتعارضه مع المفسدة الأخلاقية للخُلف ونتائجه؟

وكم مرة عاهدتم فيها غيركم فوجدتم أنفسكم تنكثون وبرّرت لكم أنفسكم ذلك بأن الحرب خدعة دون التزام بمصطلح الحرب



في الشريعة ولا بتحريمها نقض العهود ولو كانت مع الكافر الحربي ؟

وكم من بريء اتهمتم وأنتم تعلمون براءته وكم من صادق كذّبتم وأنتم تعلمون صدقه ؛ وأما هذه فقد عجزت عن الوصول إلى الأساس الذي عليه اعتمدَتْ أنفسُكم في تبريرها ؟ ؟

إخوتي ، وكم من كُفؤ عن المناصب أقصيتم وضعيفٍ من أتباعكم ولّيتم ومعياركم في ذلك هو مدى الانتماء إليكم والولاء لكم ؟ فهل لبّست عليكم أنفسكم أمر الولاء لكم بالولاء للدين ؟

وهل كان إيمان سيدنا أبي ذر رضي الله عنه ضعيفًا أم كان ولاؤه للنبي مشكوكًا فيه حين رفض النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يُعطيه إمارة سألها قائلاً له: «يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها»(١) ؟

أوَلا تخشون إخوتي الوعيد الشديد فيما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم : «أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس ، علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله ورسوله وغش جماعة المسلمين»(٢) .

---

(١) صحيح مسلم ، باب كراهة الأمارة من غير ضرورة.

(٢) كنز العمال ، الحديث رقم ١٤٦٥٣.





إخوتي، وكم من دمٍ معصومٍ مُعظّم الحرمة عند الله من شبابكم وشباب مخالفيكم تسببتم في سفكه بغير مُسوّغ سوى أن أنفسكم تُمنيكم أن هذا في سبيل الله؟ والله يعلم أن طلب التمكين من الإمارة ليس مما يُعد القتال فيه جهادًا في سبيل الله. وكيف يُعد جهاداً في سبيل الله وهو مخالفة صريحة لهدى النبي؟

وآه ثم أواه إخوتي، فكم من شاب فُتن في دينه بسبب توهمه أن ما تقولونه وتفعلونه هو الإسلام بعد أن استشهدتم على ذلك بآيات من كتاب الله وكلام حبيبه ومصطفاه بغير وجهٍ معتبَر فلم يستسغ عقله ولم يقبل قلبه أن يبقى على دين يُبرر الكذب والخُلف والغدر والقتل!

أما تخشون إخوتي أن يتحقق فيكم الوعيد الشديد الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[1]؟

أما ترتعد فرائصكم وتجفل قلوبكم من التفكير في احتمال أن تكونوا من الذين يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً؟ وما الذي يعصمنا من الوقوع في ذلك؟ أولم يكن أُولئك القوم أهل دين مثلنا ثم غلبت عليهم أطماع نفوسهم في السلطة والمال فحرفّوا الكلم عن مواضعه؟

---

(١) سورة البروج، الآية ١٠.





وأخيرًا، أُذكّركم إخوتي بقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى اللهَ مغلولا يوم القيامة يده إلى عنقه فكّهُ بِرّهُ، أو أوثقه إثمُهُ أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها خزي يوم القيامة»[1]. حديث صحيح رواه أحمد.

وبقوله نفسي له الفداء: «خيار أئمتكم الذين تُحبونهم ويُحبونكم، ويُصلّون عليكم وتُصلّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم». رواه مسلم[2].

أسأل الله ألا يحجب نقصُ الصدق عندي نورَ الحقيقة المودعة في هذه النصوص الشريفة عن قلوبكم، وأُعيذكم بالله من أن تكونوا من المُستدرَجين، وأسأله ألا يَكِلكم إلى أنفسكم طرفة عين فتخدعكم بالمسارعة إلى التذرّع بأن الآخرين أيضًا فعلوا وفعلوا، أو بالمبادرة إلى رفض ما في هذه السطور والتحوّل عنه إلى استعراض عيوب كاتبها ونقائصه، وهي والله جد كثيرة.

بل أسأله بنور وجهه الذي أشرقت له الظلمات أن يُبصّركم بحقيقة أن إساءة غيركم لا تصلح أن تكون عذرًا لإساءتكم حين يسألكم الله عنها يوم يقف كل منّا بين يديه فقيرًا ذليلاً عاريًا. فإنّ

(١) مسند أحمد بن حنبل، الحديث رقم ٢٢٣٥٤.

(٢) صحيح مسلم، باب خيار الأئمة وشرارهم.

وبال إساءة غيرنا عائد عليه، وإن سؤال الله لمن وقّعوا على أقوالهم وأفعالهم باسمه تعالى أشد وأعظم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(١).

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها، وأيقظنا من الغفلة قبل فوات المُهلة، يا رؤوفًا بالعباد.



(١) سورة النساء، الآية ١٣٥.



ردًّا على رسالة محب ١ ـ ٢

[الأربعاء ٢١/٠٤/٢٠١٣]

الحمد لله

وصلت رسالة عبر صفحة «فيسبوك» فيها رد ينتقد الخاطرة الأربعون «رسالة محب» آثرتُ نشرها كما هي، على أن تكون الإجابة عنها هي موضوع الخاطرة القادمة، وذلك لطول الرسالة وتعدد مواضيعها، ولأن أسلوب صياغتها يكاد يخلو من الانحراف عن تناول موضوع الرسالة إلى الاشتغال بالنيل من شخص المخالف، وهو مسلك أخلاقي أصيل يوشك أن يختفي من ساحة الاختلاف الفكري في هذه المرحلة الحساسة التي تمر بها الأمّة؛ فما إن يظهر اختلاف في رأي أو موقف من طرف اتجاه آخر حتى يسارع الطرف المقابل إلى التحول عن تناول موضوع الاختلاف إلى الطعن في شخص المخالف والحكم على نيّاته ومقاصده مع عدم التورّع عن محاولة إلصاق التهم به ولو بالافتراء عليه لإسقاطه وتشويهه وتنفير الناس عن الاستماع إلى طرحه دون تناول موضوعي

لطرحه، بينما انشغل كاتب الرسالة بنقد الأفكار مع رعاية لأدب الاختلاف وأسأل الله أن يجعل في نشرها والإجابة عنها تجديداً وإحياءً للمسلك الأخلاقي في الاختلاف.

وإليكم نص الرسالة:

«الأخ الفاضل الحبيب علي الجفري

قبل أن أبدأ أريد أن أوضح بأن الفضل لله ثم لك في هدايتي لطريق الحق وتصحيح الكثير من أفعالي وأفكاري ولقد سميت ابني الكبير «علي» محبة لك فلك في قلبي محبة لا تنقطع ولك عليّ فضل لا ولن أنساه ولا أزكيك على الله لكني أحسبك من عباده الصالحين المخلصين وبعد،

سيدى الحبيب لا أشك لحظة في صدق نواياك وطيب ونزاهة مقصدك حين كتبت رسالة محب إلى قادة العمل الإسلامي السياسي، لكن اسمح لي وأنا أكبرك سنًا وأصغرك مقامًا وعلمًا أن أبدي بعض الملاحظات وليتسع صدرك للسماع فلعل كلامي يجد طريقًا بين بحور علمك وغزير ثقافتك ليصل إلى قلبك.

سيدي الحبيب، نعم لقد نهانا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن طلب الإمارة ولكن هذا لا ينطبق بحال من الأحوال على وضعنا في مصر، فلو كانت الأمة كلها تريدك أميرًا واتفقت عليك دون طلبك

فلن تستطيع أن تلبي طلب الأمة إلا بأن ترشح نفسك، فترشيحك لنفسك ما هو إلا آلية لتنفيذ رغبة الشعب في تنصيبك أميرًا عليهم وليس طلبًا منك للإمارة، وما تطلبه يا سيدي الحبيب هو أن يمتنع كل الملتزمين في مصر ومن يريدون حاكمًا مسلمًا عادلاً نزيهًا عن المشاركة في العمل السياسي وأن يحرموا من حقهم في اختيار حاكم لهم من نفس فكرهم وعلى شاكلتهم.

فكلامك كما فهمته أن كل مسلم ملتزم يتقي الله ويخشاه لا يصح له أن يرشح نفسه لانتخابات سواء رئاسية أو برلمانية أو غيرها فكلها من قبيل الإمارة التي لا تطلب، وفي هذا إهدار للحقوق شنيع لا يقبله الله ولا تقبله حتى القوانين الوضعية. نعم من حق أي مصري أن يكون له خيار يتماشى مع فكره وأيديولوجيته وأنت تريد أن تحرمنا من هذا الخيار.

في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته والسلف والخلف والتابعين وتابعي التابعين كان الدين هو الأساس، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزوج الرجل بما حفظه من القرآن، كان أغلبهم على خير فأمّر من تريد أميرًا ففي كلهم خير، أما اليوم فمن حقنا كشعب يخشى الله ويخشى على أبنائه وعلى مقدراته أن نختار من أتقانا فنحن لا نثق في رجل لا دين له ولا نثق في رجل دينه الإسلام وهو أبعد الناس عنه، نريد أن نصبر نفسنا مع الذين يدعون ربهم بالغداة



والعشي يريدون وجهه ولا نريد أن نتبع من أغفل الله قلبه عن الذكر واتبع هواه وكان أمره فرطًا.

لماذا تريد أن تحرمنا من ذلك وهو حق أقره الله لنا بل أمرنا به؟ لماذا تجبرنا على أن نختار من بين شيوعي وعلماني وناصري وملحد لنوليه أمرنا ونترك له رقابنا ونأتمنه وهو غير مؤتمن على أولادنا وأموالنا وأعراضنا؟ هل هذا يرضي الله أن نترك جميع مقدراتنا دينًا ودنيا لأناس لا تخشى الله ولو وُجد الله في قائمة لهم سيكون في آخرها. لقد جربناهم وخبرناهم وفعلوا فينا الأفاعيل فلقد حكمنا الناصري والشيوعي والرأسمالي والليبرالي وما رأينا منهم إلا العذاب، سرقونا، قتلونا، استحلوا كل شيء فينا.

والآن وبعد أن وهبنا الله بفضله ونعمته أن نختار من يتقي الله فينا تريد أن تحرمنا ذلك بحجة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهانا عن طلب الإمارة؟ نحن لا نقول بأن نولي رجلاً من رجال الدين أميرًا ولكن نولي مهندسًا ملتزمًا ويخشى الله، نولي محاميًا يتقى الله نولي طبيبًا أو عالمًا أو مدرسًا أو حتى فلاحًا بشرط القدرة وتقوى الله، هل في ذلك خطأ هل في ذلك فساد هل هذا مما يغضب الله؟

يا سيدي الحبيب إن الله صرح لنا بالخروج على الحاكم إذا ظهر منه كفر بواح مما يُفهم منه أن الله جعل الدين أساسًا للحكم فلو أنّ لنا الحق في الانقلاب على حاكم أظهر الكفر البواح فمن الأولى



أن يكون لنا الحق في اختيار من يتقي الله. سيدي الحبيب الموضوع ليس عصرًا نعيشه أو أيامًا نقضيها ولكنها أجيال تتربى على كل ما هو فاسد ومخالف لدين الله.

ذهبت إلى مدرسة ابنتي فوجدت في الدور الأول صورة كبيرة لتمثال فرعوني مكتوب عليه تقريبًا «إيزيس إلهة الحب» وفي الدور الذي يليه صورة لتمثال آخر مكتوب عليه اسم فرعوني وبين قوسين «إله الحب» والذي يليه إله «الشمس والقمر»، فذهبت مستاءً لناظرة المدرسة واعترضت كيف يمكن أن توضع تلك الصور بهذه الأوصاف أمام أطفال صغار فقالت: «ده تاريخ الفراعنة ودول أجدادنا»، وهذه قصة من آلاف.

يا سيدي الحبيب لقد ضاعت القيم والأخلاق وسُرقت الأراضي ونُهبت الخزائن واستُعبدت الضمائر وغُيب الشباب بالمخدرات والأفلام الإباحية وصودرت وصُدرت العقول المفكرة، أكلنا لحوم الحدادي على أنها دجاج وأكلنا طحينًا يحوي الكيلو منه على ١٦٠ حشرة سامة وشربنا من مياه الصرف وأكلنا من مياه المجاري وسُرقت منا الدنيا والآخرة لأن من حكمونا لم يراعوا الله فينا، فالله كان في آخر أولوياتهم إن وُجد.

وأرد على كلامك يا حبيب وأنا لست أهلاً لذلك ولكن الله يعلم ما في قلبي: إنه يأثم كل مسلم ملتزم يرى في نفسه القدرة على

القيادة والإصلاح إذا لم يرشح نفسه لكل موقع في الدولة، فأين الحرية إذا وهبنا الله حق الاختيار ولم نجد من نختاره؟ لا تتركوا الساحة يا قادة الإسلام السياسي كما يحلو للبعض أن يسميكم لا تتركوا الساحة للشيوعي والليبرالي والناصري والعلماني فلقد خبرناهم جميعًا وتأكدنا بأنه لا أمان لمن لا دين له.

ويا سيدي الحبيب ما تدعو إليه هو أن يتقوقع كل ملتزم بدينه حريص على آخرته في بيته وفي مسجده ويسلم رقبته وكل مقاليد الحكم بكامل إرادته للعلماني والليبرالي والشيوعي ليفسدوا في مصر كما أفسد فيها سلفهم وليهدموا البيوت والمساجد على رؤوس من فيها. سامحني إذ أقول لك بكل الحب والتقدير: اتق الله، اتق الله، اتق الله، واعلم وأنت أعلم مني بهذا بل أنت من علمني هذا بأن الدنيا إلى زوال وأنك ستحاسب أمام الحيّ القهار وأنه لن ينفعك مال ولا أمراء ولا شيوخ ولا ملوك ولا دول. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوك المحب حسن حلمي».

وتجدون الإجابة عن أهم نقاط هذا الرد في الخاطرة القادمة إن شاء الله. اللهم يا من وفق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفقنا للخير وأعنّا عليه.

ردًّا على رسالة محب ٢ ـ ٢



[الأحد ٢٨/٠٤/٢٠١٣]

الحمد لله

كتب أخٌ كريم ملاحظاته على «الخاطرة الأربعون رسالة محب»، وقد نُشرَت ملاحظاته في الخاطرة الماضية، وأودّ في هذه السطور أن أقدّم قِرى ضيافتها بالإجابة عنها:

أخي الكريم أبا علي رعاك الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،

فقد وصلت رسالتك الراقية في المحبة والأدب والتواضع مع التعبير عن الاختلاف في الرأي، وهذا المسلك الجميل نفتقده اليوم عند الاختلاف.

وقد قرأها أخوك الفقير إلى الله بتمعّن وتقدير وخجلٍ من الكريم الستّار الذي أظهر لك الجميل وستر عنك قبيح أحوال أخيك.



وجزاك الله خير الجزاء على ما ختمت به رسالتك من الوعظ والتذكير بتقوى الله عزّ وجلّ وعدم الاستجابة لدواعي فتنة الدنيا وإغراءات أهل المناصب فيها، وألتمس منك ألا تنسى أخاك المسكين من خالص الدعاء بالتحقق بذلك، فنحن والشيوخ والملوك والأمراء الذين أشرت إليهم جميعًا عبيد فقراء إلى الله لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًا فضلاً عن أن نملك لغيرنا شيئًا من ذلك، كما أسأل الله الذي أحببت عبده فيه أن يكتبك في خاصة عباده المحبوبين.

وأستأذنك، أبا عليّ، في إبداء ملاحظتين أساسيتين على ردك الكريم

۞ الملاحظة الأولى:

أن الفقير لم يقم قط بدعوة الناس إلى الإعراض عن التصويت لاختيار من يرونه صالحًا لولاية أمرهم. وأما عن انسداد طرق التوصل إلى وليّ أمر صالح أمين مكين إلا عبر الترشح ضمن الآلية الحالية فهو أحد نتائج تخلّفنا عن المشاركة في صياغة نُظم الحياة المعاصرة وتطويرها ممّا جعلنا نتوهم أننا أمام أحد خيارين أحلاهما مُرّ:

الخيار الأول: هو الانزواء بعيدًا عن المشاركة في الشأن العام



فِرارًا بديننا مع التخلف عن العمل على نهضة الأمة والاكتفاء بالعمل على إصلاح النفس.

والخيار الثاني: هو الانخراط في القيم والآليات المتاحة في عصرنا التي فرضها علينا تخلُّفنا عن الإسهام في مسيرة الركب المعرفي الإنساني، محاولين بذلك التوفيق بين هذه المنطلقات ومنطلقاتنا الشرعية، مما نتج عن تلك المحاولة إفراز ضعيف الثبات على القيم، عاجز عن الإنجاز عجزَهُ عن تقويم ما لا يتناسب مع ثوابتنا ومنطلقاتنا، وذلك لأننا قد «سَلّمنا» بصحة القيم المعاصرة وآليّات تفعيلها كما هي، مكتفين بطرح فكرة «أسلمة العمل السياسي» كما طرحنا فكرة «الإدارة الإسلامية» و«الاقتصاد الاسلامي» و«الفن الاسلامي» التي لا تختلف كثيرًا عن المنطلقات الحداثية اللادينية للسياسة والإدارة والاقتصاد والفن إلا في المظهر المُطرّز بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والتلفيق بين مختارات من فتاوى الفقهاء السابقين دون رؤية منهجية واضحة المنطلقات والآليات، فبدت هذه «الأسلمة» ممسوخة مشوّهة، ضعيفة الصلة بالمقاصد الشرعية والأخلاقية، وهي مع ذلك متعالية على النقد والتقويم متترِّسة بعصمة الإسلام مُتّهمة من يُعارضها بمعارضة شرع الله.

وخلاصة القول أننا لسنا أمام مشروع إسلامي ناضج، ولكنها فكرة منبثقة عن إيمان يُحاصره طموح متولّد من رحم الإحباط،

ويُغذيه رفضٌ أليم لمرارة واقع الأمة الأثيم. والفكرة إذا تدحرجت على أرض التطبيق دون أن تتبلور في مشروع ناضج فإن كوارثها قد تزيد الواقع سوءًا.

۞ الملاحظة الثانية:

وهي متعلقة بالبديل الأصيل المتجدد وهو الخيار المطلوب المُغيَّب عن حساباتنا وتفكيرنا، إنّه جهد «التأصيل والتوصيل»، كما سمّاه شيخنا الإمام الأصولي العلّامة عبد الله بن بيه، الجامع بين النظرة الثاقبة في علم الشرع والاطّلاع الواسع على فلسفة العصر. وهو الرجل الذي خاض في شبابه تجربة المشاركة السياسية ضمن القالب المعاصر فأسس وتولى في سبعينيات القرن الماضي ثمان وزارات إبّان مرحلة تأسيس الدولة الموريتانية الحديثة مع ثُلة من أهل العلم والفضل والسياسة، ووُفّق في جوانب عدة منها ترسيم ملامح هويّة دولة موريتانيا، ثم خرج من العمل السياسي عفيف النفس نقيّ الثوب، وحاصل خبرته في موضوعنا هو:

أن دور الخطاب الإسلامي في نهضة الأمة لا يكون عبر إقحامه في ترجيح كفّة على أخرى أثناء التنافس السياسي على السلطة بل عبر بناء منهج مؤصَّل مخدوم من التجديد الشرعي المقاصدي الناضج والتنظير الفكري المعرفي والعمل الدعوي الدؤوب، وقبل



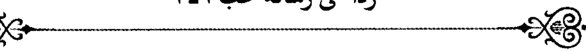
ذلك وأثناءه وبعده صدقٌ في جُهد التربية ومرابطة في ثغور تزكية النفوس وإصلاح القلوب.

وهو جهاد شاق من نوعيّة الصناعة الثقيلة التي تتطلب بذلاً وصبرًا، وتكاملاً بين مختلف الكفاءات مع عفّة عن الاستسلام لشهوة قطف الثمار.

إنّ هذا العمل أخي الكريم يوصل المقصود إلى الجيل دون أن نُشتّتهم في معترك الولاءات لجماعات انشطارية تصادمية عجزت عن استيعاب بعضها بعضا في منعطف الاختلاف على صناعة القرار وإدارة المرحلة، وليتك تتذكر نموذج حرب الأفغان الأهلية التي قاد أطراف الصراع فيها من كانت تجمعهم ساحات الجهاد ضد المحتل الروسي، ونموذج تقسيم السودان في مرحلة تصارع «الإسلاميين» على توجيه القرار فيها وهم يحملون «المصاحف» على أسِنّة «الرماح» التي يطعن بها الأخ أخاه ويهتف عند كل انتصار موهوم «الله أكبر».

فكيف يمكن لمن ضاقت ولاءاتهم عن استيعاب بعضهم بعضا أن يستوعبوا ما تعجّ به بلداننا من أطياف التوجهات الفكرية المتنوعة، سريعة التطور والتداخل والتفاعل.

إنّ ما ينتظره الشباب من الخطاب الإسلامي هو التنوير الرباني



الذي يمتزج بقلوبهم وتستنير به عقولهم لينطلقوا نحو نهضة حقيقية يشيدونها بقناعاتهم الاختيارية وسواعدهم المتكاتفة دون تغذيةٍ لفتنة الانقسام البغيض المتسارع الذي يُصنِّف الشباب ويقسّمهم بين «إسلامي طاهر» و«ليبرالي عاهر».

وهنا ينبغي أن نعي جيدًا أن حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مجيء زمان ينقسم فيه العالم إلى فُسطاطي إيمان ونفاق خالصين، على فرض صحة روايته[1]، يحمل في طياته تنبيهًا لنا إلى العمل على توسعة فسطاط الإيمان لا أن نطرد شرائح واسعة من شبابنا منه بسبب عجزنا عن تقديم خطاب معرفي أخلاقي منهجي مُقنع، منطلق من الأصل ومستوعب للعصر، تعبّر عنه تصرفاتنا ومواقفنا دون أن تُناقض أفعالُنا أقوالَنا.

فقل لي بالله عليك يا أبا عليّ، هل تعتبر المستوى الأخلاقي لمخاطبتنا للمخالف السياسي نموذجًا مُشرّفًا للسياسة الشرعية الإسلامية؟

وهل يجوز لنا أن نُهرول إلى التترُّس خلف شعار الشريعة كلما احتدم التنافس السياسي واشتد وطيسه مجرِّدين من يُخالفنا من إيمانه وأمانته ووطنيته بل من إنسانيته؟

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

أرجو أن تتأمل ذلك مع ملاحظة أن نقاط هذا الاختلاف تدور حول آليات السياسة بغض النظر عن المصيب والمخطئ فيها، لكنها تبقى في الإطار الذي أعلن «الإسلاميون» قبوله ضمن المنظومة الديمقراطية، بل لقد اعتبروه صورة من صور الشورى في سياق الأسلمة العشوائية للمفاهيم المعاصرة.

فأين ذهبَتْ قيمة «الأمانة» أخي الكريم يوم أن أُعلن أنّ الخيار بين آلية وأخرى في الاستفتاءات السياسية خيار بين إسلام وكفر؟ أليست «الأمانة» قيمة من القيم الأساسيّة في اعتبارات التدين؟

وأين ذهبت مراقبة الله وخشيته عندما تمّت المجازفة بتوجيه تُهمة الخيانة والفساد بل تهمة معاداة الإسلام لأشخاص كان من يتّهمهم اليوم يكيل لهم المديح بالأمس ويضرب الأمثال للناس بأمانتهم ونضالهم وشرفهم وتضحياتهم؟

بل لقد وُجّهت بعض هذه الاتهامات إلى أشخاص كانوا يعدّونهم من الرموز «الإسلامية» وفيهم من واجه وناضل وسُجن وتعرّض للأذى إبّان المراحل السابقة فما إن أبدوا مخالفتهم لتوجهات أو قرارات سياسية ضمن إطار العملية الديمقراطية المُتفق على مرجعيتها بين الأطراف حتى جُرّدوا من كل وصف حميد وأُلصق بهم كل وصف ذميم!

ولعلك إن راجعت بعض ما آلت إليه تقييماتك لهؤلاء الرموز ستجد أنك قد استُدرجت إلى هذا الفخ غير الأخلاقي من حيث لا تشعر ولا تقصد.

أخي الكريم،

المبادئ والقيم ثوابت لا تتغير، بينما تقدير المصلحة بين الخيارات المُتاحة هو المتغير، ويوم أن نقبل التنازل عن الثوابت في خِضَمّ تأرجح المتغيرات نكون قد أصبنا تديننا في مقتل، ونكون بذلك قد دفعنا الأجيال دفعًا إلى اختيار تنحية الدين عن الحياة العامة، إن لم نكن قد فتنّا شريحة منهم في دينهم كله بدفعنا إيّاهم نحو هاوية التشكك في المُعتقد وتزعزع الإيمان فيؤول بهم الأمر إلى تنحية الدين عن حياتهم كلها.

ولعله اتضح لك أن أخاك إذ يُبدي هذه الملاحظات على إخوته من «الإسلاميين» فهو لا يصطّف بذلك في صفوف معارضيهم السياسيين.

أخي الكريم،

إن استبداد الأنظمة السابقة قد بغَّض إلى الناس الظلم، ولكنّ استبداد من يبرر ظلمه بالنصوص الشرعية يُبغّض إليهم شرع الله. ودونك الاعتبار بحصاد الثورة «الإسلامية» الإيرانية: مئات الآلاف

من الشباب النافر عن الإسلام والمتبنّي للإلحاد أو اللادين، أو فصل الدين عن الحياة في أفضل حالاته.

وأخيرًا،

لعل بعض محتوى هذه الأسطر لا يرقى إلى مستوى قناعتك أخي الكريم، وهذا حقك، غير أن ما أرجوه هو أن تحتفظ بها إلى حين، فلعلّك تعود إلى مطالعتها يوم أن تتزاحم الأسئلة في رأسك حول كل شيء.

أسأل الله أن يبارك في ولدك «علي» وفي إخوته وأمّهم وأن يجعلهم قرة عين لك وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.



يا شيخ أختلف مع حضرتك



[الخميس ٢٠١٢/١١/٢٩]

الحمد لله

وصلَتْ على إثر الخاطرة الماضية تعليقات وردود أفعال عديدة غير أن أكثر ما استوقف الفقير إلى الله رسالةٌ عبر صفحة فيسبوك من شاب مصري خَلُوق أبدى ملاحظات على الخاطرة. ولِما لمست في كلماته من صدق وأدب أحببت التعليق عليها.

وقد قسّمتها إلى فقرات بحسب الموضوع، وذكرتها بنصّها بين قوسين مع التعليق على كل فقرة منها:

«يا شيخ أختلف مع حضرتك»

بارك الله في أدبك وليت الخلافات ترقى إلى هذا المستوى من الأخلاق، وَأْذَنْ لأخيك بعد قبوله لنصيحتك ببعض البيان وأحب في البداية أن ألفت نظرك الكريم إلى أن المقال شامل لدول المنطقة وليس مقتصرًا على مصر الحبيبة وحدها.



«أشعر من كلام حضرتك لأول وهلة أن [من اختار خدمة الإسلام من خلال السياسة] ، وكأن الإسلام سوق ننقي الي عايزينه ونسيب الي مش عايزينه ، كلهم كهول ، أيامهم في الدنيا معدودة ، بالعكس بفضل الله الغالب في الحركات الإسلامية الشمولية هم الشباب» .

أخي الكريم ، عبارة من يرون أنهم يخدمون الإسلام من خلال السياسة المقصود بها تحديد مجال الخدمة ، حيث إن مجالات خدمة الإسلام متعددة يختار المسلم منها ما يتقنه ويراه أولوية ، ولا يستطيع فرد ولا جماعة أن تتكفل وحدها بجميعها وإن ظنت الشمولية في منهجها .

فسَعة الإسلام وشموله لشؤون الحياة لا يمكن اختزالهما في منهج جماعة مهما اتسعت فكرًا وكثر أتباعها عددًا وانتشروا مساحةً وصدقوا في خدمته بذلاً وتضحية . ولا يمكن أن تُطابِق سعةُ جماعة واحدة سعةَ الإسلام فهو أكبر وأوسع وأعظم من ذلك .

وغياب هذا الفارق المهم بين الإسلام وبين من يسعى في سبيل خدمته عن العقول والقلوب قد يؤدي إلى تعطيل سعته بأيدي من يعملون على خدمته . وذلك حين تتوهم نفوسهم أنهم هم الإسلام ويتصرفون على هذا الأساس من حيث يشعرون أو لا يشعرون فيعتبرون مخالفهم مخالفًا للإسلام وخصمهم خصمًا

للإسلام وعدوهم عدوًا للإسلام. وهذا من باب لزوم ما لا يلزم بل ما لا يصح أن يلزم.

وبدون فقه «تقسيم الأدوار وِفق تنوع الإمكانيات»، وفقه «الأولويات وفق إدراك المطلوب» مع معرفة الفارق بين المطلوب والمتاح والفارق بين المهم والأهم، فمن الصعب الخروج بعمل نافع جاد يصل بنا إلى سعة الإسلام وشموله.

وأما عن الشعور وكأنهم كهول فلعلك فهمت ذلك من عبارة «أنتم ذاهبون» ولكن الذهاب هنا ليس بسبب تقدم السن بل بسبب سُنّة التداول ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

كما أن الشريحة المخالفة أيضًا غالبها من الشباب ولعل نماذج من أمثال محمد جابر صلاح (جيكا) ومينا دانيال لا تغيب عنك وما أظنك إلا متألماً لما أصابهما كما تتألم لما أصاب إسلام مسعود. وهناك العشرات بل المئات إن لم يكونوا ألوفًا من أمثالهم في اليمن ومصر وليبيا وغيرها بذلوا كل شيء فقُوبِلوا من قِبَل بعض القيادات الدينية بمستوى اسمح لي بأن أنعته بأنه غير أخلاقي من التهجم عليهم والتشكيك في نياتهم وانتماءاتهم وأخلاقهم، وعلى نحو لا يقره الإسلام من التخوين والقذف والتشويه مهما كان اختلافنا مع

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.



أفكارهم وتصرفاتهم.

«ولما حضرتك تقول على «تيارات مش إسلامية» أنهم لولاهم لما سمع للإسلاميين صوت غير صحيح، نعم هناك فصيل إسلامي لم يشارك في الثورة بل كان يحرمها لكن هناك فصائل إسلامية أخرى على رأسها الإخوان المسلمين وشباب الإخوان شاركوا في الثورة من البداية وذاقوا ما ذاقوا قبلها وأثناءها وبعدها وأخذوا حريتهم بأنفسهم».

أخي، كلنا يعلم أن الشباب الذين بدأوا التحرك ليسوا ممن يُنعتون بالإسلاميين وإن كانت تضحيات هؤلاء لا تُنكر أيضًا. لكن الإنصاف يقتضي أن يقال إنهم في هذه المرة كانوا مسبوقين.

وإن لم ترَ ذلك فعلى أقل تقدير يمكن القول إنهم بدون وجود الأطياف الأخرى لم يكونوا لينجحوا وحدهم في إحداث التغيير الذي حصل.

«ياريت نسمع بعض، ياريت نسمح لنفسنا سماع الآخر وتقبله زي ما بنادي مع الملحدين والنصارى. ياريت نسمع لكل الآراء وكل وجهات النظر قبل أن نبني مواقف مش نسمع اللي على هوانا».

أخي، لك الحق في هذه وسوف أحمل نفسي الأمارة بالسوء على الانتباه لنصيحتك إن شاء الله وادع لأخيك بالمعونة على ذلك.



وأُقرّ لك بأني لست ثوريًا ولا سياسيًا ولا أحب المزايدة بادّعاء ما ليس لي في هذا المجال.

لكن عندما أصبحت بعض التصرفات المزرية تُرتكب باسم الإسلام فتمسّ ثقة الشباب في دينهم وتُزعزع ثوابت إيمانهم حتى وصل العديد منهم إلى حد «الإلحاد»! أصبح التنبيه عليها ذودًا عن الحق واجبا، على الأقل فيما ظهر للفقير.

«أسأل الله يا فضيلة الشيخ أن يجعلك للحق ناصرًا وعن شرعه منافحًا ويجري الحق على قلبك ولسانك ويفتح عليك فتوح العارفين به».

آمين اللهم آمين وجزاك الله خير الجزاء على حسن نصيحتك وجميل دعائك وبارك في جهدك وهمّتك وغفر لنا جميعاً ذنوبنا وتحمّل عنّا التبعات وحفظنا فيما هو آت.

وختامًا، ليت إخوتي يضعون احتمالاً ولو ضعيفًا لإخفاق مشروعهم الذي لا أتمنى إخفاقه لكنه احتمال وارد فقد أخفق من هم خير منّا في معركة أُحد بسبب اجتهادٍ خاطئ من ساداتنا الرماة رضي الله عنهم.

فإذا فكرنا في مثل هذا الاحتمال الوارد أدركنا أهمية إبقاء مساحة لملاحظة أمر الحفاظ على مستقبل إيمان الجيل. وذلك كي لا نتسبب في قيام ثورة ثانية بعد الثورة السياسية لكنها قد تكون في

هذه المرة على الدين! كتِلك التي حصلت في أوروبا.

فإن نار العلمانية المتطرفة المقصِية للدين عن الحياة كان وقودها تصرفات الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، تقييدًا للتطوّر وتسلطًا على الناس باسم الله. وقد أصبح البعض في منطقتنا يتبع سَننهم «شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا في جُحر ضب» التضييق على الناس باسم الدين والتسلُّط عليهم باسم الله «لدخلوه».

وردة الفعل المقابلة ستكون أيضًا اتباع سَننهم «شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا في جُحر ضب «الإلحاد» أو إقصاء الدين عن الحياة «لدخلوه». وهو ما حذّرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم منه.

ويكفينا أن نُراجع مسار تعاملاتنا مع المخالف، ونُقارن بينها وبين الهدي النبوي الشريف الذي نهى عن تعيير مرتكبي الكبائر والحكم على أحوالهم ونيّاتهم. فأين نحن من قصة الصحابي عبد الله الذي شرب الخمر بعد تحريمه؟ ألم يشهد له النبي بمحبة الله ورسوله؟

فقد ورد في صحيح البخاري أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان اسمه عبد الله شرب الخمر فأمر به فجُلِد فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يُؤتى به، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»[1]!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب ما يكره من لعن شارب الخمر...



رجل يؤخذ متلبسًا بشرب المنكر ثم يقوم بعد العقوبة ليجلس بجانب النبي ويُضحك النبيَ بدعابته وخفّة ظله. نعم هذا هو الإسلام ولكن أين هذا من الغالب على تصرفات متدينينا اليوم؟

إن بعض ما نراه ونسمعه اليوم من مخاطبةٍ باسم الإسلام للمخالِف في العمل السياسي يُذكِّر بصكوك الغفران وقرارات الحرمان في العصور الوسطى! والنتائج الوخيمة بدأت تتشكل في الأذهان والنفسيات بالفعل.

فقد أسفرت دراسة أولية شارك في استبانتها نحو ستة آلاف شاب عبر الشبكة العنكبوتية «الانترنت» أن ١٢٪ منهم أصبحت لديهم إشكالات تجاه الدين نفسه! أما من لديهم إشكالات مع لهجة الخطاب أو الأشخاص الذين يبلغون الخطاب فقد تجاوزت ٦٥٪ فماذا ننتظر؟

قد أكون مخطئًا أو مبالغًا في حساسية الاستشعار بالخطر الداهم، لكن هذا ما ظهر للفقير.

وأرجو، أخي الكريم، إن لم تقتنع به ألا تمحوه من جهازك ولا من ذاكرتك فلعله يأتي اليوم الذي تجد نفسك فيه راغبًا في إعادة قراءته بحثًا عن إجابات لأسئلة لا تشغل بالك الآن.

أخي الحبيب دفعتني لهجتك الصادقة المهذبة إلى هذا الرد المطول. واللهَ الكريمَ أسأل أن يلهمنا جميعًا من الرشد ما هو أهله، لا ما نحن أهله، والسلام.

الفرق بين المسلم والإسلامي



[الأحد ١٧/٠٣/٢٠١٣]

الحمد لله

كثر تناول مصطلح «الإسلامي» هذه الأيام على نحو هو أقرب إلى الفوضى منه إلى التناول الناضج. والذي نعرفه هو أن الله تعالى قد أقرّ تسمية خليله إبراهيم عليه السلام لنا بالمسلمين وليس بالإسلاميين: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(١).

وقرأت للبعض أنه مصطلح دخيل ألصقه العلمانيون بمن يعملون لخدمة الإسلام. ثم لاحظت أن إخوتي الذين يرون أنهم يعملون في خدمة الإسلام قد تبنّوا هذا المصطلح فصرنا نسمع عن الإداريين الإسلاميين والاقتصاديين الإسلاميين والسياسيين الإسلاميين.

ووجدت من يدافع عن المصطلح ويراه صحيحًا من جهة اللغة

---

(١) سورة الحج، الآية ٧٨.

والاستخدام فهو من وجهة نظره يُطلق على من ينتسب في منطلقاته إلى الإسلام.

وقد علّق أحد الفضلاء على عبارة للفقير إلى الله حول الموضوع باستشهاده بقاعدة: «لا مشاحّة في الاصطلاح»، وعلق أيضًا بأن المصطلح قديم، واستشهد بكتاب «مقالات الإسلاميين» لإمام أهل السنة ومجدد القرن الثالث الهجري أبي الحسن الأشعري رحمه الله.

فتوقفت مع تعليقه متأملاً مستفيدًا وخرجت بنتيجتين:

الأولى: أن احترام قاعدة «لا مشاحّة في الاصطلاح» تقتضي أنه لا بد من تحرير المصطلح ومعرفة المقصود به. والثانية: أنه لا بد من النظر في سياق استخدام الإمام الأشعري للمصطلح.

أما الأولى وهي تحرير المصطلح فيكتنفه من الغموض ما يصعب معه إيجاد ضوابط حقيقية للاستخدام المعاصر للمصطلح. فالجماعات التي تعمل باسم الإسلام اليوم بينها تباين كبير في تعريف المصطلح حتى أنّ فئات من الذين يحملون لقب «الإسلامين» يكفِّر بعضهم بعضًا! فكبار مُنظّري الجماعات التي تدّعي الجهاد يُصرحون بتكفير الحكام الذين يحملون لقب «الإسلاميين» في مصر وتونس والمغرب وغزة على أساس أنهم لم

يحكموا بما أنزل الله! والذين كُفِّروا يعدّون هؤلاء المنظرين من الخوارج ووصل الخلاف بينهم في غزة إلى الاقتتال!

والثورة الإيرانية تسمّت بالثورة «الإسلامية»، وحزب الله اللبناني لقّب نفسه بالمقاومة «الإسلامية»، والجماعة «الإسلامية» في مصر تعتبرهم كفارًا ومثلها الجماعة «الإسلامية» في باكستان! وحزب الإصلاح في اليمن يقدم نفسه بصفته حزبًا «إسلاميًا» بينما اعتبرهم مقبل الوادعي شيخ السلفية في اليمن زنادقة! وكلاهما متفق على اتهام حركة الحوثيين «الإسلامية» الزيدية بأنهم شيعة مجوس! وهكذا هو الحال بين جبهة الإنقاذ في الجزائر ومن يتسمون بالجهاديين!

بينما يَجمع العلمانيون والليبراليون هذه الجماعات التي لا تجتمع في سلة واحدة ويسمونهم «الإسلاميين» ليحطّوا من قدرهم ويتخلّصوا منهم دفعة واحدة. وهكذا يجد الباحث نفسه أمام فوضى لا يجد معها تحريرًا معتمدًا للمصطلح. والحديث عن فوضى المصطلحات ليس من قبيل ترف التنظير بل هو أمر ضروري لوضع اليد على الجذور الحقيقية للمشكلة.

وأما النتيجة الثانية وهي السياق الذي استخدم فيه الإمام الأشعري هذا المصطلح في كتابه «مقالات الإسلاميين» فهو سياق



مختلف تمامًا عن السياق الذي ارتضاه المعاصرون ممن يُسمون أنفسهم بالإسلاميين لأنه أطلقه على كل فرقة نسبت نفسها إلى الإسلام، وأخذ يجمع معتقداتهم من مصادرهم ليشكل بذلك مرصدًا دقيقًا لمقولاتهم ومعتقداتهم يمكن به تمييز المسلمين من هذه الفِرَق الإسلامية عن غيرهم.

فتجده يذكر مقالات «الإسلاميين» من الشيعة الغالية الباطنية مثل «الجناحية» الذين يعتقدون بأن روح الله تجسدت في آدم ثم تناسخت حتى حلت في إمامهم وأن إمامهم رب، ويذكر أنهم يكفرون بيوم القيامة. و«المُغيرية» و«الخطابية» الذين يدّعون نبوة إمامهم و«المنصورية» الذين يعتقدون أن إمامهم هو ابن الله. ويذكر مقالات الإسلاميين من الشيعة الإمامية من المفضلة والرافضة ويذكر مقالات الزيدية وفرقهم المعتدلة والمتطرفة.

ثم يذكر مقالات «الإسلاميين» من الخوارج ومنهم «الأزارقة» الذين يكفّرون كل من لم يهجر المجتمع لينضم إليهم، و«النجدية» الذين يحكمون بالشرك على من يصر على الكذبة الصغيرة، و«الحمزية» الذين يرون وجوب قتال السلطان وكل من رضي بحكمه. ثم يذكر مقالات «الإسلاميين» من المرجئة والمعتزلة والجهمية إلى آخر مقولات من سماهم الإمام بالإسلاميين.

والخلاصة أن الإمام الأشعري في القرن الثالث كان يطلق مصطلح «إسلامي» على كل من يدّعي أنه مسلم ولو كان يعتقد معتقدات كفرية. وعليه فليس كل إسلامي عنده مسلمًا! وعليه فالمسلم عنده أرقى من الإسلامي!

هذا هو تحرير مصطلح «الإسلامي» في القرن الثالث الهجري وهو بلا شك مختلف اختلافًا كليًّا عمّا يقصده «الإسلاميون» في عصرنا. لذا يبقى السؤال قائمًا: ما المقصود بكلمة إسلامي؟

وإلى أن يتم تحرير المصطلح ويتضح المقصود منه أُعلن بأني لست «إسلاميًّا» ولكنني مسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾[(1)]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[(2)].

يا ذا الجلال والإكرام أحيني مسلماً وتوفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

---

(١) سورة النساء، الآيتين ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٣.



أيها الخطباء، إنه منبر النبي!



[الأحد ٠٢/١٢/٢٠١٢]

الحمد لله

حضرتُ خطبة جمعة في صنعاء أيام حرب الخليج، وكان الخطيب متحمسًا للرئيس العراقي صدام حسين إلى درجة أن ألقى قصيدة في مدحه من على «المنبر» شبّهه فيها بصلاح الدين الأيوبي! ولم تمض مدّة طويلة حتى كان خطيب الجمعة يتهم صدام بأنه السبب في هيمنة الأمريكان على المنطقة!

وفي حرب ١٩٩٤ بين الحزبين الحاكمين في اليمن، صدعت المنابر بالدعوة إلى الجهاد في سبيل الله لصالح أحد الحزبين ضد الحزب الآخر على اعتبار أن من في الحزب الثاني كفار شيوعيون وجهادهم فريضة، مع أنني سمعت أحد هؤلاء الخطباء في مناسبة زواج بصنعاء يقول لأحد قيادات هذا الحزب قبل الحرب بشهرين: إن الخلاف الذي بيننا خلاف سياسي وليس بخلاف عقائدي لأنكم مسلمون.



وهكذا جرى تجييش الشباب على قدم وساق، وارتفعت أصوات المنابر بنداء «حي على الجهاد»، وعقدت دروس في المساجد تحكي «كرامات» المجاهدين، ومن هذه الكرامات أن عددًا من «الحمير» ركضت أمام الشباب «المجاهدين» في حقل ألغام فانفجرت الألغام في الحمير ونجا هؤلاء الشباب من موت محقق! (قيل هذا في محاضرة مسجلة).

وسالت الدماء أنهارًا، وكان القصف ينهال على المدنيين الذين لم يشاركوا في القتال؛ وقد رأيت بعيني في مستشفى عدن جثثًا لأسرة مكونة من والدين وثلاثة أطفال أحدهم رضيع بين ذراعي أمه وقد تفحّموا. كما رأيت أعدادًا ممن فقدوا أعضاءهم وآخرين ينزفون.

وبعد الحرب صار الحزب الذي نادى خطباؤه بالجهاد شريكًا للحزب المنتصر في حكم البلاد؛ ثم اختلف الحليفان، وتنازعا على السلطة، وأقصى الحزب الحاكم شريكه حزب الخطباء. فضجّت المنابر مرة أخرى، لكن هذه المرّة ضد الحزب الذي كان القتال في صفّه بالأمس جهادًا في سبيل الله!

وبينما يُطلق الرئيس حملته الانتخابية من جامعة إسلامية يرأسها داعية قيادي في حزب الخطباء، كانت «المنابر» تصدع في

نفس الوقت بأن انتخاب منافس الرئيس واجب شرعي، لأن الرئيس كما يراه الخطباء «فاسد»!

ولا تنتهي تناقضات خطباء السياسة عند هذا الحد، فبعد سنوات تشكّل ائتلافٌ سياسي في اليمن اسمه «اللقاء المشترك»، وكانت «الصدمة» الكبرى لمن لديه قدرٌ بسيط من حضور الذاكرة، حيث تحالف فيه خطباء «منابر» الجهاد المزعوم عام ١٩٩٤ مع من كانوا ينعتونهم بالكفار الشيوعيين ضد الحزب الحاكم الذي غدر بهم وأقصاهم عن السلطة، بعد أن كانت «المنابر» بالأمس تُجيّش الشباب «للجهاد» معه ضدهم!

فهل أسلم كفار الأمس وكفر مسلموه اليوم؟

وتمضي الأيام حتى جاءت ثورة اليمن في خضم لما سُمي بالربيع العربي. وفي هذه المرة انقسمت المنابر بين محرّضٍ يدعو إلى الثورة باعتبار أنها مطلب إسلامي لإحقاق الحق ومناهضٍ لها على اعتبار أن الثورة خروج على وليّ الأمر المنتخَب.

بينما تردّدت مواقف كبار الخطباء، «ومنهم الخطيب الذي أطلق الرئيس حملته الانتخابية من جامعته الإسلامية»، فهُم بين محاولة الصلح والسعي إلى المواءمة حقنًا للدماء، وبين الثناء على الشباب الثائر.



تعاني صنعاء الآن، نتيجة لهذا العبث، من سقوط مصداقية «المنبر» إلى درجة تفشّى فيها التنصير السري وأخذت القاديانية والبهائية طريقها للانتشار بين بسطاء الناس، مع نمو سريع لأفكار اللادينية لدى مثقفي الشباب في اليمن. والله المستعان.

وكم يردد الشباب متسائلين:

لماذا تُستغَل المنابر وتوظَف في ألاعيب السياسة؟

لماذا يصرخ فينا خطباء ومكبر الصوت ملتصقٌ بأفواههم؟

لماذا لا يذكرون إلا النار والعذاب والغضب؟

لماذا يُشعروننا وكأن الله لا يُحبنا؟

لماذا نشعر من طريقة كلامهم بالاستخفاف بعقولنا؟ أم أن المشكلة في عقولهم؟

لماذا يستغلون أننا مُلزَمون بالإنصات للخطيب ليُفرغوا غضبهم وعقدهم فينا؟

لذا، أناشدكم الله إخوتي الخطباء، لا تجعلوا «منبر النبيّ» جزءاً من التنافسات السياسية، فتُفقِدوه مصداقيته. لا أتحدث بلغة عزل المنبر عن الحياة، فمهمّة منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ترشيد الحياة، لكن هذا الترشيد يفقد مصداقيته إذا أصبح جزءاً من لعبة التنافس على الحكم.



إخوتي الخطباء ليصدع «منبر» النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبيّنًا للنّاس هديه الشريف. لنخطب عن أخلاق العمل، لنخطب عن قيمة الإتقان، لنخطب عن أهمية الإنتاج، لنخطب عن فريضة العدل.

إخوتي الخطباء: هيا بنا نخطب عن فرض الكفاية في الشريعة، حتى نأكل ما نزرع، ونلبس ما ننسج، ونصنع ما نستخدم. هيا بنا نُبيّن للناس أن تخلُّف الأمّة عن ركب الحضارة «حرام»، وأنّ «من لا يأكل من فأسه لا ينطق من رأسه» كما كان شيخنا الإمام الشعراوي يقول. هيا بنا نبيّن للناس أن من لا يستقلّ باقتصاده لا يملك قراره.

إخوتي الخطباء: هيا بنا نخطب لتوعية الناس بمبادئ الشريعة وآدابها في الاختلاف، وكيفية إدارته؛ قيمة الصدق، ومسؤولية الكلمة؛ حقن الدماء، وحرمة النفس؛ أمانة الرأي، وقوة الحق، واحترام حق الاختلاف.

إخوتي الخطباء: هيا بنا ننشر الوعي بأهمية المحبة والأخوة، واحترام بعضنا البعض، وتعظيم الحرمات، فلا قذف ولا سب ولا لعن، تطبيقًا للشريعة كما قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾[1]، «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[2]، كما قال

---

(١) سورة البقرة، الآية ٨٣.

(٢) صحيح مسلم، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.



صاحب المنبر.

إخوتي الخطباء: هيا بنا ننشر أهمية رعاية حرمة غير المسلم، عملاً بقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]، وعملاً بقول صاحب المنبر: «من قتل نفسًا معاهَدًا لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»[2]، وقوله «ألا من ظلم معاهَدًا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»[3].

إخوتي الخطباء: هيا بنا ننشر أهمية القيام بحقوق الوالدين، والتوبة من العقوق، وأهمية أداء حقوق الأبناء، وحسن رعايتهم. هيا بنا نُذكّر بحق الأرحام وخطورة قطيعة الرحم، وبحق الجار وعدم إيذائه، وبحق الطريق، وحق من يمشي فيه.

إخوتي الخطباء: هيا بنا نخطب عن أداء الأمانة، والوفاء بالعهد والوعد، وصدق القول. هيا بنا نُعلّم الناس أن حقيقة التديّن ليست في المظاهر والهيئات، ولكنها تظهر في ميادين المعاملة.

فالمعلّم يُحضّر لدرسه ويلتزم بحصصه ويهتمّ بطلبته؛ والعامل

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣٢.

(٢) صحيح البخاري، باب إثم من قتل ذميا بغير جرم.

(٣) سنن أبي داوود، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا في التجارات.



يُتقن عمله وينضبط في دوامه ويُجوّد إنتاجه؛ والتاجر يصدق في قوله ويكون أمينًا مع المستهلك ورحيمًا بالفقراء؛ والسياسي يفي بوعده ويؤدي أمانته ويُؤْثر القضية العامّة ومصلحة الأمة على نفسه وحزبه.

إخوتي الخطباء: هيا بنا ننبّه الناس إلى أهمية حماية البيئة، وأن الله استخلفنا في الأرض، وحمّلنا أمانة الحفاظ عليها. هيا بنا نُذكّر الناس بأن الله جعل الفلاح منوطًا بتزكية النفس، وتغليب فضائلها على رذائلها، وأن الله توعَّد بالخيبة من أهمل تهذيبها وإقرارها على أطماعها ورَغباتها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[١].

هيا بنا نخطب عن حسن الظن بالله تعالى، ونذكّر الناس بعظيم رحمته، وعنايته وحلمه ومغفرته. لنحبب الله إلى خلقه، ونشوِّقهم إلى قربه. هيا بنا نخطب بما يفتح أبواب الأمل في فضل الله، ونجعل الناس يُقبلون على بناء أوطانهم بسعادة وفرح ورجاء.

إخوتي الخطباء،

أليس في هذا تفعيل لدور المنبر في الحياة؟ فهكذا كان منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهكذا ينبغي أن يكون.

إخوتي الخطباء: إن اعتلاء منبر النبي مسؤولية ثقيلة ينبغي أن

(١) سورة الشمس، الآيتين ٩ ـ ١٠.

نستشعرها، فتخفق قلوبُنا عند ارتقاء درجاته، وترتعد فرائصُنا عند التفكير في ثقل أمانته، وتكون ألسنتنا من وراء قلوبنا عند إلقاء الخطب، حتى لا تلهث قلوبنا وراء ألسنتنا.

لم أخطب منذ عامين سوى ثلاثة جُمع على الرغم من أن المنابر متاحة للفقير إلى الله، وذلك للشعور بجلال المنبر، وعِظم مسؤولية ما يُلقى على الناس من على سُدته، لا سيما في هذه المرحلة الحرجة.

اللهم ارزقنا الإخلاص لك فيما ننوي ونعتقد ونقول ونفعل، يا كريم.



فليبحث له عن شرع آخر

[الخميس ٣١/٠١/٢٠١٣]

الحمد لله

«هذا شرع الله، ومن لم يعجبه شرع الله فليبحث له عن شرع آخر»!

هكذا وبكل بساطة قالها خطيب الجمعة لمن اعترض على كلامه الذي يشرح به الشريعة وفق فهمه هو لنصوصها، ليساند موقفًا سياسيًا في قضية اختلف عليها الناس، وهو أمر مباح لا يتعلق بأحكام الوجوب ولا حتى الندب. وكأن فهمه للشرع أصبح هو الشرع قطعي الدلالة الذي يخرج من يرفضه عن الإسلام! فهاج المسجد وماج بمن فيه بين رافض لكلامه ومدافع عنه.

«الكلام في الجمعة يفسد الجمعة»

هكذا وبهذه العبارة توهم أن المسجد سيعود إلى سكينته التي انتُهكت قُدسيتها من على سُدة المنبر الشريف بإصراره على التحيز

لاختيارات التيار السياسي الذي يُناصره في موقف لا يخضع للإلزام الشرعي إلا فيما يتعلق بالتزام أمانة الاختيار.

«أنتم في بيت من بيوت الله فارعَوا حرمته»

كانت هذه محاولته الثالثة للتهدئة، مذكرًا بحرمة بيوت الله التي هتكها بتحويل سدة منبر النبي من مظلة تخاطب جميع الأطراف بما يُرَشد شؤون حياتهم روحيًا وعمليًا، في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلى طرف متحيّز في صراع التنافس على الحكم.

«واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا»

كانت صرخته الأخيرة في محاولاته للتهدئة بعد أن زاد الضجيج في المسجد وعَلَت أصوات المصلين بالهتافات المتعارضة، ولم ينتبه إلى أنه قد مزّق بكلماته في الخطبة أواصر هذا الاعتصام.

كانت تلك نصوص لعبارات كان خطيب أحد الجُمع يصرخ بها في المصلين الذين اعترتهم حالة من الهياج بعد أن سمعوا منه توجيهًا في أحد الاختيارات السياسية المباحة بعد أن أعطى الاختيار الذي أراده صفة الشريعة واعتبر الاختيارات الأخرى مخالفة للإسلام!

بالطبع لا يقبل مؤمن أن يرى شعيرة الجمعة وهي تضطرب على هذا النحو، ولا ريب أن العبارات التي نادى بها الخطيب، باستثناء الأولى منها، عبارات شرعية صحيحة، لكن السؤال المطروح: لماذا لم يستجب لها المسلمون الذين يُصلون في المسجد؟

والإجابة عن هذا السؤال المهم تتطلب طرحَ أسئلة أخرى:

هل كان تصرفه في الخطبة شرعيًا؟

هل حافظ الخطيب على قُدسية الشعيرة في موقفه؟

هل كانت ألفاظه التي اختارها تُشعر بطمأنينة المكان ورقي العبادة وهدي النبوة؟

هل كانت عبارته الأولى مشوبة بالثقة المتغطرسة في خضوع الناس لكلامه المعنون بالشريعة والمدبّج بشواهد الآيات والأحاديث ومواقف السلف الصالح من الصحابة والتابعين على نحو يجعلك تتساءل هل كان مدبجًا أم (مدججًا)؟

هل هناك أية دلالة في تدرجه في صيحات تحذيره للمصلين من قوة «التحذير الحازم» من مخالفة الشريعة إلى «التنبيه الصارم» على أن الكلام أثناء الخطبة يفسد الجمعة، ثم إلى «التذكير المنبه» على حُرمة بيوت الله، ثم إلى «رجاء» الاعتصام بحبل الله ونبذ التفرق؟



وهل لهذه الدلالة صلة بصدمته من فقد عباراته للفاعلية التي اعتادها في التأثير على قلوب المؤمنين وتصرفاتهم كلما خاطبهم بها قبل أن يخوض مخاض العمل السياسي الحزبي؟

وهناك سؤال هام يستدعيه الموقف بجملته: هل هذا الموقف يمثل نموذجًا مصغرًا يمكن أن يكون مقدمة لحالة عامّة من التدهور قد نصل إليها، لا قدر الله، إذا استمر الإهدار السياسي للمخزون الإيماني في قلوب الناس؟

«يا معاذ، أفتّان أنت»[1]؟ قالها سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم موبخًا سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه. لِمَ يوبخ نبيُّ الرحمة صحابيًّا جليلاً وفقيهًا كبيرًا بتحذيره من أن يكون فتانًا؟

وما الموقف العظيم والخطأ الجسيم الذي وقع فيه كي يتوجه إليه النبي بهذا الخطاب الشديد اللهجة؟

كان سيدنا معاذ يُصلي بقومه من الأنصار في مسجدهم بعد أن يُصلي مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ فأطال عليهم الصلاة ذات يوم حتى أنّ أحدهم لم يتحمل الإطالة بسبب حاجته إلى الانصراف لبعض أشغاله فما كان منه إلا أن فارق الجماعة وأكمل صلاته منفردًا لينصرف إلى شأنه. فلم يرَ سيدنا معاذ أنّ هذا التصرف يتناسب مع حال المؤمن

(١) صحيح البخاري، باب من شكا إمامه إذا طول.

واتهم الرجل بالنفاق. ولما بلغ الرجل اتهامه له بالنفاق آلمه هذا الاتهام، فشكاه إلى سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «يا رسول الله إنّا قوم نعمل بأيدينا ونسقي بنواضحنا [الجِمال التي تحمل الماء]، وإن معاذاً صلى بنا البارحة فقرأ البقرة فتجوزت، فزعم أني منافق! فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معاذ، أفتّان أنت؟ أفتّان أنت؟ أفتّان أنت؟ اقرأ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ونحوها، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»[(١)].

أنكر نبيُّ الرحمة هنا على سيدنا معاذ أمرين: الأول: التطويل على الناس في الصلاة إلى درجة تجعلهم يستثقلونها، والثاني: اتهام من لم يتقبل اجتهاده في اختيار سورة طويلة بالنفاق في دينه.

وفي هذا درس عظيم لمن يتولى مسؤولية تصدّر الخطاب الإسلامي لأن البلاغ عن الله أمر بالغ الخطورة. فهو يُعطي متصدر الخطاب سلطة معنوية على القلوب المؤمنة بالرغم من أنه لا كهنوت في الإسلام وأن كُلاً منّا يُؤخذ من قوله ويُرد إلا النبيّ المعصوم. وهذا يقتضي خوفًا وحذرًا لدى متصدّر الخطاب من أن تشوب نوازع نفسه ما يحمله من أمانة مسؤولية هذه السلطة الروحية فيؤدي ذلك إلى فتنة الناس في دينهم، وهذا هو مقتضى الشعور بالمسؤولية تجاه هذه الأمانة العظيمة.

---

(١) صحيح البخاري، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا.

فإذا كان النبي قد حذّر من هذه الفتنة في أمر متعلق بتطويل الصلاة فكيف بمن يزج بمنبره في معترك التنافس على السلطة؟ ثم يقول لمن يرفض موقفه: هذا شرع الله، ومن لم يعجبه شرع الله فليبحث له عن شرع آخر؟

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1]، اللهم يا من وفّق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفّقنا للخير وأعنّا عليه.



(١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

صرخة أسماء

[الأربعاء ١٩/١٢/٢٠١٢]

الحمد لله

إلى سادتي وإخوتي من العلماء والدعاة

إليكم صرخة صادقة من فتاة مؤمنة وصلت عبر صفحة الفقير إلى الله على «فيسبوك» تستحق التأمل العميق لأنها تمثل شريحة من النساء تضررن من طريقة بعضنا في فهم الشريعة السمحة وفي التعبير عنها وتطبيقها. وهن «ما زلن» متشبثات بإيمانهن خائفات من تفلته، فهل من مستجيب يلبي؟

وإليكم نص الرسالة بتصرف يسير؛ إذ حذفت تسمية التوجه الديني لأسرتها والمشايخ الذين ينتمون إليه:

«السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته،

لا أُحس بأن حمزة كاشغري فقد إيمانه.

(حمزة شاب سعودي كتب عبارات في «تويتر» فُهم منها أنه



يقصد الإساءة إلى الرسول الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، فثار المجتمع عليه ولم يقبلوا تراجعه ولا اعتذاره ولا حتى توبته واستغفاره! بل طالبوا بقتله! وهو حتى الآن في السجن، أسأل الله له الفرج).

أحس بأن الضيق والتشدد اللذين ربما عاش فيهما ولَّدا بداخله حيرة وأسئلة هو نفسه لا يعرف لماذا يطرحها وأين إجابتها، وكل هذا ناتج عن فهمنا الخاطئ للدين الحقيقي وتشويه صورة الله عندنا نحن كعرب ومسلمين منذ الطفولة.

أنا مثلاً دائمًا عندما أقوم الليل وأقرأ القرآن وأقوم بكثير من الأشياء التي أحاول من خلالها التقرب إلى الله، دائمًا أسأل نفسي: ترى يا أسماء هل أنت تفعلين هذا حبًا لله أم خوفًا منه؟

أنا أصلاً أستغرب عندما يقول لي شخص أنا أحب الله كثيرًا! لا أفهم كيف يكون هذا الحب. لقد تربيت على فكرة «صلّي وإلا ستحترقين في نار الجحيم»، تربيت على فكرة «الحجاب وإلا فالله سيعاقبك بأشد أنواع العقاب». تربيت في منزل محافظ جدًا على فكرة أن المرأة عورة جدًا، وجودها عورة، هي في ذاتها عورة.

عذاب القبر، سكرات الموت، مظاهر القيامة، الحشر وعذاب انتظار دور العرض على الجبار وأنا لا أزال طفلة صغيرة جدًا.

ودائمًا عندما أسمع حديثًا صادرًا عن شيخ متشدد ودائمًا





يُرهِّب أبكي وأقول: ترى هل الله حقًا كما يصفونه؟ لماذا هم متأكدون هكذا؟ لماذا يقولون هذه الأشياء عن الله؟ هل الله خلقنا حتى يعذبنا هكذا؟ ما الفائدة من وجودنا أصلاً إذا كان هذا كله ينتظرنا؟

وعندما أسأل أخي يقول لي: لديك نقص إيمان! أي إيمان؟ أنا أسألك عن الحب هنا وليس الإيمان.

أنا أشعر بخوف شديد وكأن لديّ خوفا من كل شيء، وفي نفس الوقت أجد التناقض.

هذا أخي الذي يخاف الله ويقرأ القرآن ويصلي في المسجد لكن مشاعره لا تتحرك أبدًا عندما يراني مريضة وأبكي! يضربني بشدة لا لشيء سوى أنه رجل!

وأبي ضربني مرة على مرأى من فتيات يدرسن عندي لأنني لم أزاحم الرجال على الحافلة! استحييت أن أزاحم الرجال على الحافلة فذهبت الحافلة ولم أركب فيها لأذهب إلى عملي. هذا أبي الذي رباني على فكرة «الرجل مخلوق بغيض»، لماذا إذن يريدني أن أزاحمهم على الحافلة؟ فلتذهب الحافلة إلى الجحيم، سيأتي غيرها.

هل أنا أيضًا لديَّ نقص إيمان؟ أنا لديَّ خوف من كل شيء:



من الدين، من الرجال، من المتدينين..

«لما أشوف شخص متدين، أقصد «...» (حُذف تحديدها لتوجه ديني معين حرصًا على استماع الجميع لصرختها) لا أدرى لماذا أشعر بالخوف!

لديَّ خوف شديد من الرجال، أنا أرفض كل شخص يخطبني لأني أخاف من الرجال، خاصة المتدينين. ولطالما سألت نفسي: هل كنت سأخاف من رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لو وقفت أمامه أيضًا؟ لا أدري.

الناس الذين يحكمون على الآخرين، ما أدراكم بإيمانهم؟ كيف يمكن أن تكونوا واثقين هكذا؟ لا أحد مهما بلغ به تدينه مراتب عليا، ومهما كان شيخًا كبيرًا ذا علم ومعرفة يملك أدنى حق في الحكم على إيمان أي مخلوق. هذا الأمر حق لله عز وجل وحده.

مشكلتنا منذ البداية أننا رضعنا العقيدة عن جهل؛ كنت أتمنى لو رضعت حب أبي، وعطف أخي عليّ، وحنان أمي بدلاً من أن أعرف كل تلك الأشياء التي جعلتني على ما أنا عليه.

لماذا هؤلاء المتدينون يقتلون كل شيء جميل بداخلنا؟

عندما أقول لأخي: دعني أقُد السيارة وأنت بجانبي



ـ ماذا؟ هل جُننتِ يا فتاة؟ كيف تسألين طلبًا كهذا؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ أنت فتاة، يعنى نقص دين ونقص عقل.

ـ طيب ألستُ بشرًا؟

ـ ربما أو أحيانا تكونين كذلك.

ـ لكنني أبقى بشرًا، أنت أيضًا بشر، ولكنك تقود السيارة وبمفردك. أنا طلبت منك أن أقودها وأنت بجانبي، لماذا لا تفهم يا أخي أن كِلَيْنا من طين؟ أنت لست من ذهب، أنت لست من ذهب، مطلقًا.

ـ اصمتي، أنت وقحة وتحتاجين إلى تأديب.

ـ أخي، لطالما حلمت برؤية البحر.

ـ ماذا؟ هل جُننتِ؟ البحر؟ هناك رجال كثر.

ـ ما شأني أنا بالرجال؟ لقد كرهت رجال الكون بسببك أنت وأبي.

ـ أخي، دعني أذهب معك أنت وزوجتك للمطعم هذه المرة ولو لمرة واحدة فقط.

ـ النساء لا يذهبن إلى المطاعم.

ـ والله يذهبن، صديقتي ذهبت مع زوجها إلى مطعم وأخبرتني



أن الأكل في المطاعم يفوق الوصف.

ـ صديقتك ذهبت مع زوجها وأنا سأذهب مع زوجتي، أنت اذهبي مع زوجك، وينفجر ضاحكًا.

لكنني أخاف من الرجال، فحين يمر بجانبي رجل أقرأ جميع الآيات التي أحفظها، فالحقيقة المرة هي هذه، هي صورة الدين عندنا، شئنا ذلك أم أبينا.

سواء أنكرتم ذلك يا شيوخ، وادعيتم أن الإسلام لم يأمر مطلقًا بكل هذا التضييق وشد الخناق؛ نعم أعلم ذلك، لكنكم تفعلون أكثر من هذا أثناء التطبيق! وأنتم أدرى منا بالله، فأنتم ركائز الأمة!

مرة رأيت سيدنا عيسى، عليه السلام، في منامي وأنا تائهة حافية القدمين أحمل قلمًا في يدي. قلت له: ساعدني يا نبي الله، ألست بنبي؟ لماذا لا تساعدني؟ أنا أبحث عن شيء لم أجده في أي مكان. فأجابني عليه السلام أن الذي أبحث عنه لا يوجد في الدنيا بل في الآخرة. فسألته: ما الذي أبحث عنه؟ أنا أصلاً لا أدري عن أي شيء أبحث! استيقظت على أذان الفجر يقول: حي على الصلاة، حي على الفلاح».

هذا كان نص الرسالة، ولا أجدني قادرًا على التعليق، فقط أقول: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين (آمنوا)



[الأربعاء ١٢/١٢/٢٠١٢]

الحمد لله

أخيرًا في عيد الأضحى المبارك يسّر الله لي أخذ الأبناء إلى جزيرة من جُزر إمارة أبو ظبي لأقضي معهم يومين لم أتمكن من اقتطاعهما منذ أكثر من عام.

وفي أثناء حوار دار بيننا داهمتني ابنتي خديجة التي لم تتجاوز الثانية عشر ربيعًا بسؤال: «بابا (ليش) لماذا قال الشيخ (فلان) عنك (كذا وكذا)، وهل حدث هذا الموقف بينك وبينه؟»

صُعقت لسؤالها المفاجئ، وحِرت في أمر الجواب، وذلك لأنه قد ثَقُل علي أن أخبرها بحقيقة أنّ (الدكتور الداعية) لم يكن صادقًا فيما أخبر به، وأنني زُرته في بيته معتبرًا أن خلافنا لا يعدو كونه خلافًا في أمر اجتهادي، وأننا، بخلاف ما ادّعاه، لم نتحدث حول الخلافات الشرعية، وأنه لم يدعُني إلى تصحيح معتقدي كما

زعم، بل كان حديثًا وديًّا حول هموم الدعوة، وقد شكا فيه «الدكتور» من حسد أقرانه وضيق أفق خِلّانه، حتى لفّقوا له أقوالاً لم تصدر عنه مما اضطره إلى أن يُلح على مفتي بلاده أن يسمع عبر الهاتف تسجيل محاضرته التي اتهموه فيها بما لم يقل.

كيف أخبرها بأن ما كتبه «الدكتور» في هجومه على أبيها كان عاريًا عن الصحة، وأن أحد الحاضرَين للزيارة قد عرض على أبيها بأن يشهد أمام الملأ على عدم صدق «الدكتور» فيما قاله فصعب على أبيها أن يكون جزءًا من هذه المسرحية الهزلية؟

اكتفيت بالإجابة بأن فضيلة «الدكتور» ربما نسي أو اختلط عليه الأمر، وأن إجلال أهل الدين واحترامهم لا يجعلانهم معصومين عن الخطأ؛ فهم بشر وحاولت كتم عبرة خانقة وإخفاء دمعة حارقة، حتى لا أشوش على طهر محبة الفتاة لدينها وبراءة نظرتها إلى مبلغيه، ولكن، هل تُراني نجحت؟

وتمضي الأيام، وتتوالى قصص وأحداث..

فنرى دعاة بارزين يفترض بدعوتهم وخطابهم أن يكونا بردًا وسلامًا على الناس وهديًا ورحمة لهم وأخذًا بأيديهم إلى دروب الهدى والخير وحسن الأخلاق، فإذا بهم يتقلّبون بين موقف ونقيضه في غياهب السياسة وفقًا لما يرونه نصرة للدين، فتارة يصفون موقفًا

سياسيًا لقومٍ بالرشد والنضال الحقوقي الإنساني والدعوة والجهاد بكلمة الحق عند سلطان جائر، وتارة يصفون ذاتَ الموقف من قومٍ آخرين بالخيانة العظمى وإثارة الفتن والخروج على ولي الأمر.

وأقف متأملاً أمام مُعضلة أخلاقية متصلة بازدواجية المواقف وإقحامها على الخطاب الإسلامي وأحكام الشرع الشريف، وأتساءل والحزن يملأ القلب، فكيف للمؤتمن على تبليغ رسالة الرحمة أن يكيل بمكيالين مختلفين لمَكيل واحد؟ فأجدني أسأل الله تعالى أن يلطف بمن يتلقى مثل هذا الخطاب ويحميه من تبعاته لطفًا يليق بواسع كرمه وعظيم رحمته بخلقه.

ومن المؤسف حقاً أن تجد من يقتحم ساحة كبار علماء الأزهر الشريف، بمن فيهم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر وفضيلة مفتي الديار المصرية، لا بالنقد الموضوعي الذي يُشعر المستمع بوجود من ينصح أو يأمر بمعروف وينهى عن منكر. بل بالتطاول والاتهام ببذيء ألفاظ لا يليق أن ينطق بها إنسان سويّ. فضلا عن أن تصدر من أفواهٍ ينتسب أصحابها إلى الدعوة إلى الله أو يتصدّرون لتوجيه الناس بشرع الله.

ثم تجد أحداثا من الشباب يتبعونهم ويهتفون بحماسة صادقة مع غيبوبة البصيرة تبعًا لما قيل لهم وما مُلئت به صدورهم متوهمين

أنهم بذلك ينصرون دين الله ويدافعون عن شريعته السمحة. وحين يجدّ الجدّ لا يجد من تصدروا هذا التطاول إلا عتبات الأزهر الشريف ليلوذوا به، فلا يمكن للفرقاء أن يجتمعوا إلا في ظلال دوحة مصداقيته وتحت كنف مشيخته. فنسمع حينها من عبارات الثناء على مشيخة الأزهر ما يُشبه الغزل ومن المديح ما يصل إلى حد التمجيد.

والحمد لله الذي أرانا عودة كثير منهم إلى جادة الصواب، والمرجو من الله أن يكون ذلك خالصًا لوجهه الكريم لا لغرض آخر اقتضته حاجة في النفس سرعان ما تتغير عند وجود موقف يُخالف ما يرونه صوابا. ومن باب حسن الظن، نستبشر بأن الله فتح على بصائرهم فأدركوا الحق، ونلتمس منهم، رحمة بالناس، أن يُنبّهوا أتباعهم ويُفهموهم أنّ موقفهم هذا هو الموقف الحقيقي، وأنّ ما كان منهم من سابق الإساءة إنما كان سوء فهم أو خطأ يستغفرون الله منه.

فيا سادتي وإخوتي الدعاة وخَدم الشريعة السمحة، حنانيكم.

رفقًا بجيلٍ يتشبث بما بقي له من إيمان وثقة في الدين بأناملَ تكسّرت بمطارق أهوائنا، ونزفت بسكاكين تلوُّنِنا؛ رفقًا بجيلٍ يستغيث ما بقي من النور في قلوب شبابه من هول جراحه صارخًا في وجوهنا: أن اتقوا الله فينا.



إن زلازل التناقضات، وسيول الخصومات، وبراكين الانفعالات، التي نحيطهم بها سَلبتْ فريقًا منهم دينه، ويكاد فريق يسقط في هذه الهاوية، لولا عناية الله.

سادتي وإخوتي الدعاة، لست هنا منتصرًا لموقف سياسي بعينه ولا لترجيح مسلك من مسالكه على الآخر، فلست من فرسان السياسة، ولا أدّعي ذلك ولا أتوق إليه، غير أن امتطاء السياسةِ لصهوة شعاراتِ الدين لِتحطّمَ بسنابكها جواهر القيم والأخلاق التي جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لِيُتمّم مكارمها، لهو أمرٌ خطره عظيم وعواقبه وخيمة. فالله الله في نصرة دين الله بأن يُصان من أغراض الأطماع الشخصية وتقلبات النزوات السياسية.

سادتي وإخوتي الدعاة، ما أريد وقيعة بكم ولا إثارة لمشاعركم ولا مساسًا بكرامتكم، لكنه ثقل المسؤولية، فساعة الوقوف بين يدي الله تعالى جدُّ عظيمة، يرتجف لها الفؤاد، وترتعد من هولها الفرائص. وإن لمعةً في أعين الشباب تلوح بين ركام الشتات توشك أن تصرخ في وجوهنا قائلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾(1).

سادتي وإخوتي الدعاة، كان أسلافنا يدعون الله تعالى وتلهج

(1) سورة الصف، الآيتين ٢ ـ ٣.



ألسنتهم بما في كتابه العزيز: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]؛ فهل صرنا في زمن نحتاج فيه إلى أن ندعو قائلين: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين آمنوا!

لقد بتُّ خائفا من أن يؤاخذنا الله تعالى بما حذرنا منه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[2].

أحبابي أهل الدعوة إلى الخير، شباب الأمة أمانة والأمانة ثقيلة فلا تضيعوهم بخطاب عليل تعوزه الدراية والرحمة والروية والحكمة وحسن العبارة وجميل المعنى وذوق المحبة ونور التقوى. فالموافق لكم أخ والمخالف لكم أخ أيضًا، فلا تهدروا حق الأخوة بين الموافقة والمخالفة.

اللهم تب علينا توبة نصوحًا تُطهرنا بها جسمًا وقلبًا وروحًا، وانزع ما في الصدور من غل، واجمع قلوبنا على محبتك، وألهمنا التوفيق والسداد والصواب، يا أكرم الأكرمين يا عزيز يا وهّاب.



(١) سورة الممتحنة، الآية ٥.
(٢) سورة البروج، الآية ١٠.



فتوى القتل الآثمة

[الأحد ١٠/٠٢/٢٠١٣]

الحمد لله

هالَني عدد الرسائل التي وصلتني عبر البريد وصفحتي تويتر وفيسبوك، إذ يسأل أصحابها، وأكثرهم من الشباب، عن صحة الحديث الذي يُبيح قتل من خرج على الحاكم فاستغربت من تكرر السؤال في وقت واحد وسألت: ماذا يجري؟ فأجاب أحد الشباب بأن «دكتورًا أزهريًّا» أفتى في حلقة تلفزيونية بقتل المعارضة إن دعت إلى خلع الرئيس مستشهدًا بحديث في صحيح مسلم مع شرح الإمام النووي للحديث!

فلما استمعت إلى الحلقة المذكورة كاملة برزت مسألتان: الأولى: صحة الحديث وما يترتب عليه من حكم شرعي. الثانية: صحة تطبيق الحديث على الواقع المُشار إليه من حيث مناط الحكم. وسأتناول المسألتين في هذه الخاطرة بعرض نص الحديث وشرح الإمام النووي له ومدى مطابقة ذلك لواقعنا المعاصر.



ولكن قبل ذلك أؤكد أن الفقير إلى الله لا يقف موقفًا سياسيًّا يؤيد أو يعارض طرفًا من الأطراف السياسية المتنازعة وإنما يحاول إزالة اللبس الذي حصل في فهم النصوص والأحكام الشرعية المترتبة عليها ما أدى مع تكرر هذا الطرح بل وظهوره مواكبا لاغتيال أحد رموز المعارضة في تونس بعد إعلان استباحة دمه، إلى تشكك شريحة واسعة من الشباب في صحة هذا الدين الكريم ورُقي الشرع الشريف، وكل ذلك بسبب تهوّر البعض في تسوّر النصوص الشرعية بغير تأهل علمي ولا تبصُّر بالواقع الذي تُطبَّق الأحكام عليه.

وإليكم النص المُستشهَد به من الحديث مع تكملته التي أُهمِل ذكرها في الحلقة:

«ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقةَ يده وثمرةَ قلبه، فليُطعْه إنِ استطاع، فإنْ جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر، [يقول الراوي] فدنوت منه [أي الصحابي] فقلت له: أنشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه، وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا، والله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[1]، قال: فسكت

(١) سورة النساء، الآية ٢٩.



ساعة، ثم قال: أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله»[1].

ونص شرح الإمام النووي الذي استشهد به:

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» معناه: ادفعوا الثاني، فإنه خارج على الإمام، فإن لم يندفع إلا بحرب وقتال فقاتلوه، فإن دعت المقاتلة إلى قتله جاز قتله ولا ضمان فيه، لأنه ظالم متعد في قتاله.

وعند الرجوع إلى أهل العلم اتضح أن الحكم هنا بالقتال متوقف على توفّر الشروط التالية:

١ ـ أن يكون الحاكم خليفة مبايعًا بيعة شرعية وفق نظام الخلافة (ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه)، وفي صحيح مسلم أيضًا: «إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[2]. وهذا لا ينطبق على عقد الحكم في الجمهوريات ذات النظام الديمقراطي المعاصر، فهو يقوم على أساس الحكم الانتخابي المؤقت، كما أنه يسمح للمعارضة بالعمل على خلع الرئيس بالوسائل السلمية إذا أخلّ بعقد النظام الديمقراطي.

٢ ـ أن تكون القلوب مجتمعة على هذا الخليفة غير مختلفة

(١) صحيح مسلم، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول.

(٢) صحيح مسلم، باب إذا بويع لخليفتين.

حوله. وفي نفس الكتاب «صحيح مسلم»، باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع، قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشقّ عصاكم أو يُفرّق جماعتكم فاقتلوه»[(١)]؛ والمُطالع لأحوال الأنظمة التي نشأت بعد ما سُمي بالربيع العربي يدرك أن الأمر لم يستقر لها بعد وأنها في مخاض متعسر لم يصل، حتى الآن، إلى مرحلة اجتماع القلوب على نتائجه.

٣ ـ أن يكون الخروج عليه مسلحًا، وذلك بالعمل على تجهيز جيش أو فرقة للقتال حيث كان هذا هو السبيل المتعارف عليه قبل انتشار ثقافة العمل السياسي السلمي، ولهذا علل الإمام النووي جواز قتله بعلّة أنه تعدى أولاً باللجوء إلى القتال: «لأنه ظالم متعد في قتاله»، والتنظيمات السياسية المعارضة في هذه البلدان تُعلن التزامها بالقواعد الديمقراطية في سعيها السلمي وتستنكر العنف المسلح.

وهنا يتضح مدى الخلط الذي وقع فيه من استشهد بهذا الحديث الشريف. ولعل هذا الخلط يرجع إلى سببين:

الأول: تصدّر غير المؤهلين للحديث عن الشريعة، فأخي الدكتور الأزهري الذي تسبب في هذه المشكلة لم يحصل على

(١) صحيح مسلم، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع.

شهادته الأزهرية في الشريعة أو أصول الدين بل كانت في بلاغة القرآن وهي دراسة لا تؤهل صاحبها للتصدر في بيان الأحكام الشرعية، وإن كانت له دراسات شرعية أخرى فإنها لم تكن في الأزهر الشريف ولا على منهجه، وكم من دارس للشريعة في الأزهر الشريف يأتي وله انتماء لغير منهج الأزهر فيجعل من دراسته في الأزهر وسيلة لنيل الاعتراف به عبر الشهادة الأزهرية. وقد رفض الأزهر الشريف هذه الفتوى واستنكرها بل وأشار إلى احتمال تعرض من أصدرها للتأديب. ورحم الله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث قال: من تكلم في غير فَنِّه [تخصصه] أتى بالعجائب.

الثاني: قبول الكثير من التنظيمات التي ترى أنها تعمل لخدمة الإسلام عبر العمل السياسي لخوض غمار السياسة تحت مظلة الديمقراطية مع كون الكثير منهم يُصرِّح بأنه لا يراها نظامًا شرعيًّا وإنما يجدونها الوسيلة المتاحة للتوصل بها إلى تطبيق الشريعة ومنهم من عمل على إلحاقها بالشورى على اعتبار أن النتيجة الحتمية لها هي تصويت الشعوب المسلمة لصالح الشريعة. ولهذا لوحظ عليهم الاستشهاد بقواعد العمل السياسي الديمقراطي عندما تكون موافقة لمشروعهم ويُهرعون إلى النصوص الشرعية عندما لا تكون هذه القواعد موافقة لمشروعهم.

وهذا سيجعل هذه التنظيمات في حرج كبير إذا ما سارت



الأمور على خلاف ما يتوقّعونه وأدّت هذه التجربة إلى نفور غالبية الشعوب من قبول الاحتكام للشريعة المطهرة بسبب عدم نجاح هذا المشروع، أو بسبب نتائج هذا التخبط في التترس خلف النصوص الشرعية كلما أخفقت هذه التنظيمات في التوصّل إلى مبتغاها بالآليات الديمقراطية التي أعلنوا الالتزام بها.

ولله درّ القائل: الفَطِن هو من يُقنع الناس بالدين عبر سياسته وليس من يقنع الناس بسياسته عبر الدين. مع ملاحظة أن غالب التنظيمات الملقّبة بالإسلامية قد رفضت هذه الفتوى وتبرأت منها.

وأكرر هنا أن هذا التبيين لا يعني بحال من الأحوال تأييد فريق ضد الآخر ولا تأييد آلية العمل الديمقراطي أو رفضها فليست العملية السياسية هي ما يشغل الذهن بل أثرها على إيمان الناس. وقد وصلت ردود الفعل على هذا الواقع إلى نفرة شريحة متسعة من الشباب عن الدين بل وصلت إلى حد اهتزاز الثقة فيه. وهذا ما لا يدع مجالاً للسكوت عن هذا التخبط الذي نعيشه ويصطلي الجيل بناره التي تلتهم أعظم ما لديهم وهو إيمانهم.

والخلاصة أن هذا الاستشهاد بهذا النص الصحيح باطلٌ لأنه في غير موضعه.

وختامًا أعرض عليكم نصوصًا لأحاديث من الكتاب نفسه



الذي رُوي منه هذا الحديث وهو «كتاب الإمارة» من صحيح مسلم:

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا، فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به»[(١)].

وقال: «إن شر الرعاء الحطمة»[(٢)]، أي أن شر الحكام هو من يُحطم شعبه ويصل بهم إلى الدمار.

وقال: «لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»[(٣)].

وقال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة»[(٤)].

وقال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلّون عليكم وتُصلّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[(٥)].

اللهم اهدنا لما اختُلف فيه من الحق.

---

(١) صحيح مسلم، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

(٢) صحيح مسلم، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

(٣) صحيح مسلم، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

(٤) صحيح مسلم، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.

(٥) صحيح مسلم، باب خيار الأئمة وشرارهم.

«لا غفر الله لك»!



[الأحد ٢٧/٠١/٢٠١٣]

الحمد لله

خرجت سريّةٌ من المجاهدين قبل فتح مكة، فمرّت برجل من قبيلة معادية اسمه عامر الأشجعي معه غنم يرعاها، فلما رآهم ألقى عليهم السلام. فتقدم رجل من السريّة يُقال له مُحلّم بن جَثّامة لقتله، وكانت بينه وبين الرجل خلافات دنيوية ومشاحنات شخصية ليست لها علاقة بالإسلام؛ فنهاه من كان معه عن قتله وقالوا له: لقد ألقى علينا السلام فهو مسلم! فردّ عليهم بقوله: إنما قالها خوفًا من القتل، وأسرع إلى رميه بسهم فقتله وسَلَبَ غنمه.

فأخبروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما جرى، فغضب النبيُّ غضبًا شديدًا. وحضر أقارب عامر وأُحضِرَ «مُحلّم» ليحكم النبيّ في قضيته فإما القصاص وإما الدية. فدُفِعَت الدية بعد أن رضي أهله بقبولها.

دخل محلّم على النبيّ وهو يتوهم أن فعلته يمكن أن تمر



هكذا، وطلب من النبي أن يستغفر له. فقال له نبيّ الرحمة بصوت مرتفع يسمعه الناس: «قُم لا غفر الله لك»! فقام مصدومًا يمسح دموعه، ثمّ توفي بعدها بأيام.

دفنه أقاربه، فلما أصبحوا وجدوه خارج قبره، فأعادوا دفنه وأقاموا عليه حراسة ظنًّا منهم أن قبيلة القتيل قد نبشت قبره، فأصبحوا وقد لفظته الأرض مرة أخرى، فدفنوه مرة ثالثة، فلفظته الأرض مرة ثالثة. فوضعوه في مغارة أو بين جبلين وغطوه بالحجارة، وأخبروا النبيّ بخبر لَفظِ الأرض لجسده. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الأرض تقبل من هو شرٌ من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم»[(١)]. وقال لهم كما في رواية أخرى: «ولكن الله أراد أن يخبركم بحُرمتكم فيما بينكم»[(٢)].

هذه القصة فيها من الدروس والمعاني ما نحتاج إلى تأمله هذه الأيام تأمّلاً عميقًا وجادًّا.

* الرجل قتل بريئًا تحت غطاء الجهاد وحاول تبرير فعلته باتهام القتيل بأنه كافر وإن ألقى السلام واتهمه بأنه يتظاهر بالإسلام

(١) هو بهذا اللفظ في: تفسير الطبري عند قوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم...)، البداية والنهاية في السرية التي قتل فيها محلم بن جثامة عامر بن الأضبط. وأصل الحديث في ابن ماجه وغيره.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، الحديث رقم ٣٧٠١٣.



كي يمر بسلام، وكل ذلك بسبب خصومة أخرى بينهما مع طمعه في أخذ الغنيمة.

* الرجل ظنّ أن خروجه تحت راية الجهاد في نصرة الإسلام سيشفع له في تجاوز هذه الجريمة بمجرد أن يطلب من رسول الله أن يستغفر له، لا سيما أن عشيرة أخواله معروفة بقوة بأسها وكان منهم الأقرع بن حابس.

* النبي صلى الله عليه وآله وسلم رفع صوته بقوله: قُم لا غفر الله لك، فقام الرجل وهو يمسح دموعه لما شَعر به من خطورة جريمته إلى حدٍ جعل النبي يمتنع عن الاستغفار له!

وهنا لا بد من وقفة تأمل، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كله رحمة، حتى إنه أخبر أنه لو كان الاستغفار للمنافقين سوف يُقبل لاستغفر لهم. فكيف يرفض الاستغفار لهذا الرجل؟ وقد روى بعض الصحابة أن النبي استغفر له بعد ذلك، ولكن غضبه هذه المرة كان عينَ الرحمة إذ إنه يؤسس في القلوب تعظيمَ حرمة الدماء وهو ما أشعر مُحلّم بالندم الحقيقي ليلقى الله نادمًا غير مستهتر بالدماء.

سبق وأن أخطأ بعض الصحابة في اجتهادهم بقتل من لا يجوز قتلهم أثناء الجهاد واستغفر لهم النبي، لكن هذه القصة اشتملت على معطيات أخرى تهدد سلامة نصرة الدين، منها:

١ ـ أنه استغلّ شرعية مهمته المعظمة في الاسلام وهي شعيرة الجهاد في تصفية خلافات أخرى بينه وبين الرجل تحت غطاء الشريعة.

٢ ـ أن طمعه في الغنيمة غلب على الأصل في خروجه لنصرة الإسلام وأصبح هذا الطمع متحكمًا في تصرفاته، إلى الحد الذي جعله يبرر تكفير الرجل وقتله بشُبهة أنه كان يتظاهر بالإسلام كذبًا ليحتال عليهم.

٣ ـ أنه تجاهل تنبيه رفقائه في الجهاد ولم يقبل نصيحتهم ولم يلتفت إلى صرخاتهم وتحذيرهم إياه من قتل إنسان بريء.

ثم أنزل الله آية في القرآن تؤكد التحذير من الاستسلام لهوى النفس وطمعها فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1].

وأخيراً أرجو أن تكون قلوبنا قد وَعت الدرس من هذه القصة. اللهم آتِ نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليُّها ومولاها، يا نعم المولى ويا نعم النصير.

(١) سورة النساء، الآية ٩٤.

إلا رسول الله!

[الأربعاء ٢٦/١٢/٢٠١٢]

عندما نُشرت الرسوم المسيئة هتف المسلمون: إلا رسول الله.

كما هتف الملايين عندما نشرت وسائل الإعلام خبر محاضرة بابا الفاتيكان سيئة السمعة: إلا رسول الله.

وكذلك عندما ظهر الفيلم الهابط الرخيص، ضجت الناس مرددة: إلا رسول الله.

وهكذا تستشعر القلوب معاني غيرة المحب عندما يسيء أحدهم للمحبوب.

وخلال الأشهر الماضية ظهر نوع جديد من التطاول على الجناب الشريف والإساءة إلى قدره المنيف، يرتكب جُرمه ويبوء بإثمه أناس من الذين آمنوا به، وصدقوا برسالته، وفيهم الحافظ لنص القرآن! وفيهم من يحمل لقب الداعية! بل ربما توهموا أثناء تطاولهم أنهم ينصرون دينه! ويجاهدون لتطبيق تعاليمه!





وكانت بداية المشكلة منذ سنوات بارتفاع أصوات تنتسب إلى الدعوة بنمط قبيح من الخطاب المحتوي على قاموس من السباب تنبو عنه المسامع ولا تستسيغه النفوس السوية، فكنت أقول لعل غلبة الانفعال جعلتهم يتجاوزون الأدب، ولعل شعورهم بأن الدين مُستهدف قد أفقدهم الاتزان، ولعل سنوات الاضطهاد والأذى قد أنفدت صبرهم، ولعلهم مع مرور الوقت يستعيدون اتزانهم، ويثوبون إلى رشدهم، ليعودوا إلى الهدي النبوي الشريف.

غير أن المنحى الخطير الذي استجد وهو ما لا يحتمل السكوت عنه، هو انحرافهم عن الفطرة السليمة والسنة القويمة إلى حد محاولة تبرير قبح خطابهم بنسبة هذا القبح إلى سيد الأخلاق، من عظم الله خُلقه فقال مخاطبًا إياه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾![1]

وذلك عبر الاستشهاد بنص استثنائي متعلق بظرف خاص وعلى نحو منحرف عن دلالته اللغوية المجازية ودلالته الثقافية المرتبطة بما كان متعارفًا عليه في ذلك السياق، ليجعل من هذا الاستثناء، غير المقطوع بثبوته، أصلاً بعد تحريفه عن سياقه.

ومن أجل ماذا كل ذلك؟

من أجل تبرير الخطأ الذي وقع فيه وإعفاء نفسه من التهذيب؟

---

(١) سورة القلم، الآية ٤.





كي يطلق لها العنان مسترسلة في غيّها!

سمعت أحدهم يقول إنّ السنّة تقتضي أن نقول لمن يتعزى بعزاء الجاهلية: «اعضض على هن أبيك» مستدلاً بذلك على مواجهته لمن «يعتبرهم» أعداءً للإسلام بأشد العبارات!

ولا أدري هل جِهَل أم تجاهَل هذا أنّ مفهوم النص هنا هو تذكير من يتعزى (يتفاخر ويستكبر على الناس) بأمجاد أجداده في الجاهلية بأنه في الأصل كان نطفة خرجت من مكان مهين؟ ومع ذلك فقد عفّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذكر المكان واستخدم الكناية رعاية للأدب.

ألم يتعلم القاعدة الشرعية التي تقتضي رد المتشابه من النصوص إلى المحكم منها؟

وآخر يستشهد بما ورد من أنّ سيدنا أبا بكر الصديق قال لأحدهم: «امصص بظر اللات»، ليبرر بذاءة ألفاظه!

ولا أدري أيضًا هل جِهل أم تجاهَل أنها لحظة انفعال نادرة رويت عن الصدّيق رضي الله عنه؟ وذلك عندما رأى مبعوث قريش في الحديبية يهدد النبي بكلام يشكك فيه بثبات من يحيط به من المؤمنين تارة ويمسك بلحية النبي تارة أخرى فقال له هذه العبارة المألوفة في مجتمع الجاهلية متصلة بصنم كانوا يعبدونه؛ والصديق



رضي الله عنه غير معصوم عن الخطأ ولا يستطيع أحد الجزم بأن النبي لم ينبهه بعد الموقف.

فهل وصل بنا الأمر بأن نستميت في الدفاع عن سوء تصرفاتنا إلى درجة تبرير هذه الأخطاء بمحاولة إلصاقها بالنبي الكريم وهديه العظيم! ومن خلال روايتين غير متواترتين مع تجاهل عشرات النصوص القرآنية قطعية الثبوت وعشرات الأحاديث والمواقف النبوية التي تأمر بحسن الخلق وتدل عليه، لنجعل من الفهم السقيم لواقعتين استثنائيتين قاعدة نضرب بها المنهج الثابت للكتاب والسنة ؟!

ألم يقرأ هؤلاء القوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾؟[1]

ألم يقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؟[2]

ألم يقرؤوا قول النبي الكريم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»؟[3]

ألم يقرؤوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان،

(١) سورة فصلت، الآية ٣٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٨٣.

(٣) مسند أحمد رقم ٢١٣٩٢.





ولا الفاحش، ولا البذيء»[١].

ألم يقرؤوا الحديث القائل: «إنّ الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإنّ خير الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا»[٢]؟

ألم يستوعبوا ما رواه البخاري من وصف أبي سعيد الخدري للنبي بقوله: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه»[٣]؟

ألم ينتبهوا إلى عتابه لأُمِّنا الصدّيقة عائشة رضي الله عنها عندما أخذتها غيرة المحب وغضبت من تكرار قول بعض اليهود الذين يدخلون على النبي له: «السام» عليك تحريفًا للفظ «السلام» عليك (والسام معناه الموت)، فقالت رضي الله عنها: «عليكم السام واللعنة والغضب»، فقال لها رسول الرحمة: «مهلاً يا عائشة، فإنّ الله يحب الرفق في الأمر كله»، فقالت: «يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟» فقال: «فقد قلت وعليكم»[٤]؟

ألم ينتبهوا إلى أقوال خادم النبي أنس بن مالك وهو يصف

(١) سنن الترمذي في باب ما جاء في اللعنة، صحيح ابن حبان في ذكر نفي اسم الإيمان عمن أتى ببعض الخصال التي تنقص بإتيانه إيمانه.

(٢) مسند أحمد رقم ٢٠٩٨٠.

(٣) صحيح البخاري، باب من لم يواجه الناس بالعتاب.

(٤) صحيح البخاري، باب الرفق في الأمر كله.



الأصل في تصرفاته فيقول: «خدمت النبي عشر سنين فما قال في شيء فعلت لم فعلت ولا لشيء لم أفعله: لِمَ لم تفعله وما سبني سبة قط»[١]؟

وقوله: «خدمت النبي عشر سنين، لم يضربني قط، ولم ينهرني يوما قط، ولم يعبس وجهه علي يومًا قط»[٢].

وقوله: «لم يكن رسول الله سبابًا ولا فحاشًا؛ كان يقول لأحدنا في المعتبة: ماله؟ تربت يمينه»[٣]..

ألم يفهموا وهم يشتمون الناس بأسمائهم قول سيدتنا عائشة: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا بلغه عن الرجل الشيء، لم يقل: ما بال فلان يقول، ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»[٤]؟

ألم يستشعروا الخوف ولو للحظة من الاتصاف بصفة النفاق؟ وهم في انطلاقتهم المسترسلة في الخصومة مطمئنين إلى هذه التبريرات بعد أن حذرهم النبي في حديثه المتفق عليه:

«أربع خلال من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا: من إذا حدث

---

(١) هذا اللفظ بهذا الترتيب ذكره الأصبهاني في كتابه أخلاق النبي وآدابه ١/١٩٣، وهو في صحيح البخاري وغيره بألفاظ أخرى.

(٢) أخلاق النبي وآدابه ١/٢١٤.

(٣) أخلاق النبي وآدابه ١/١٩٦.

(٤) سنن أبي داوود، باب في حسن العشرة.



كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها»[1].

ألم تستوقفهم قصة إسلام زيد بن سَعنة؟ ذلكم الحَبْر اليهودي، الذي أخذ بتلابيب النبي وسبّه بل وسب أجداده بقوله إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطل، وهو يُطالب النبي بتسديد الدين قبل حلول موعده.

فلما استأذن سيدنا عمر بأن يقطع عنق هذا المتطاول تبسم رسول الرحمة وقال لعمر: «أنا وهو أحوج إلى غير هذا: أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب. اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رُعته» أخفته.

قال زيد بن سعنة: فذهب بي عمر فقضاني حقي وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت: ما هذا؟ قال: أمرني رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن أزيدك مكان ما رُعتك. فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سَعنة. قال: الحَبر (الحاخام الكبير)؟ قلت: الحَبر. قال: فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ما فعلت وتقول له ما قلت؟

قلت: يا عمر، إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا قد

(١) صحيح البخاري، باب إثم من عاهد ثم غدر، صحيح مسلم باب بيان خصال المنافق.



عرفته في وجه رسول الله حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد اختبرته منه، فأُشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبمحمد نبياً. فرجع عمر وزيد بن سعنة إلى رسول الله. فقال زيد: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[1].

لهذا فإننا نهتف رافضين هذه الإساءة ونردد في وجه من يحاول نسبة سوء خُلقه إلى جناب النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: إلا رسول الله، إلا رسول الله، إلا رسول الله.



(١) صحيح ابن حبان، المعجم الكبير، سنن البيهقي.



لن نسكت

[الأربعاء ١٣/٠٣/٢٠١٣]

الحمد لله

من بداية كتابة هذه الخواطر اختلفت الآراء حولها بين مؤيد ومعارض وهذا أمر صحي بل هي سنة كونية تتناسب مع سنة التنوع التي أوجدها الحكيم سبحانه وتعالى. وقد تعلّم الكاتب ممن يخالفه الرأي الكثير وأسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء.

ومن المعارضين من يشتد ويحتد إلى درجة التهديد والسب والقذف لشخص الكاتب دون تناول للمحتوى يرتقي إلى مستوى النقد. وهذا أيضًا غير مستغرب لاختلاف مستويات التفكير واختلاف مستويات السلامة النفسية وشدة تباين الناس في أخلاقهم. غير أن الملفت للنظر هو أن خلفيات المحتدّين في الهجوم متباينة إلى حد التناقض والتضاد.

فتجد الملحد أو اللاديني يسب ويشتم بل يتوعد بما يُشبه

عبارات الثورة العلمانية الفرنسية المتطرفة من نوعية: «سوف نشنق آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس» أو من نوعية شعارات الشيوعية اللينينية التي بررت قتل نصف الشعب الشيشاني ونفي الباقي إلى سيبيريا ثم انعكست على منطقتنا في السبعينيات بقتل الناس وسحلهم في شوارع جنوب اليمن تحت شعار: «سحقًا سحقًا للكهنوت».

وتجد في نفس الوقت المتدين المتطرف والمتدين المُسيّس يسب ويلعن ويُكفّر ويخوّن ويحرّض ويهدد بل يجد من يُفتيه بهدر دم المخالف على نحو يجدد سِيَر الخوارج ويُذكّر بما جرى عبر التاريخ منذ اغتيال الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه إلى اغتيال الشيخ الذهبي وما جرى للعلماء في أفغانستان والصومال والعراق وليبيا على أيدي التكفيريين لمجرد أنهم صدعوا بالحق وفنّدوا أخطاء هذه الفئة الضالّة فتمّ اغتيال العشرات منهم مع صمت مطبق من العالم.

وهذا الاتحاد بين متناقضين متطرفين في التحامل هو مؤشر إيجابي يعطي القلب شعورًا بالطمأنينة على سلامة المنهج ويشعر بالامتنان لما تفضل به سبحانه وتعالى من التوفيق.

كما أنه يُظهر مدى افتقاد المهاجم للحجة والبرهان مما أفقده أعصابه فانحرف عن مناقشة المحتوى إلى الاشتغال بالشخص والهجوم عليه بقائمة من الاتهامات يكفيك الردَ عليها شدةُ تناقضها.

والرسالة التي أود إيصالها في هذه الخاطرة هي أنه لا يسعنا السكوت على جريمة تشويه هذا الدين العظيم بأيدي من يظنون أنهم ينتصرون له، ولا السكوت على محاولة إعطاء الجرائم غير الأخلاقية شعار تطبيق شرع الله. ثم إنّه لم يعد هناك متسع للسكوت على اغتيال إيمان الجيل ولا على استمرار تبرير ظلمه باسم الدين أو باسم اللادين.

لن نسكت، وسيظل يكتب من كان له قلم وينطق من كان له لسان ويوجّه من كان له عقل ويتوجّه من كان له قلب إلى أن يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين.

نعم، ولن يسكت صادق مهما كان السب والتشويه والتهديد؛ فلن تكون دماء خدام الدعوة أغلى من دماء الشباب الذين سُفكت دماؤهم. ولن يكون ضمان استقرار نشاط الدعوة أهم من استقرار الإيمان في قلوب الشباب وقد أصبح مهددًا. وهل الدعوة إلا خدمة لرسوخ الإيمان في القلوب؟!

وهنا أدعو سادتي العلماء وإخوتي الدعاة إلى تكثيف البيان، والتصريح بما يعلمونه من الحق حيث لم يعد مجال للسكوت عن الانحراف المتزايد عن مسار الهدي النبوي أو التعاطف مع مرتكبي هذه الجرائم والتستر عليها وتبريرها لمجرد أن من يفعل ذلك يرفع شعار الإسلام!

فإنّ ما يرتكبه إخوتنا من هدم لثقة الجيل في دينه وهم لا يشعرون بلغ حدًا من الضرر عجز عن الوصول إليه أعداء هذا الدين على مرّ العصور.

فلقد احتلّت بريطانيا العظمى مدينة عدن حوالي ١٣٠ سنة وبذلت مؤسسات التنصير حينها الغالي والرخيص من بناء المدرسة وتأسيس الكنيسة وبذل العلاج والمساعدة فلم تنجح في تنصير أحد من أهلها سوى رجلين عادا إلى الإسلام بعد ذلك.

وجاءت بعدها روسيا العظمى بقضّها وقضيضها وقتلت وسحلت وأغلقت مدارس الدين وأربطة العلم وشكّلت عبر الحزب الاشتراكي اليمني طلائع الشباب وجعلتهم يهتفون بالتمجيد للرفاق ماركس ولينين وستالين وابتعثت الآلاف إلى روسيا ودول المعسكر الشرقي وأسست الجامعات والمدارس لمدة ٢٣ سنة وكل ذلك ذهب أدراج الرياح بمجرد سقوط الاتحاد السوفييتي ليُقبل الشباب بتلهّف وتعطش على دينهم فيتلقفهم من كان يمتلك الإمكانات المؤسسية والتنظيمية في إطار ما عُرف حينها بالصحوة الإسلامية لمدة عشرين سنة.

غير أن المنطقة الآن أصبحت مرتعًا خصبًا للتنصير السري والدعوات المختلفة من شيعة وقاديانية وبهائية بل الدعوة إلى الإلحاد. وصار أكثر الشباب في حيرة من أمره في ظل صخب

الخطاب البذيء الذي تسمّى «إسلاميًا»، ظلمًا وعدوانًا، وفي ظل الممارسات الإجرامية لمن يدّعون «الجهاد».

وإليكم، سادتي العلماء وإخوتي الدعاة، عبارات من رسالة باكية أرسلتها فتاة مصرية تعبّر فيها عما تلمسه في محيطها:

«أنا لست خائفة على وطني من هؤلاء، فالشعب كفيل بمن يحاول استعباده ثانية، أنا خائفة على ديني!

يا مولانا هؤلاء ينصّبون أنفسهم حراسًا للعقيدة، ويعدّون أنفسهم أصحاب الحقيقة المطلقة وغيرَهم ضالين مبتدعين. يأتون بأبشع ما هو موجود في التراث ويقدمونه لنا على أنه صحيح الدين، وإذا ناقشتهم لن تجد مناقشة لأفكارك بل تجد التهم الجاهزة المعلبة مع استشهاد بأي نص على أننا الضالون المضلون الذين يعانون خللاً في العقيدة!

ناهيك عن سلوك أغلبهم المنحرف أصلاً فلكل منهم فضيحة أو كذبة، على الأقل، في اليوم الواحد، ثم يبررونها أيضًا باستشهادات من الكتاب والسنة! وكأن الشريعة التي ينادون بها موضوعة في درج أحدهم يخرج منها ما يشاء إما للتبرير أو للتكفير!

والأمرّ من ذلك هو تشكيك الشباب وخصوصًا شباب الثورة «الحر» والنابه، ذوي العقليات المتفتحة والناقدة والأكثر حرصًا على



قيم الإنسانية السامية في دينهم وعقائدهم ونبيهم. فمنهم من يكتفي بشكه، ومنهم من ينبذ الدين ومنهم من يجمد علاقته به إلى أن يشاء الله!

أعلم تمامًا أنك تعرف عن هذا طرفًا ولكني أؤكد لحضرتك أن الشباب الذين ينبذون الدين ويجافونه ويشكّون في الرسالة وفي نبي الله يزدادون بشكل مرعب، وأن الخائفين من التفكير الذي قد يؤدي بهم إلى تلك النتيجة يتزايدون أيضًا. وهؤلاء الذين يفرضون علينا نسختهم المشوهة من الدين لا يشعرون بحجم المأساة وكيف أنهم أضلوا الناس ولم يرفقوا بإيمانهم!»

سادتي العلماء وإخوتي الدعاة، لقد أصبحت أعداد متسعة من الشباب تتساءل بحيرة وارتباك: هل هذا القبح الذي نسمعه والإجرام الذي نراه هو الإسلام؟!

لهذا لم يعد هناك مجال للسكوت ولن نُبالي بالاتهامات ولا التهديدات ونقولها بقوة الحب لإخوتنا، ولا خير فينا إن لم نقلها ولا خير فيكم إن لم تسمعوها: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ

وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولّنا فيمن توليت.

(١) سورة النحل، الآيات ٩٤ ـ ٩٦.



(٣)

عن الشباب..

وإلى الشباب

قضية الشباب

[الأربعاء ٠١/١٢/٢٠١٣]

الحمد لله

شبابنا يعاني شَكْواه منّا وشكوانا منه، دون أن نفكِّر في سبيل تفهّم شكواهم أو يُفكّرون. وأصعب ما في الأمر ضعف صوت التفهّم والتفاهم وضياعه في غمرة ضجيج تتابع الأحداث، وتحديات الآمال، وأنين الآلام.

وفي هذه الخاطرة محاولة لتلمّس مداخل الفهم لقضية الشباب، آمالهم وآلامهم، مفاهيمهم وحيرتهم، دواعي سرورهم وأسباب غضبهم.

وقد يعترض القارئ على جمع الشباب في بوتقة واحدة باعتبار اختلاف أفكار الشباب وتنوع توجّهاتهم؛ والجواب عن هذا هو أن ثمّة قضية مشتركة تتحد فيها أفكارهم وتنتظم فيها توجّهاتهم وتنطلق منها مساراتهم.



ولنرجع قليلاً إلى نسق تسلسل الأجيال في تاريخ أُمتنا، حيث كان كل جيل يتحمل مسؤولية تربية الجيل الذي يليه وتزويده بأدوات العلم والمعرفة، مع الالتزام بفتح أبواب تمكينه من أداء دوره في بناء أمّته باعتباره حقًا له وواجبًا عليه.

فمنذ الصدر الأول كان صلى الله عليه وآله وسلم يعتني بالشباب ويمنحهم الوقت تربية وتعليمًا، كما كان يُسند إليهم المهام ويبني في نفوسهم استشعار المسؤولية، ويرتقي بنظرتهم إليها من مستوى حظوظ النفوس وأطماعها وتشوّفها للمناصب إلى سماء محبة الخدمة، وعلياء البذل والإيثار، ويقوّم الخطأ دون أن يهدم المخطئ.

فهو الذي عاتب أسامة بن زيد رضي الله عنه عتابًا مريرًا عندما أجهز على من كان يُقاتله بعد أن نطق بالشهادتين، وعنّفه تعنيفًا شديدًا، وأغلظ له في التبكيت عندما حاول تبرير خطئه، حتى تمنى أنْ لو لم يكن قد أسلم قبل ذلك اليوم(١).

لكنه بعد أن لقّنه الدرس عقد له لواء سلّمه به قيادة جيش ضمّ شيوخ الصحابة أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولم يجعل خطأه مبررًا لإقصائه وحرمانه.

* * *

(١) صحيح مسلم، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله.

وهكذا كان السيد المسيح عليه السلام مع حوارييه، وهكذا كان كليم الله موسى عليه السلام فقد استخلف يوشع بن نون على قيادة بني إسرائيل.

وتوالى هذا الهَدْيُ في الأمة إلى وقت قريب، فتصدر الإمام الشافعي للتدريس والفتوى بإجازة من شيخه الإمام مالك وهو دون العشرين، ووضع الخوارزمي نظريته في علم الجبر وهو في الثلاثينات من عمره، وتولى محمد الفاتح قيادة الأمة وفتح القسطنطينية وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

وكان هذا الإعداد يجمع بين البناء على أساس الهوية الثقافية والروحية والأخلاقية، ورغّب في طلب الحكمة بغض النظر عن مصدرها، فالحكمة ضالّة المؤمن، فاستفادت الأجيال من الناتج الثقافي لمختلف الأمم والحضارات، هندية ويونانية وصينية وفارسية، لتنظم حبّاتها في عِقد حضارة راقية سطع رونقها على جِيد الأمة قرونًا طويلة.

غير أن هذا الهَدْيَ قد تعطّل في عصرنا على نحو أوجد حواجز ثقافية ونفسية بين الأجيال، وانهزمت الأسرةُ أمام طوفان العولمة ولم تعد قادرة على مدّ أبنائها بالتراكم المعرفي والأخلاقي، وتخلّف التعليم فلم يعد قادرًا على إدارة إعداد الجيل، وتراجعت ثقافة مسؤولية كل جيل عن إعداد الجيل الذي يليه وتمكينه من حمل

الراية، هذا إلى جانب انحسار دور الدولة في تحمّل مسؤوليتها عن بناء الإنسان.

وفي ظل هذا التراجع وجد الشباب أنفسهم في حيز الإهمال والتجاهل، فتجرّعوا مرارة الغبن، واشتعلت بين جوانحهم نار الغضب، وبدت بوادر القطيعة بانصرافهم عن الجيل الذي سبقهم، وانطلاقهم في رحلة البحث عن الذات والمستقبل.

ولم يتنبّه الجيل السابق إلى مرارة معاناة الجيل اللاحق، وربما لم يشعر الكثير منهم بوجودها لما غلب عليهم من شواغل عصرهم وتحدياته وفرصه ومخاوفه وأطماعه، ولسبب جوهري آخر هو تراجع مفهوم المسؤولية تجاه الأجيال اللاحقة وتحوصله في بوتقة توفير الطعام واللباس والمأوى والتعليم النظامي الذي يوفر للأبناء فرصة العمل ليفضي به الحال إلى أن يكون ترسًا في ميكنة مصنع القرية العالمية الصغيرة دون انتباه إلى أهمية البُنية الثقافية في عقول الشباب ونفوسهم.

فلما ارتطم الجيل السابق بصخرة تمرد الشباب ورفضهم لاستمرار هذا التجاهل لحقّهم في الإعداد وتولي المسؤولية وتقرير معالم المستقبل الذي سيواجههم بعد رحيل الجيل الذي سبقهم، لم يستوعب ذلك الجيل هذه الصدمة، ولم يتقبلوها.



وهنا بدأت معركة صامتة حامية الوطيس بين جيلين كان من المفترض أن يكون أحدهما امتدادًا للآخر، أسفرت عن تركيز كل جيل على مثالب الآخر، وتعيير كل طرف للآخر بإخفاقاته، عوضًا عن مواجهة الأسباب والمسارعة إلى معالجتها؛ فالجيل السابق أخذ يُهاجم جيل الشباب فواجهوه باللوم والتبكيت، وانتهجوا سبيل التَشكّي من جحود الشباب وعدم احترامهم لمن سبقهم، وانصرافهم عن الاستفادة منهم، مع استعجالهم لانتزاع قياد الأمور من الكبار دون توفر الخبرة والمعرفة.

وجيل الشباب أخذ بدوره يُهاجم سلفه ويتهمه بالفشل والتخلف والعجز، وتحول الغضب إلى تنكّر لكل ما كان عليه أسلافهم، ونقضه عوضًا عن نقده وتقويمه، واتخذوا في ذلك مسلكين:

الأول: اتهامُ الجيل الذي سبقهم بالتخلف والنكوص عن الهوية والانحراف عن المسار ليتخطوا بذلك جيل الآباء إلى الأجيال القديمة، ففقدوا بذلك نمط التسلسل الطبيعي في البناء.

الثاني: تمردٌ على كل ما له صلة بالجيل الذي سبقهم، ومن ثمّ على كلّ الموروث الثقافي، وكأنهم يعاقبونه على تقصيره في حقهم بالتخلص من كل ما يربطهم به.

وفي هذا المنعطف انقسمت شرائح الشباب، وتفرّقت بهم



السُبل، وأخذت كل شريحة طريقها في البحث عن بديل منقطع الصلة بالجيل الذي سبقهم.

ويمكن تقسيم نتاج هذا المنعطف إلى أربع شرائح:

١ ـ شريحة أرادت الحفاظ على انتمائها الديني واتخذت سبيل القطيعة مع الجيل السابق بالتمرد على الأصول والقواعد التي بُنيت عليها المفاهيم الشرعية، وتنكرت لمفهوم السند الجامع للرواية والدراية والتزكية، وشقّوا لهم طريقًا في فهم ما كان عليه سلف الأمة وتشكلت لديهم منظومة معرفية مباينة لجيل الآباء، وتنوعت بتنوع اهتمامات الجيل الجديد.

* فمنهم من شغله التحقيق العلمي والالتزام الشرعي فأخذ يُنظّر لمسلك نسَبه إلى السلف الصالح، ليَكُرّ به على من سبقه بالتكفير أو التبديع أو الاتهام بالجهل، على نحو منغلق متنطع عاجز عن استيعاب المتغيرات التي نعيشها في عصر الثورات المعرفية والثقافية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية، مما أثمر خطابًا مُنفّرًا لأبناء جيلهم من كل ما له صلة بالموروث الشرعي.

* ومنهم من شغله تغيير الواقع السياسي والاقتصادي للأُمّة فاستخلص له مفاهيم مبتورة الصلة بالمنهج الشرعي ونسبها إلى فهمه لحقيقة الإسلام وحضارته، ليَكُر به على من سبقه فيتهمهم بالتخاذل



والتقوقع والسلبية، فأخذ يعمل على تفعيل ما توصل إليه من فهم في الواقع السياسي والاقتصادي عبر كيانات وتنظيمات متفاوتة في الأسلوب والتأثير، افتقدت المنهجية الراسخة فلا هي بَنَتْ على الموروث الثقافي والقيمي لتجدد مساره، ولا هي تلاءمت مع المستجدات السياسية المعاصرة، فظهرت تجربة فاشلة نُسبت إلى الإسلام تحت مُسمّى «المشروع الإسلامي»، فأثمر هذا الفشل لدى أقرانهم من الشباب نفورًا عن تفعيل دور الدين في إصلاح المسارات السياسية والاقتصادية للأمة.

* ومنهم من استبد به الشعور بمرارة الهزيمة أمام تكالب الأُمم والقوى العُظمى فجنح إلى الجهاد واستخلص له قواعد ومقاصد وأحكامًا وقيمًا منفصلة عمّا استقر عليه أئمة الأمة وفقهاؤها، ليَكُر به على من سبقه فيتهمهم بالنكوص والجبن والركون إلى العدو والاستسلام والخنوع أمام عدوانه، فاتخذ قراره العملي وحمل السلاح ونادى بالجهاد وخاض معترك المواجهة بغير تبصّر، فسُفكت الدماء المعصومة وارتكبت الجرائم البشعة وتفشّت العمليات الانتحارية الآثمة، وانتشرت بين هؤلاء الشباب حالة من الاستخفاف بالحرمات، وورّطوا الأمة بجهلهم في مواجهات استثمرها عرّابو التوازنات بين القوى العظمى ووظفوها في إنفاذ مشاريعهم وسياساتهم، وتسببت في نفرة أقران هؤلاء الشباب من كل



ما له صلة بالجهاد في سبيل الله.

* وبالتوازي مع هذا الاتجاه ظهرت شريحة امتد رفضها لمفاهيم الجيل السابق ليصل إلى الرعيل الأول، فنبذت كل ما هو قديم وتنكرت لسلف الأمة وتجاهلت الثروة العلمية التي خلّفوها لنا لتبدأ من الصفر فتُعمل أدوات النموذج المعرفي الحداثي في فهم النصوص المعصومة، متجاهلة للقواعد الأصولية المعتبرة في الاستنباط بدعوى التجديد، لتكر على هذا الموروث بتُهمة التخلّف والجمود والعجز عن استيعاب النقلة التي يعيشها عصر الانفتاح، فأخذت تعبث بالشريعة دون تحديد منهج علمي عقلي، بل دون أن تُحصّل العلم لتمتلك أدوات الاجتهاد.

٢ ـ شريحة أعرضت عن كل ما له صلة بالموروث الثقافي والحضاري والقيمي جملة وتفصيلاً، وقادها الغضب من إخفاقات الجيل الذي سبقها وتخلفِه إلى البحث عن بديل منفصل عن كل ما له صلة به، فأقبلوا على كل ما ألقاه إليهم نتاج النموذج المعرفي الحداثي بعجره وبجره، في حالة تقترب من الانهزام الحضاري، بل تتجاوزه في بعض الأحيان، ليَكُرّوا على موروثهم بالنقض والتسفيه والسخرية، إلى حدٍّ قد يهتك المشترك الأخلاقي الإنساني في إدارة الحوار وأدب المناظرة، وبحالة تُشعِر بالروح الانتقامية الكامنة وراء هذا الاندفاع.

* فمنهم من اتجه نحو البعد الفلسفي الوجودي ليخوض



مخاض الأسئلة الكبرى غير آخذ بالاعتبار ما يمكن أن يفيده في رحلته هذه من موروثه الثقافي، بل تغالبه نفسه أحيانًا ليَكُر على موروثه هدمًا وتمزيقًا.

* ومنهم من اتجه نحو العمل السياسي السلمي مناضلاً عن قضاياه التي يؤمن بعدالتها وثائرًا على واقعه الأليم، على نحو رافض لكل وجهة نظر تتصل بمفاهيم الإصلاح أو التقويم ليَكُر على موروثه الحضاري بنظرة مشمئزة منه اشمئزازَه من سوء واقعه، ساعيًا إلى هدم سلطات الأسرة والدولة والدين.

* ومنهم من لم يعد مقتنعًا حتى بالتغيير الثوري السلمي، فيتبنى الاتجاه الثوري العنيف، ليشكل مسارًا تصادميًا دمويًا.

٣ ـ شريحة استحال غضبها إلى انتقام من الذات، وانغماس في الملذات، واستسلام للهزيمة دون نضال لتخطيها، فاختاروا الغيبوبة عن واقعهم المرير ومعاناتهم العميقة، واتجهوا نحو المخدرات وإدمان الكحول، وقضاء الأوقات في اللهو واللعب دون غاية أو هدف، ليدمروا أنفسهم سخطًا على واقعهم أو ازدراءً له. ويقترب منهم نمط من الشباب استحال غضبهم إلى انتقام من مجتمعهم لتبتلعهم دوّامة الجريمة، فمنهم السارق ومنهم السفّاح ومنهم المغتصب.

٤ ـ شريحة غلبت روحُ اللامبالاة حالةَ الغضب لديها فعبّرت



عنها بالسعي نحو بناء الذات واكتساب المهارات بأخذ أسباب التقدم العلمي بمختلف اختصاصاته، أو خوض التنافس الاقتصادي، أو امتلاك أدوات الإدارة والتنمية البشرية، أو الاعتناء بالعمل الإنساني الخيري. وهؤلاء متفاوتون في نظرتهم إلى التكوين الثقافي الحضاري للأمة، فمنهم من اختار القطيعة ومنهم من انتقى المفيد في مجاله، وهكذا.

وهذا التصوير للشرائح الأربع أخذ بعين الاعتبار البعد الأقصى والأقسى لمساراتها، واللون السوداوي لمظاهرها، ليكون بمثابة خطوط التحديد للوحة الواقع التي تتضمن ألوانًا متعددة الدرجات لكل شريحة منها.

وعودًا على بدء، فالقاسم المشترك بين هذه الشرائح هو قضية الشباب الأساسية التي نتحمل نحن الجزء الأكبر من مسؤولية كارثيتها، ونقتسم مع الشباب مسؤولية حلّها.

ولعلنا لا ننجح في مسعانا إلى حل هذه القضية قبل تجاوز عقبة التفاهم والتفهّم، والاقتناع بالمسؤولية المشتركة عن الواقع الذي نعيشه معًا والمستقبل الذي سيعيشه الشباب ودورهم تجاه الأجيال التي تليهم.

وإن الاستمرار في التعامل مع إفرازات القضية الأساسية مع





تجاهلها لن يثمر سوى المزيد من الكوارث والاصطدام بين الجيلين، مع استمرار هذه التركة البغيضة لتلقي بظلالها القاتمة على الشباب في صور متنوعة من الصراع والضياع.

والخطوة الأولى فيما أظن هي فتح الباب أمام نمط من الحوار الصادق الجاد على نحو مختلف عن الصورة النمطية الفاشلة لحواراتنا التي أدت إلى تشويه كلمة «حوار».

فنحن بحاجة إلى حوار ينطلق من المحبة والرحمة، ويأخذ مسلك الإصغاء والتفهّم، ويكسوه الصبر والأدب، وتدعمه شجاعة نقد الذات وقبول هذا النقد في إطار البناء وليس الهدم أو جلد الذات وتصيد الأخطاء؛ حوار يثمر تفاهمًا يرقى إلى مستوى تفعيل نتاجه في الواقع ليُغيّر مساره؛ حوار يُفضى إلى احترام عقول الشباب والاعتراف بحقهم في التأهيل والتمكين، كما يُفضي إلى فتح باب استفادة الشباب مما لدى الجيل الذي سبقه من موروث وخبرات.

وأخيرًا، هذه الخاطرة هي محاولة لتوصيف القضية واقتراح أول خطوة نحو حلّ عقدتها، وأما الخطوات التي تليها فهي نتاج لعمل مطلوب وجهد دؤوب يجمع أطراف التخصصات والكفاءات لتقوم بعمل من قبيل الصناعة الإنسانية الثقيلة تتجاوز سطحية التوقف عند التعامل مع اليوميات وتتابع أحداثها.

غُفْرانَك ربَّنا وإليك المصير.



نحن والشباب

[الأربعاء ٢٧/٠٢/٢٠١٣]

الحمد لله

شاهدت مقطعًا مليئًا بالإعجاز لفتى سوري من الريف، يصعُب أن نُسمّيه طفلاً مع صغر سنه.

الفتى كان يتحدث صباحًا بعد ليلة قصف فيها الطغاة المجرمون قريته بصاروخ «سكود» أتى على عموم بيوت القرية. وكان حجم المأساة كارثيًا، فقد استُشهد أربعون إنسانًا تقريبًا يمثلون عموم أقاربه من الرجالِ والنساء والأطفال، الإخوةِ والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأبنائهم والبنات.

وبالرغم من فظاعة المأساة فإن المُشاهد للمقطع لا يملك إلا أن يقول: الله أكبر!

نعم، فهذا الفتى وهو يصف مشهد جدته التي تمزقت أشلاؤها وخالته التي طار جسدها في الهواء وابن عمه الذي استُشهد في

حجرته وهو ساجد وإخوته الذين قضوا نيامًا، يستمر في وصف المأساة مغالبًا عبرته التي تطل منها طفولته المكلومة الظاهرة في نظرات عينيه. لكن سرعان ما تلمع في هاتين العينين بارقة الرجولة والشجاعة، وكأنه يخاطب أبا فراس الحمداني بأنه الفارس المستحق بجدارة لقوله:

أراك عصـي الـدمع شـيمتك الصـبرُ
أمـا للهـوى نهـي عليـك ولا أمـرُ
بلـى أنـا مشـتاق وعنـدي لوعـة
ولكـن مثلـي لا يـذاع لـه سـرُ
إذا الليـل أضـواني بسـطت يـد الهـوى
وأذللـت دمعًـا مـن خلائقـه الكبـرُ
تكـاد تضـيء النـار بـين جـوانحي
إذا هـي أذكتهـا الصـبابة والفكـرُ

فتراه بالرغم من عِظَمِ الفاجعة متماسكًا يتكلم بقوة تتجاوز الصراخ والتهديد إلى قوة البيان الصادع بالحق مع سكينة الثبات وفتوة الألم ليوجّه خطابه إلى الطغاة متسائلاً وتعابير وجهه أبلغ من أي خطاب:

«بس بدي أفهم ليش عم يرمينا ويضربنا؟»





ويُغالب عبرته بنظرة قوية: «يعني حكم القوى على الضعيف؟ بس هيك؟

وترى معالم الرجولة في وجهه البريء الذي يلتف الشاش على رأسه مضمداً جرحه وهو يقول: «أنا كنت متصَوِّب وأغمي علي، وأبوي حساس كتير، صاح: يا نايف قلتلو ما فيني شيء أنا». ويصل الإعجاز إلى مستوى لا يوصف وهو يقول: «طلّعنا ولاد عمي: شباب، واحد كان عم يصلي ساجد ما أحلاهم ريحة المسك بتطلع منهم وهم عم يضحكو».

هذه صورة أليمة بالغة القسوة لصلابة جيل يتحدى نوعاً من الظلم يصعب التعبير عن فظاعة بطشه

وهذا لون آخر من ألوان التحدي بطله شاب من شباب مدينة عدن في جنوب اليمن قد سئم السكوت عن ظلم لم يشهد من ألوان الحياة سوى لونه القاتم منذ ولادته، يكتب مخاطبًا من يحاولون إعطاء قتل زميله غطاء الشريعة وأنه حكم الله تعالى على المخربين: «لا تتمسحوا بالشرع، سيدنا محمد أطهر من لحاكم المصبوغة بالدم».

ولون آخر من ألوان التحدي بطله شاب من مصر لم يبلغ العشرين يصرخ بحرقة في وجوه من يعتبرهم سارقي أحلام ثورته:

«مش هسيب دم جيكا يروح هدر.. ثم يهتف: يا نجيب حقهم، يا نموت زيهم».

وبالرغم من اختلاف درجات صور المأساة بين النماذج الثلاثة فإن الرابط بينها واحد، هو حقيقة معاناة الجيل.

وبعيدا عن مناقشة الصواب والخطأ في أفكار هؤلاء الشباب وتصرفاتهم، ثمة ما هو أعمق من ذلك. ألا وهو أن هذا الجيل قد سَئِم وضجر وملّ من تحمل أثقال عقود إن لم تكن قرونًا مضت كنا نحن جزءًا من امتدادها، بل وإفرازاتها. وقرر ألا يكون مثلنا، ورفض أن يكون واقعه شبيهًا بواقعنا. وهو لا يرى فينا قدوة يمكن أن يستلهم منها معالم مستقبله. هذه حقيقة علينا أن نفقهها جيدًا قبل أن نخاطبه بكلمة واحدة. ونون الضمير هذه تعود على مختلف أطيافنا، السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية والاجتماعية، بل على صعيد الخطاب الديني أيضًا!

وقبل أن ننتقد تصرفات هذا الجيل، ونشكو من نزقه وقلة أدبه في ألفاظه وتصرفاته وعدم احترامه للكبار وفقده للهوية وتشتته بين أفكار الاشتراكية والليبرالية، أو حتى فكر القاعدة واتخاذه لرموز هذه الانتماءات قدوة، وتعليقه لصور جيفارا أو حتى أسامة والظواهري.

وقبل أن نسخر من رقصه على طريقة مايكل جاكسون وحفظه



لأغاني مادونا أو ترديده لأناشيد الجهاد في سياق الاحتكاك السياسي وركضه في تمارين المليشيات التنظيمية؛ وقبل أن نزدري ارتداء فتيانه للسلاسل ووشم أجسادهم وتعرّى فتياته واختلاط أولادهم ببناتهم وطبيعة العلاقة بينهم، وتناولهم المُسكرات والمخدرات وتعاملهم بالمولتوف والحجارة أو ارتداءه لملابس الأفغان وإطلاقهم لحاهم دون تهذيب وحملهم السيوف والسواطير والخرطوش؛ وانتشار النقاب بين فتياته وقبل أن ننبزه بلقب «السيس والممسوخ والشاذ» أو «الخروف والمؤدلج والإرهابي»؛ قبل ذلك كله علينا أن نتساءل بشجاعة نقد الذات: ماذا قدمنا لهم من صلة بثقافة يحترمونها، أو تصرفات تجعلهم يثقون بنا، أو رؤية ناضجة لمشروع حقيقي نشاركهم صياغته ونسلمهم رايته؟

لهذا فنحن بحاجة أولاً إلى إعادة النظر فيما تحمله عقولنا من أفكار، وما تحمله قلوبنا من معان، ثم نحتاج عبر ذلك إلى فهم هؤلاء الشباب وتفهّم قضيتهم، وهي على الرغم من تضاد إفرازاتها واحدة. قضيتهم هي البحث عن الذات، والإصرار على الأمل. ومن كانت هذه قضيته فلن يستطيع أحد إيقافه ولا الاستمرار في استتباعه أو استغلاله.

فإما أن نساهم في خدمة قضيتهم متجردين عن حظوظ أنفسنا

وأطماع تطلعاتنا، أو فلنتحمل نتاج تقصيرنا في حقهم، ونكف أذانا عنهم.

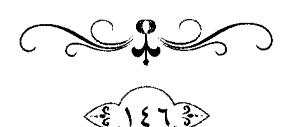
وأختم الخاطرة بموقف من الهدي المحمدي في فهم التعامل مع الشباب مهما كانت تصرفاتهم لعلنا نفقه منها شيئًا:

أذّن مؤذن النبي بالقرب من مكة بعد فتحها وكان عشرة من شباب المنطقة يسمعون فأخذوا يُقلدون الأذان بسخرية واستهزاء، فناداهم النبي وطلب منهم أن يسمعوه الأذان، فلما أعجبه حُسن صوت أحدهم قال له تعال، وأجلسه بين يديه ومسح على رأسه وباركه ولقنه كلمات الأذان صحيحة، وقال له: اذهب فأذّن عند البيت الحرام وجعله مؤذنًا لمكة المكرمة.

وذكر عند حكايته للموقف أنه كان قبل إسلامه» يكره «النبي، لكن قلبه بعد هذا الموقف امتلأ محبة للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا الشاب هو أبو محذورة الجمحي رضي الله عنه. وذكر عند حكايته للموقف أنه كان قبل إسلامه «يكره» النبي، لكن قلبه بعد هذا الموقف امتلأ محبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

اللهم فرّج عنا وأصلحنا وألهمنا حسن الفهم وأخرجنا من دائرة الوهم ووفق شبابنا لما تحبه وترضاه.



عندما يبدو الكبار صغارًا



[الإثنين ٠٨/٠٤/٢٠١٣]

الحمد لله

جاء الهدي النبوي الشريف بآداب شريفة تهذب نفوس البشر كما ترتقي بعلاقاتهم ببعضهم وبالكون الذي يحيط بهم.

ومن هذه الآداب ما يتعلق بطبيعة الصلة بين الكبير والصغير، فيبذل الكبير للصغير الرحمة والاهتمام ويبذل الصغير للكبير التوقير والاحترام. والرحمة والتقدير محلهما القلوب وهما أساس الغرس، بينما الرعاية والاحترام محلهما التعاملات وهما الثمرة. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن لم يرحمْ صغيرنا ويعرف حقَّ كبيرنا فليس منا»[1]، وفي رواية «ويُوقِّر كبيرنا»[2]، وفي رواية «ويُجلّ كبيرنا»[3].

ومفهوم الكبير مفهوم نسبي فكل كبير صغير أمام من هو أكبر

---

(١) مسند أحمد رقم ٧٠٧٣، سنن أبي داوود باب في الرحمة.

(٢) سنن الترمذي، باب ما جاء في رحمة الصبيان.

(٣) الأدب المفرد باب فضل الكبير، المعجم الكبير رقم ٧٨٩٥.



منه وكل صغير كبير أمام من هو أصغر منه، وهو متعلق بالسن والمعرفة والتجربة والأخلاق.

ونحن أمام معضلة من معضلات عصرنا تتعلق بنظرة الصغار إلى الكبار، أو بتعبير أدق، تعظم المعضلة عندما يبدو الكبار أمام الصغار صغارًا.

ويمكن تلخيص أسباب هذه المعضلة في نقاط ثلاث:

١ ـ أن يكون الكبار في واقع حالهم بالفعل صغارًا في نظرتهم أو تصرفاتهم.

٢ ـ أن تكون نظرة الصغار إلى الكبار مشوشة بسبب انحراف نظرتهم إلى مفهوم الأدب أو اختلال تقديرهم للواقع.

٣ ـ أن يوجد من يتعمد إظهار الكبار أمامهم صغارًا ليستفيد من هذا التشويش.

ولن أخوض هنا في تفصيل الأسباب أو تأصيل مفهوم واجبات كل طرف، بل أود الحديث عن بعض النتائج المترتبة على اختلال أخذنا بهذا الهدي النبوي الشريف.

فقد قرأت مداخلتين في الشبكة الاجتماعية لشابين يمثلان نموذجين من الشباب كل منهما متحمس للتغيير غاضب مما آل إليه الواقع.

أما النموذج الأول فقد كفروا بمفهوم النضال السلمي والحراك الشعبي والمفاهيم الليبرالية بعد أن اعتبروها مسؤولة عن استيلاء «تجار الدين» على زمام الأمر في بلدهم واستغفالهم للمناضلين حتى يصلوا إلى الحكم ثم يُسْلموهم لرصاص الاغتيال وسياط الاعتقال. فتضاءلت في أعينهم قامات قياداتهم الوطنية وقيمهم، واحتقروا دعواتهم إلى التمسك بسلمية النضال واعتبروهم ضعافًا فاشلين عاجزين عن مواجهة فاعلية «زمجرة» خطب التكفير وفتاوى إهدار الدماء، فاعتنقوا أفكارًا مختلفة تبرر لهم العنف، فمنهم من انضم إلى جماعة «البلاك بلوك» ومنهم من عاد ليفتش في أفكار اليسار المتطرف التي برر بها لينين وستالين جرائمهما!

وأما النموذج الثاني فقد كفروا بدعوى المواءمة بين الشريعة والديمقراطية وملّوا من سماع الحديث عن الحكمة وفقه الضرورة ومراعاة المصلحة وقدرة السياسة على تغيير الواقع واعتبروها مسؤولة عن تطاول «الكفار العلمانيين» على الدين وأهله ونجاحهم في عرقلة المشروع الإسلامي. فتضاءلت في أعينهم قامات قياداتهم الإسلامية وقيمهم، واحتقروا دعواتهم إلى المصابرة وضبط النفس واعتبروهم ضعافًا فاشلين عاجزين عن مواجهة فاعلية «تضليل» الإعلام الفاسد والمبادئ الهدّامة، فاعتنقوا أفكارًا مختلفة تبرر لهم العنف، فمنهم من انضم إلى فكر «السلفية الجهادية والقاعدة»

ومنهم من عاد إلى البحث عن «فتاوى ابن تيمية» التي يبرر بها المجرمون عملياتهم الانتحارية التي تقتل نساء الكفار وأطفالهم من خلال مقارنتها بالمنجنيق!

وهذه الحالة من اختلال النظرة إلى الكبار تُذكِّر بنظرة قتلة سيدنا عثمان بن عفان وقاتل سيدنا علي بن أبي طالب إلى هذين الصحابيين الجليلين رضي الله عنهما. فقد ورد أن محمد بن أبي بكر الصديق أخذته ردة الفعل الغاضبة من الظلم الذي كان الناس يعانونه من «رأسمالية» الولاة الأمويين الفاسدين الذين كانوا يوهمون الناس بأنهم ينفذون أوامر سيدنا عثمان رضي الله عنه فلم يُنصت هذا الشاب إلى نصح سيدنا علي بالصبر، وانضم إلى الذين اقتحموا بيت سيدنا عثمان وابتدر لحية الشيخ الذي تجاوز الثمانين ليشدها، فنظر إليه سيدنا عثمان وقال له: «دع عنك لحيتي يا ابن أخي فوالله لقد كان أبوك يُكرمها» وقال له: «لا تكن أنت يا محمد» أي من يرتكب جريمة القتل فأفاق محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما من سكرة الاندفاع واستشعر معنى الحياء من الله فخرج مسرعًا ولم يشترك في تلك الجريمة النكراء.

وكان بعض الخوارج الذين توهموا أنهم لمجرد كثرة عبادتهم وتلاوتهم للقرآن وأخذهم بمظاهر الالتزام قد أصبحوا أكثر قربًا إلى الله وأولى بأخذ زمام تحكيم شرع الله فارتكبوا أبشع الجرائم وهم



يظنون بذلك أنهم ينصرون الحق والدين.

فقد تناقش ثلاثة منهم في أمر الأمة وانقسامها وأوصلهم فهمهم إلى أن الحل يكمن في اغتيال القيادات الكبيرة التي يُحمّلونها مسؤولية الخلاف وتكفل أحدهم بقتل معاوية بن أبي سفيان والثاني بقتل عمرو بن العاص وأما الثالث فقد تكفل بقتل سيدنا علي بن أبي طالب، واختار الشقي عبد الرحمن بن ملجم اغتيال ابن عم رسول الله، لأن خطيبته وهي من الخوارج طلبت أن يكون مهرها قتل سيدنا علي كرّم الله وجهه؛ ففشل صاحباه في مهمتهما بينما تمكن هو من اغتيال أمير المؤمنين وهو يصلي بالناس الفجر في جامع الكوفة.

هذه النزعة الدموية المظلمة كانت نتيجة لاختلال ميزان نظرة الصغار في علمهم وتجربتهم إلى الكبار. وهنا نصل إلى المقصود من المقال: نحن في عصر يعاني من خلل في مفهوم العلاقة بين الأجيال يصل إلى ما هو أبعد من كونه انفعال غاضب. فهو متصل بمعاناة حقيقية متشعبة ومتراكمة يعيشها الشباب بسبب تقصيرنا تجاههم تجاوزت الواقع إلى عمق الثقافة والمفاهيم والقيم.

ومع الاضطراب الذي تعيشه منطقتنا يقدم البعض ممن يجلسون اليوم في مقاعد الكبار على أن يستثمر كل طرف منهم آلام الشباب وآمالهم ليوظف غضبة الشباب من واقعهم في سبيل انتصاره



على الطرف الآخر سواء كان ذلك تحت مبرر نصرة الإسلام وإحياء الخلافة أم دعوى الانطلاقة الثورية التي ستحرر الوطن من العقول الظلامية ليلحق بركب العصر.

وعلى الرغم من أن الفقير إلى الله مؤمن بأن المعركة محسومة لصالح الشباب والشباب وحدهم، وذلك بعد أن يقدموا أثمانًا غالية تفوق ما قد بذلوه، غير أن الطريق إلى تحقيق ذلك محفوفة بكثير من الخسائر القيمية. فلا يفرحن من يجلس في مقاعد الكبار اليوم بتحطيم كل طرف منهم لقيمة احترام الكبير الذي في الطرف الآخر وتشجيع الشباب على تجاوز النقد والاختلاف إلى التعدي والازدراء والسب والقذف وتبرير ذلك لهم سواء كان ذلك التبرير باعتبارهم في حالة جهاد مقدس ضد «أعداء الدين»، أم باعتبارهم في حالة نضال وطني ضد «تجار الدين».

والغريب أن كبار كل طرف يعيبون على شباب الطرف الآخر قلة أدبهم وعدم احترامهم للكبار واستخدامهم الألفاظ الخارجة والاتهامات البشعة! وهذا الخلل الكبير يؤدي إلى زيادة أعداد الشباب الذين يبدو أمامهم الكبار صغارًا فينضمون إلى ميادين العنف الثوري أو العنف الجهادي.

وأخيرًا، أيها الكبار حاوِلوا جاهدين أن تكونوا كبارًا؛ أيها الشباب احترام الكبير لا يعني إلغاء استقلالية القرار، واستقلالية



القرار لا تعني هتك الآداب، وفقكم الله وأعانكم.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

اللهم ارزقنا من العقول أوفرها، ومن الأذهان أصفاها، ومن الأعمال أزكاها، ومن الأرزاق أجزلها، ومن العافية أكملها، ومن الأخلاق أطيبها، ومن الدنيا خيرها، ومن الآخرة نعيمها، يا أكرم الأكرمين.



(١) سورة البقرة: ١١٣.

هل يفهم الشبابُ الشبابَ؟

[الإثنين ١٠/٠٢/٢٠١٤]

الحمد لله

سبق وأن كتبت خواطر حول الشباب بعنوان: «همسة في أُذن الشباب» و«نحن والشباب» و«عندما يبدو الكبار صغارًا» و«قضية الشباب»، إذ احتوت على توجيه اللوم إلى جيلنا والأجيال التي سبقته وتحميلهم مسؤولية معاناة الشباب، ودعوتهم إلى محاولة الإصغاء إلى الشباب وفهم قضيتهم.

وهنا أستأذن الشباب في هذا السؤال الذي تزداد جدّيته في قرع أبواب العقول والمشاعر يومًا بعد يوم وهو: هل يفهم الشباب الشباب؟

نعم فإننا أمام نماذج متباينة من الأطروحات الشبابية كل منها يعيش همًّا صادقًا يراه مرتكَزًا لمعاناة الشباب ومفتاحَ حلول لها.

وأجد هنا أنه من الضرورة بمكان أن أقدم بين يدي هذا



المخاض اعتذارًا حقيقيًا إلى الشباب واعترافًا جادًا بمسؤوليتنا الكبيرة تجاه هذا الالتباس والارتباك الذي يعانيه شبابنا.

هناك شريحة من الشباب ترى أن أساس المعاناة هو البعد عن الله تعالى وأنه لا سبيل للخروج من معاناة الشباب إلا بالعودة إلى الله، وهذا حق لا شك فيه.

غير أنَّ محلّ التساؤل هنا:

هل وجدت هذه الشريحة طريقها الحقيقي نحو ما تراه حقًا؟ هل يكمن الحل لمعاناتهم في استنساخ مسالك الأبطال المسلمين أمثال صلاح الدين والعز بن عبد السلام ومحمد الفاتح دون تنبه إلى فوارق الظروف؟

وهل استطاعت هذه الشريحة أن تستوعب غيرها من شرائح الشباب أم أنها اصطدمت مع بقية شرائح الشباب وأصبح نتاج تحركها معاناة أخرى تضاف إلى معاناة الشباب وتُعمِّقها؟ وهل كرّرت إشكالية عدم تفهّم الأجيال السابقة لمعاناة الشباب فاصطدمت مع الأقران وصادرت حقهم في تقدير المعاناة، ووجهت إليهم التُهم بالكفر والفسق والانحراف، وتهكّمت عليهم ونبزتهم بالألقاب كنعتهم بالشواذّ والمستغربين، واستخفّت بآلامهم ومعاناتهم بل استباحت آمالهم قبل أن تستبيح دماءهم؟

وهل وجدت هذه الشريحة من الشباب طريقة للخروج من هذه المعاناة وفق فهم أسبابها؟ أم أنها اختزلت الأمر في المواجهة السياسية التصادمية وما نتج عنها من رفض أدى إلى الصدام الدامي الذي حوّل الشعور بالمظلومية إلى حالة انتقامية من الجميع؟

وهناك شريحة أخرى من الشباب رأت أنَّ أساس المعاناة هو الجهل والتخلّف والاستسلام للتسلّط الناتج عنه والمعمّق له، وأنّه لا سبيل إلى الخروج من معاناة الشباب إلا بمواجهة ذلك بالنضال القائم على العزيمة والإصرار لتحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية، وهذا أيضًا حق لا شك فيه.

غير أنَّ محلّ التساؤل هنا أيضًا:

هل وجدت هذه الشريحة طريقها الحقيقي نحو ما تراه حقًا؟ هل يكمن الحل لمعاناتهم في استنساخ مسالك رموز النضال كأمثال «مالكوم إكس» و«غاندي» و«تشي جيفارا» دون تنبه إلى فوارق الظروف؟ أم أنها اصطدمت مع بقية شرائح الشباب وأصبح نتاج تحركها معاناة أخرى تُعمّق معاناة الشباب؟

وهل استطاعت هذه الشريحة أن تستوعب غيرها من شرائح الشباب أم أنها كررت الخطأ نفسه فاصطدمت مع أقرانها وصادرت حقهم في تقدير المعاناة، ووجهت إليهم التُهم بالتخلّف والجهل

والغباء والتبعية العمياء وتهكّمت عليهم ونبزتهم بالألقاب كنعتهم بالخرفان والمغيبين، واستخفّت بآلامهم ومعاناتهم بل واستباحت آمالهم قبل أن تستبيح معتقداتهم وثوابتهم؟

وهل وجدت هذه الشريحة من الشباب طريقة للخروج من هذه المعاناة وفق فهم أسبابها؟ أم أنها اختزلت الأمر في التظاهر المستمر في الشارع وما نتج عنه من نفور حوّل شعورها بالمظلومية إلى حالة رفض لكل ما يُخالف ما تتبناه من مفاهيم وأدوات نضالية؟

وهناك شريحة ثالثة غلبت معاناة الظروف اليومية الملِحّة على تفكيرهم ومشاعرهم، وأصبح مطلبهم هو الحل الفوري لها بعيدًا عن التنظير المتجاهل لمعاناة الواقع اليومي، فرفضوا أفكار الشريحتين السابقتين، واتهموا أصحابها بتجارة الدين والعمالة ونبزوهم بالألقاب مثل «عبيد المرشد» و«الطابور الخامس»، لا سيما أنّهم شعروا بأن الشريحتين السابقتين قد نظرتا إليهم نظرة استخفاف وانتقاص وفوقية وسخروا من مطالباتهم بالاستقرار وعودة الأمن واتهموهم بقلّة الوعى ونبزوهم بالألقاب مثل: «عبيد البيادة» و«المطبلاتية».

وهناك فئة مغمورة من الشباب منسيّة بين الشرائح الأخرى، وهم مجندو الجيش والشرطة الذين يدفعون الأثمان الباهظة للصراع

الحالي من دمائهم دون اعتبار لوجودهم مع أن غالبيتهم لم يكونوا في يوم من الأيام طرفًا مختارًا لهذا الصراع.

فهؤلاء كلهم شباب لكنهم يعيشون تباينًا في الرؤى وإن كان أصل معاناتهم واحدا، والإشكال يكمن في وجود فريق في كل شريحة يرتفع صوته بادّعاء أنه من يمثل الشباب مع عدم الاعتراف بالشريحة الأخرى.

وهذه الأمثلة وإن بدت مصرية اللون لكنها تمثل حالة متكررة في بقية الأوطان بدرجات متفاوتة مهما اختلفت التعبيرات والألفاظ.

والمرجو من هذه الخاطرة هو أن يتأمل الشباب هذه الأسطر، من محب مستشعر لمعاناتهم، وأن تتسع صدورهم لما فيها من المصارحة الأليمة وإن أغضبهم بعض محتواها، وأن يُقوّموا ما فيها من عِوج بالتصويب عبر الحوار.

نعم أحبتي، الحوار القائم على الاحترام للعقول والاستعداد للاستماع بعيدًا عن الأحكام المسبقة والاتهامات المقولبة والإقصاء المتعالي. لنحاول فهم بعضنا بعضًا فنحن جميعًا في معاناة واحدة ولا نستطيع مهما كان رفض بعضنا لبعض، أن نواصل المسيرة بتجاهل حقيقة التنوع المستعصية على محاولات صبغها بلون واحد، فإن التنوع سنة كونية تتصل بحكمة الله تعالى في الخلق، ﴿وَلَن تَجِدَ



لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[1].

أحبتي، أرجو أن لا تُكرّروا ما تنتقدونه على الأجيال التي سبقتكم، فإن لُب إشكالياتهم لا يختلف كثيرًا عن هذه الإشكالية، وإن المعاناة التي تعيشونها بسبب إرث تجربتهم الثقيل لم تكن مقدماتها ببعيدة عن هذه الحالة التي تمرّون بها، وليس من المستبعد أن يكون لبعضٍ منكم مراجع من تلك الأجيال ينقلون أمراض عصرهم إليكم. غير أن الرجاء في الله تعالى عظيم أن يوفقكم إلى تجاوزها ليكون جيلكم هو من يفتح آفاقًا رحبة للأجيال التي تأتي من بعدكم.

أحبتي، لا تطوّع لكم أنفسكم قتل بعضكم بعضًا بأيٍّ من أنواع القتل، قتل الحلم وإزهاق الأمل وسفك الأفكار، أو قتل الجسد وإزهاق النفس وسفك الدماء، ففي كل منها الخسران المبين.

قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[2].

ولنستمطر رحمة الله كي نلين بعضنا لبعض حتى لا تُظلِم قلوبُنا بالغِلظة فنَنْفضّ من حول قضيتنا.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦٢.

(٢) سورة المائدة: ٣٢.



﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

اللهم اشرح صدورنا لما تعلم أنّه الحق يا حق، يا نعم المولى ويا نعم النصير.

(١) سورة آل عمران، ١٥٩.

مسابقة غناء ومقاتلو سيناء



[الأحد ٠٣/ ٠٣/ ٢٠١٣]

الحمد لله

أرسل أحدهم للفقير إلى الله مقطعًا لفتاة انفصلت عن خطيبها لتخوض مغامرة التقدم في مسابقة غنائية عالمية بنسختها العربية محاولة من خلالها أن تحقق حلمها في النجومية! وكان المرسل مستنكراً ومحوقلاً ومسترجعاً وشاكيًا المستوى الذي وصل إليه شباب هذا الجيل.

فتأملت محتوى المقطع وما حصل فيه من بكاء مرير للفتاة عندما رفضت لجنة التحكيم ترشيحها بالرغم من الثمن الباهظ الذي دفعته لتشارك في هذه المسابقة. ثم تأملت اللفتة الإنسانية التي جعلت أحد الفنانين يخرج خلفها ليمسح دمعتها بخبر مفاده أنهم سيعطونها فرصة أخرى لتغنّي أمامهم تقديرًا منهم لارتباكها؛ وتأملت فرحتها وهي تقفز عند خروجها وقد نالت فرصتها.

ولن أتوقف هنا عند كمّ المخالفات الشرعية الموجودة في البرنامج فهي معروفة، وأخشى أنها قد أصبحت مألوفة، ولا عند الغزو الثقافي الكبير الذي يروج له سماسرته في المنطقة. لكن الذي استوقفني بل وأبكاني هو القدر الكبير من المشاعر الإنسانية المكبوتة التي لم تجد سبيلاً للتعبير عنها إلا في هذا القالب؛ فأخذت تغنى: «سامحتك كتير سامحتك. بقلبي الكبير سامحتك» ثم تغنى «يا ظالمني» وكأنها تنوب عن جيلها في مخاطبة الواقع الذي يعيشونه ونحن جزء منه بل لقد شاركنا في صياغته.

واستوقفتني الآمال العريضة التي تحدوها إلى البحث عن فرصة مهما كان الثمن الذي ستبذله، وهو ما جعلها تنفجر بالبكاء على فوات ما عقدت آمالها عليه وضحّت من أجله بخطيبها؛ فحرّكت في القلب كوامن الأسى ونبشت دفين الألم من تفريطنا في حق الشباب.

واستوقفتني الطاقة العظيمة التي كمُنت في باطنها فلم تعد مستعدة للالتفات إلى المعوقات التي تقف أمام انطلاقها، لتخاطب الشاشة ومن وراءها من المشاهدين قائلة: قلت لكم سوف أنجح.

كل هذه المعاني من وراء ظاهر الأفعال والتصرفات التي لا نراها مناسبة، هي في حقيقتها كنوز في جواهر قلوب شبابنا لم ننتبه



إليها حال انشغالنا بالحكم على تصرفاتهم.

ومقطع آخر أرسله شخص آخر لشباب تجمّعوا في سيناء وتدربوا لتنفيذ عملية ضد الكيان الصهيوني المحتل غير مبالين بما يدور في بلادهم من معترك سياسي أو بالعواقب المترتبة على ما هم مقدمون عليه، وكان هو أيضاً مستنكراً ومنتقداً وساخطًا على مستوى الجهل وقصر النظر لدى أولئك الشباب.

فتأمّلت الفيلم الترويجي وما فيه من حرقة صادقة لدى أحد أولئك الشباب وهو يذكر غيرته على النبي الكريم، صلى الله عليه وآله وسلم، ورفضه لما تعرض له من إساءة، ويتحدث بإحساس صادق عن آلام إخوتنا في فلسطين وعن الظلم المجحف الذي ينزل بهم صباح مساء في سجون العدو الصغيرة أو سجن الوطن الممزق.

ثم تأملت شكواه، واستوقفني عمق الألم وهو يصف خيبة أمله في تنظيم إسلامي تربى في أحضانه وبذل له عمره وجهده، وكم التضحيات التي قدمها وهو منتظم فيه، وكيف أنه هجره لما فقد الأمل في صدق قياداته وكانت صدمته فيهم عميقة. ثم قرر الانفصال عنهم لينضم إلى تنظيم رآه جهاديًّا جادًّا، ليتدرب فيه ويستعد لنيل فرصته في نيل الشهادة على حدود فلسطين.

ولن أتوقف هنا عند سطحية فهم هذا الشاب لدينه ومخالفته

لأحكامه التي تضبط ميزان المصلحة والمفسدة وتُقدّر عواقب التصرفات، ولا عند استغلال أمراء الحرب لهذا الجهل وتوظيفه في خدمة من يديرون اللعبة السياسية الكبيرة التي تعصف بالمنطقة، فهذا أمر متكرر الحدوث منذ أكثر من ثلاثة عقود.

لكن الذي استوقفني بل وأبكاني أيضًا هو كم المشاعر الإنسانية الجياشة التي كانت تُحرك هذا الشاب وصوته الشجي وهو ينشد: «غرباء، غرباء، غرباء ولغير الله لا نحني الجباه، غرباء وارتضيناها شعارًا للحياة، والآمال العريضة التي عبّرت عنها ابتسامته المشرقة وهو ينظر إلى آلة التصوير قبل أن يقضي نحبه قائلاً: أسأل الله أن يتقبلنا ويرزقنا ما نتمنى «الشهادة».

والطاقة العظيمة التي كمُنت في باطنه فلم يعد مستعداً للالتفات إلى المعوقات التي تقف أمام انطلاقتها وهو يتلو القرآن الكريم في آخر صلاة صلّاها قبيل تنفيذ العملية: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1]، ثم يكرر «حسبنا الله ونعم الوكيل».

أعلم أن هذه المقارنة لن تروق لأي من الفريقين. ولسوف يحتج الأول متسائلاً: كيف تقارن الجهاد والتلاوة والشهادة بالفسق

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٣.





والفساد والعري؟ كما أن الآخر سيحتج متسائلاً: كيف تقارن الفن والإبداع والجمال بالقتل والعنف والإرهاب؟

لكنه الشعور بحجم المسؤولية تجاه هذا الجيل الذي يحمل من مقومات ارتقاء الأمة ما لم نهتم نحن بفهمه فضلاً عن إدراك واجبنا تجاهه. فقبل أن نعيب عليه اندفاعه خلف كل صيحة من الغرب أو الشرق، هلّا سألنا أنفسنا عن البديل الأصيل الذي قدمناه لهم؟

وقبل ذلك كله هل كنّا نحمل من عمق التفهّم لمعاناتهم ما يمكن به أن نُقدّم لهم شيئًا أكثر من الاستنكار والاتهام والهجوم؟

ولنسأل أنفسنا بشجاعة نقد الذات: هل نحمل في طيات عقولنا وكوامن قلوبنا فهمًا حقيقيًّا لموروثنا العظيم المتنوع المتجدد نميّز به الفرق بينه وبين ما عَلِق به من ركام العادات المتوارثة والأعراف البالية والعنصرية المقيتة؟

إن هذا الشباب ماضٍ في طريقه ولن توقفه قوة سياسية ولا عسكرية ولا اقتصادية، محلية كانت أو إقليمية أو دولية، ولن يوقفه قتل ولا حبس ولا تشويه.

ومهما انخدع، مؤقتًا، بشعارات بعضنا أو هتافات البعض الآخر فلن يستمر ذلك طويلاً؛ ويجب أن نعي ذلك جيدًا لنقرر: إما

أن نؤدي خدمة حقيقية لهذا الجيل، أو نتنحى عن طريقه، ونتركه يخوض تجربته إلى أن ينضج ولا نلومه على الثمن الباهظ الذي سندفعه جميعًا لنتائج هذه التجربة أو قُل لنتائج تقصيرنا نحن تجاهه.

ولنتلمس هنا هَدي الرحمة المهداة صلى الله عليه وآله وسلم وكيف تعامل مع جُرأة الشاب الذي جاهر بالمطالبة بإباحة الزنا!

فقد أسكت أولاً صرخات المستنكرين لجُرأة الشاب على أن يُطالب بإعطائه الحق في ممارسة الفاحشة الموبقة! فقال لهم: «أقرّوه» أي دعوه يُمارس حقه في التعبير عمّا يجيش به صدره، ثم أشار إلى الشاب ليقترب منه مخاطبًا عقله وفطرته بهدوء: «أترضاه لأمك»؟ فيجيب الشاب مندهشًا: كلا، جعلني الله فداك. فيقول له: «وكذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم».

وواصل مواجهته بالحقيقة التي غيبتها حماسة الرغبة: «أترضاه لأختك؟.. أترضاه لخالتك؟.. أترضاه لعمتك؟».. ثم يضع يده الشريفة الحانية على صدر ذاك الشاب ويدعو له فيقوم وقد أبصر طريقه[1].

ثم لنقارن ذلك بعباراتنا الجارحة وألفاظنا البذيئة وقذفنا الآثم المنفّر للشباب عندما يصدر منهم ما نراه خروجًا عن الخُلق

(١) مسند أحمد رقم ٢٢٢٦٥، المعجم الكبير رقم ٧٦٧٩.

المعروف والأدب المألوف. ولنسأل أنفسنا قبل أن نُوبّخ الشباب الغاضب: هل وجدوا منّا بعض الاعتناء والاهتمام الذي وجده أسامة بن زيد من النبي الكريم مما جعل لتوبيخه إياه على قتله العدو بعد أن نطق بالشهادتين أثرًا بالغًا في نفسه استوعب به الدرس وتقبّل المراجعة؟

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[1].

غفرانك ربنا وإليك المصير.



(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

«جعلوني مُلحدًا»



[الأحد ٠٧/ ٠٧/ ٢٠١٣]

الحمد لله

ظهرت أصوات تدعو إلى ترك الدين بذريعة ما أفسدته بعض الجماعات المنتسبة إلى العمل «الإسلامي» بأقوالها وتصرفاتها.

وأتفهّم جيدًا دواعي مراجعة شرائح متسعة من الشباب لمسلّماتهم الدينية الموروثة طلبًا لمعرفة الحقيقة، وهذا من حقهم إذا سلكوا طريق المنهج العلمي الجاد، بل ربما يجب عليهم أن يفعلوا ذلك في مثل هذا العصر، لكن التوقّف هنا في الربط بين هذا القرار وما نراه ونشهده من نماذج قبيحة لأقوال كثيرين وتصرفاتهم من المنتسبين إلى التدين وإلى الدعوة إليه.

فمن يُبرر لنفسه ترك الدين بسلوكيات المتدينين الخاطئة ينبغي أن يراجع مصداقيته مع نفسه من الناحيتين الأخلاقية والعقلية، وقبل أن يُساء فهم العبارة ويُظَنُّ أنَّ فيها حكمًا على العقول والأخلاق



إليكم بيان المقصود:

أما الناحية الأخلاقية: فالمُقترح أن يُفتّش في أعماق نفسه عن دوافع قراره ترك التدين، فلربما يجد منها الميل إلى التخلص من أي التزام يوجب عليها أن تفعل أو تترك «الفرض الواجب والممنوع الحرام» فالنفس تستثقل الالتزام، لا سيما إذا كان إلزامًا بغير معرفة للمقاصد أو تذوق للمعاني، وهنا يجد الصادق مع نفسه أنه بحاجة إلى ربط القرارات بأسبابها الحقيقية، ثم يقرر طريقة التعامل معها.

وأما الناحية العقلية: فالمطلوب هو النظر في صحة المقدّمة التي بنى على أساسها النتيجة، وهذه المقدمة هي ربط صوابية المبدأ والعقيدة وسلامتهما بتصرفات كل من يدّعيهما، وهذا محل نظر لأنَّ ارتباط تصرفات الإنسان الخاطئة بفهم سقيم لنصوص دينية يعتقدها لا يعني خطأ هذه النصوص، وإنَّ مخالفة الإنسان للمبادئ التي يتبناها لا يعني بالضرورة أن يكون الإشكال في هذه المبادئ، إذ لا يوجد مبدأ أو اعتقاد إلا وقد صدرت عن الذين يعتقدونه أو يتبنونه تصرفات سيئة.

وإليكم أمثلة واقعية على ذلك:

* ظهر في مَن يدعون أنهم «إسلاميون» الكاذب والسارق والقاتل المجرم الذي ينتحل صفة الجهاد كالقاعدة والسلفية الجهادية



وبعض الحركات السياسية الإسلامية.

* ظهر في مَن يدعون أنهم مسيحيون السارق والكاذب والقاتل باسم الصليب والمدعي بأن الرب قد أمره بشن الحرب على بلاد واحتلالها كالحروب الصليبية ومليشيات الصرب وتبريرات احتلال العراق.

* ظهر في مَن يدعون أنهم يهود من يسرق ويكذب ويقتل ويحتل ويتآمر كالكيان الصهيوني المحتل واللوبيات التي تعمل على خدمته.

* ظهر في مَن ينتسبون إلى البوذية من يكذب ويسرق ويقتل ويقوم بالاستئصال العرقي كالحروب القديمة بين البوذيين مع الهندوس وما يجرى الآن في بورما «ميانمار».

* ظهر من الملحدين من يسرق ومن يكذب ومن يقتل شعوبًا ويشرد أممًا أمثال لينن وستالين اللَّذين تسببا في قتل أكثر من أربعة وعشرين مليون إنسان داخل الاتحاد السوفييتي السابق والأحزاب الشيوعية في الصين وجنوب اليمن والعراق.

* ظهر من العلمانيين والليبراليين من يكذب ومن يسرق ومن يشن الحروب الظالمة التي تنطلق من الأطماع كالحروب العالمية التي كانت الدول المتقاتلة فيها تعتمد العلمانية في أنظمة حكمها



والتي فاق ضحاياها السبعين مليون إنسان وتبريرات الاحتلال البريطاني للهند وبقية المستعمرات.

* ظهر من الأدباء والفلاسفة وعلماء النفس من يكذب ومن يسرق ومن يناقض الأخلاقيات التي يُقرّ برُقيها وأهميتها كافتراء «فولتير» على «روسّو» بسبب غيرته من إقبال الناس عليه إلى درجة تأليف كتاب باسم مستعار لفّق فيه تهمًا قبيحة قذف بها «فولتير» قرينه «روسّو»، واستجابة «فرويد» لأطماع ابن أخته «إدوارد بيرنيز» في مساعدته على التأسيس لنظرية التسويق التي تقوم على إيهام المستهلك أنه بحاجة إلى السلعة.

إذًا فالعقل يرفض محاكمة المبدأ والمعتقد لمجرد وجود من يسيء التصرف من أتباعه لا سيما إذا كان منظّرو هذا المبدأ يرفضون هذه الجرائم في تنظيرهم له، وكان علماء هذا المعتقد يرفضونها في عقيدتهم وفتاواهم.

وهنا يبرز عمل التنظير والفتوى وتحقيق صدق انتمائهما إلى المبدأ والعقيدة وصحة تمثيلهما لكل منهما.

وأخيرًا، لعلّه من الأفضل لمن يعيش انفعالاً ناتجًا عن ردة الفعل أن يتريّث قبل اتخاذ أيّ قرار يتعلق بالمبدأ أو المعتقد إلى أن يهدأ ويتضح له الفرق بين ردة الفعل والبحث الجاد حتى لا يكون





فريسة لحالته النفسية فيخالف بذلك مقتضى الأخلاق والعقل اللّذَين يظن في لحظة الانفعال أنهما منطلق قراره.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1].

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[2].

اللهم اهدنا لما اختُلِف فيه من الحق وحبِّبْ إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا إنّك أنت الرؤوف الرحيم.



(١) سورة الحج: ١١.

(٢) سورة فصلت: ٥٣.



أهو إلحاد أم أنّه بحث عن الحقيقة؟



[الأحد ٢٦/٠٥/٢٠١٣]

الحمد لله

كثُر الحديث هذه الأيام عما يُسمّى بـ«ظاهرة الإلحاد»، وكثر الجدل حولها من نواح عديدة، فتارة تُطرح من باب الدعوة إليه أو التحذير منه وتارة من باب الثقة بأنه القادم المحتوم أو القلق من كونه الإشكال الخطير وتارة من باب السرور بأنه المخلّص أو الغضب من كونه الكفر الوقح.

لكن الخاطرة اليوم حول ملمح مختلف بعض الشيء، ألا وهو أن الضجيج القائم حول هذه الظاهرة ومختلف التفاعلات معها قد غيَّب عن الأذهان جانباً مشرقاً فيها! نعم جانب مشرق فلا تتعجل أخي القارئ المتدين.

والجانب المشرق هنا هو ضخ دماء جديدة للبحث عن الحقيقة في مجتمعنا الذي جَمُدت الدماء في عروقه، وأصبح مرتبكًا أمام



فوضى التنازع على الرغبات، والركون غير المتبصر إلى الموروث، والملل القاتل من المعتاد، واللامبالاة المقلقة تجاه كل ما هو مهم، والتهافت البغيض على التسلُّط بأنواعه، الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، والغضب المتفجر من الواقع.

وأمة تتجمد دماء البحث عن الحقيقة في عروقها لا يمكن أن تنهض وإن أحرزت صورًا من التقدم المادي أو مظاهر من الحريات الفردية أو الاجتماعية أو السياسية، فضلاً عن أمة ترزح تحت وطأة التخلّف في مختلف هذه النواحي.

لهذا فنحن بحاجة إلى التريُّث في ردة الفعل تجاه هذه الظاهرة، وينبغي لنا أن لا نقع في فخ الانفعال التلقائي الغاضب، أو الهجوم المتحامل على الشباب، أو التلويح الأحمق بالعقوبات، أو الدعوة الهمجيّة إلى البطش، فكل هذا يوصل رسائل خاطئة مفادها عدم الثقة بقدرة الإسلام على البيان بالحُجّة والبرهان، كما أنه يؤدي إلى نتيجة واحدة؛ وهي زيادة التشويش على أذهان الشباب ومن ثمّ إلى مزيد من الانتشار لهذه الظاهرة.

ولدينا جانبان أساسيان في تناول هذه الظاهرة:

الأول: هو الجزء المتعلق بمسؤوليتنا تجاه انتشارها وهي تتلخص في تخلف بيت الخطاب الإسلامي عن فريضة التجديد،





وتقصيرنا في بناء قواعد البحث المعرفي لشبابنا، وعجزنا عن تقديم النموذج العملي للحضارة المبنيّة على الإيمان مع الاكتفاء باجترار الماضي المشرق للحضارة التي شيدها الأسلاف.

الثاني: هو الجزء المتعلق بفهم معاناة شبابنا من واقعهم المرير وتفهّم آمالهم وآلامهم، واحترام عقولهم ومشاعرهم، وإعطائهم حقوقهم التي جعلها الله لهم في أن يخوضوا تجربة البحث الجادّ عن الحقيقة بما في هذه التجربة من نجاح وإخفاق وصواب وخطأ.

وحق الإنسان في أن يُخطئ هو حق أصيل في الشريعة؛ سواء كان هذا الخطأ نتاجًا لتجربة البحث الجاد، أم كان صادرًا عن طبيعة الضعف البشري.

فصاحب الخطأ الناتج عن البحث الجاد عن الحقيقة له أجر كما أخبر المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر». رواه البخاري[1].

وفهمَ العلماء من هذا الحديث أن الجادّ في محاولته للوصول إلى الصواب، الآخذ بأدوات الاجتهاد، الصادق في طلب الوصول إلى الحق، له أجر وإن لم يصل إليه ولهذا قالوا: «كل مجتهدٍ

(١) صحيح البخاري، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم ٧٣٥٢.



مُصيب» ، وقالوا: «الحق واحد لكن الصواب متعدد» .

كما أن الخطأ الناتج عن الضعف البشري أيضًا طريق للوصول إلى الحقيقة في حالة الاعتراف به والسعي نحو تصحيحه ، ولهذا شرع الله لنا التوبة ، بل جعل تكررها الناتج عن تكرر الخطأ طريقًا إلى نيل محبة الله ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[2] .

بل إنّ الخطأ الناتج عن الضعف البشري مظهرٌ من مظاهر حكمة الله في خلقه ورحمته بهم ، قال الرحمة المُهداة صلى الله عليه وآله وسلم : «لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها اللهُ لكم لجاء اللهُ بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم» . رواه مسلم[3] .

لهذا فنحن بحاجة إلى الكفِّ عن لغة التعنيف والتهجّم والتهديد التي لا تُجدي نفعًا لننتقل إلى مرحلة تحمّل المسؤولية والاعتراف بالخطأ والعمل الجادّ على الإجابة عن أسئلة الشباب .

وأهمس هنا في أذن الشباب بأن يكونوا جادّين في طلب الحقيقة أو الصواب ، آخذين بأدوات البحث العلمي ، صادقين في

(١) سورة البقرة: ٢٢٢ .

(٢) سورة الزمر: ٥٣ .

(٣) صحيح مسلم ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة .

التفرقة بين البحث الجادّ والاستسلام للسُخط على الواقع، وأن يعملوا بهمّة على التحرر من عبودية الرغبات والشهوات ومزاجيّة الأهواء، كي لا تُشوّش على موضوعية عقولهم الباحثة. وأن لا يعتدوا على شرف قيمة حرية البحث وحرية التعبير وأخلاقياته، وذلك بتعدّيهم على قيمة أخرى وهي احترام حق المتدين في ألا تُنتهك معتقداته بالسب والتجريح والسخرية، فهناك فرق بين النقد والسباب.

وهذه الهمسة أبثّها أيضًا إلى من كان بحثهم عن صوابية وجود الحقيقة في معترك النسبية المطلقة وفلسفة الحداثة وما بعد الحداثة.

وأتذكّر هنا موقفًا احترمته لشاب اختار الإلحاد؛ حيث رفض العمل على دعوة من حوله إلى اختياره، لأنه يعتبر نفسه في مرحلة من مراحل التأكد من صحة هذا الاختيار؛ وذلك بسعيه نحو الوصول إلى الانسجام العقلي والقلبي والنفسي مع اختياره، والتأكد من أنه قد تخلّص في اختياره من تأثير ردة الفعل تجاه الواقع الذي نعيشه، وذلك بسبب شعوره بالمسؤولية تجاه الآخرين، ورجوت أن يكون هذا حال كثير من المتدينين المعاصرين تجاه من يحيط بهم.

وأخيرًا، إن ما توصلتُ إليه بعد بحث ودراسة، لا تزال مستمرة عبر الاستبانة والاستقراء والحوار مع شرائح متنوعة من الشباب، هو أنَّ كثيرًا ممن يعتبرون أنفسهم ملحدين أو لا دينيين أو



حتى متشككين ومستشكلين هم في الحقيقة باحثون عن أجوبة لأسئلة تجيش بها صدورهم ومن حقهم أن يأخذوا الفرصة والوقت الكافيين في البحث الجادّ عنها.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟[1]

اللهم يا مَن احتجبَ بنور ظهوره عن خلقه، وأشهدهم حقيقة وجوده بتجلي أفعاله، وأودع في مكنون قلوبهم بصيرة خرق حجاب نفوسهم، دُلّنا بك عليك، وأوصلنا بفضلك إليك، وانقلنا من حيرة الوهم إلى حيرة الفهم يا قُدّوس يا سلام.



(١) سورة البقرة: ٢٥٩.

خلفيات العنف، وتهمة التبرير



[الأحد ١٧/٠٢/٢٠١٣]

الحمد لله

قابلت عددًا من أصحاب القرار بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في حمأة ما يُسمى بالحرب على الإرهاب وكانت الأسئلة المتكررة تُطرح من قِبلهم بنفس السياق ونفس ردود الفعل على الإجابات.

ـ ما رأيك في تفجير البرجين؟

ـ جريمة يُحرمها الشرع والخُلُق والعقل.

ـ وما رأيك فيمن ارتكبها؟ أرجوك لا تدخلنا في سراديب نظرية المؤامرة.

ـ مرتكبو جرائم.

ـ وكيف نتعامل مع أمثالهم ممن حملوا السلاح؟





ـ مستخدم السلاح يقابل بالسلاح.

ـ ممتاز!

ـ ولكن هذا غير كافٍ ولن يؤدي وحده إلى القضاء على المشكلة بل ربما يزيدها.

ـ ماذا تقصد؟

ـ حامل السلاح بيده يحمل فكرًا منحرفًا في رأسه، وإشكاليات متراكمة في نفسه، وهي موجودة لدى الآلاف ممن لم يحملوا السلاح بعد.

ـ ماذا تعني بذلك؟ وكيف ينبغي التعامل معه؟

ـ الفكر يُقابل بالفكر والإشكاليات تقابل بالاعتراف بها والعمل على معالجتها وهذا يحوِّل طاقات الكثير ممن هم جزء من المشكلة إلى جزء فاعل في الحل.

ـ ماهي مشكلة الفكر؟

ـ متنوعة ومن أبسطها الفهم الخاطئ للجهاد وهو نتاج لقلة المعرفة بالشريعة والتي فاقمها حذف أبواب الجهاد من المقررات التعليمية مما أدى إلى جعل الشباب عُرضة للاستجابة لكل من يتلو عليهم نصوص الجهاد من الكتاب والسنة مع تحريف دلالاتها.

ـ وعلاج ذلك من وجهة نظرك؟

ـ التدريس الناضج لفقه الأحكام الشرعية الصحيحة ومنها باب الجهاد وليس تخفيف جرعة التعليم الديني وتوهّم أن هذا سوف يبعد الشباب عن خطر الإرهاب.

ـ والجانب الآخر؟

ـ التراكمات النفسية؟

ـ نعم

ـ الشباب في منطقتنا يُعانون تراكمات من الظلم والفساد وسوء المعالجة لمشاكلهم الاجتماعية مع شعورهم بمرارة الهزيمة والتخلف عن ركب التقدم العالمي بالرغم من قدرتهم على النهوض بواقعهم.

يقاطعني قائلاً:

ـ أنت الآن تبرر لهم وهذا مناقض لجوابك الأول.

ـ بل أحاول تفسير ما يجري بالاستدلال على المرض بالعرَض.

ـ كيف؟

ـ هل توجد لدى الشباب تراكمات من الظلم في التعامل مع قضاياهم ومشاكلهم؟

ـ هذا تراكم ورثناه من الأنظمة التي سبقتنا ونحن نحاول التصحيح قدر المستطاع وفق الإمكانيات المتاحة.

ـ إذن وضّحوا لهم الأمر واشرحوا لهم العقبات وتعاملوا معهم عبر الاعتراف بحجم المشكلة ومستوى الإمكانيات المتاحة.

ـ وهيبة الدولة؟

ـ سيُضاف إليها محبة الدولة والولاء للوطن الذي يشعر بهمومهم ويحترم عقولهم ويراعي حقوقهم وتكون قيادته واضحة معهم.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ هناك جانب من الظلم لا علاقة له بالإمكانيات بل بشجاعة الاعتراف بالخطأ. فالمشرط الأمني وحلول الجراحة المصاحبة له من بتر وتجميل لا ينبغي اللجوء إليه إلا عند عدم جدوى العلاج ومداهمة الخطر، وهو حينها لا يكون كافيًا دون معالجة موازية.

ـ وماذا تقصد بالفساد؟ (يقولها بشيء من الريبة والتحفز)

ـ الفساد الإداري والاقتصادي والتعليمي وغيره.

ـ كنت أظنك ستتكلم عن فساد المسلسلات والأفلام والأغاني (يقولها مبتسمًا)



ـ هذا أمر جانبي.

ـ لكنهم يتحدثون عنه في تبرير أفعالهم.

ـ وقد أخبرتك أنني لست مبررًا في حواري معك.

ـ إذًا كيف تبرر جرائم القتل والإرهاب بالفساد؟

ـ بل أفسّر ولا أبرر. والتهرب من النظر إلى عمق المشكلة لا يحلها. فهذا الفساد يؤدي إلى حرمان الشباب من حقوقهم ويصادر أحلامهم ويُشعرهم بأنْ لا مستقبل أمامهم وعندها يبحثون عن مستقبل آخر ليجدوا من المتطرفين مَن ينسج لمخيلاتهم مستقبلاً آخر فيه العزة والنصر للأمة مع ما ينتظره في الجنة من الحور والقصور وهو يجهل أن ارتكاب تلك الجرائم يُحطم ذلك المستقبل الآخر.

ـ وماذا عن مشكلة التخلف الحضاري هل سيحلها العنف؟

ـ كلا، غير أنه تصرف المهزوم تجاه المنتصر إذا لم يجد أمامه أفقًا واضحًا للتخلص من مرارة الهزيمة.

ـ ولكنك لم تلاحظ أن هؤلاء ليسوا سوى مجموعة من طالبي السلطة وتجار الدين الذين يستغلون الإسلام لتبرير أطماعهم وتستغلهم قوى خارجية للضغط علينا.

ـ هؤلاء، إن وُجدوا، لا يمكن أن يكون لهم تأثير في الواقع





لولا أن وراءهم شبابًا صادقًا محبًّا لدينه ولأمته أوصلته المعاناة مع ضعف الوعي إلى درجة المخاطرة بنفسه ليعرضها للسجن والتعذيب ثم يصل بعد ذلك إلى تفجير نفسه بعد انسداد أبواب الحل في وجهه، فهل يفجر تاجر الدين نفسه؟ وهذه ليست مقتصرة على الدافع الديني وحده، فقد كان الفدائيون الشيوعيون يفعلون ذلك وهم لا يؤمنون بدين ولا بآخرة ولكنهم يؤمنون بمبدأ التضحية في سبيل نصرة المبادئ خدمة لمستقبل الوطن والأمة فيما يتصورونه.

ـ لا أستطيع أن أنفي وجود بعض مما ذكرته لكني أشعر أنك تضخم الأمور بسبب تعاطفك مع الإسلاميين.

ثم يقول بنبرة حازمة: وإذا لم تكن لكم أيها العلماء والدعاة مواقف أقوى من ذلك في الإنكار على جرائمهم فسوف يؤدي ذلك إلى عدم اقتناع العالم ببراءة الإسلام من هذه الأفكار والتصرفات الإجرامية.

ـ فخامتك، ابتدأتُ الكلام بتجريم أفعالهم بوضوح.

ـ ولكنك عدت لتدافعـ...

ـ عفوًا لم أكمل.

ـ تفضل.





- والأمور ضخمة بالفعل ولست من يُضخمها وإذا لم تكن لدينا شجاعة النظر في عمق المشكلة فسوف تكبر وتتخذ أبعادًا أخرى من الرفض قد لا تستطيعون استيعابها. وهذه وجهة نظر من ليس لديه طموح سياسي ولا رغبة في التنافس على الحكم.

كان هذا حوارًا يتكرر مع أصحاب القرار في عدد من الدول، اثنتان منها شهدت ثورة أسقطت رأسَي النظام فيها، وثلاث منها تعاني من مشاكل تشتد وترتخي من وقت إلى آخر.

واليوم، أرى العنف يتجدد في ثلاث دول يتولى من كانوا يُعانون في سجونها بالأمس زمام القيادة اليوم في اثنتين منها ويشاركون في حكم الثالثة. والغريب أن شيئًا لم يتغير في أسلوب المعالجة؛ فالطرح نفس الطرح، والتجاهل نفس التجاهل، والاتهامات نفس الاتهامات، لكن بتغير في الأدوار وباصطفاف التبرير الديني في ثوبه الحركي إلى جانب الحكم هذه المرة ليحل محل الشرعية الثورية لدى الشباب. وسوف تتكرر المشكلة ولكن على نحو أشد في ظلّ فوضى اختلاط الواقع وسرعة تتابع أحداثه وتعدد مدخلاته وتداخل مؤثراته. ولن تجدي كل محاولات التجاهل لقضية الشباب ولن يستقر الأمر عبر التشكيك في منطلقاتهم ومحاولة وسمهم بالاتهامات المتنوعة إلى حد التناقض!

وعصا الترهيب الديني المصنوعة من التلاعب بالنصوص وإنزالها على غير مقصودها أصبحت هشة وتوشك أن تتحطم على «صخرة» إصرار الشباب أو على «جبل» معاناة البسطاء الذين أوشك رصيد مصداقية الدعاة لديهم على النفاد بسبب الإسراف المتهور في استخدامه عند كل عقبة سياسية. فالخطاب وحده لا يسمن ولا يغني من جوع، ولن يطعم الأفواه الجائعة في ظل اتساع «خرق» الفقر على «راقع» الجمعيات الخيرية.

واسمعوها من محب: هؤلاء الشباب هم قادة المرحلة القادمة، هؤلاء الشباب هم قادة المرحلة القادمة، هؤلاء الشباب هم قادة المرحلة القادمة، وهؤلاء الشباب لديهم قضية ولها خلفية متصلة بالقناعات، وسياق متصل بالمعاناة، وواقع متصل «بالغضب» الذي ما زال رصيد العقل فيه يحتفظ بالحد الأدنى الذي يسمح، حتى الآن، باعتباره رصيداً في «مصرف» قابلية التفاعل؛ فاحذروا نفاده لأنه إذا انتهى رصيد التفاعل فسوف يحل محله الانفعال المحض. ولن تستطيع كل إمكانياتكم استيعابه أو إيقافه ولن تغني عنكم كل الحسابات السياسية أو تحالفات المصالح الدولية.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا



يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[1].

والخلاصة:

كنا بالأمس نقول: عالجوا الأسباب التي أدت إلى عنف متطرفي الإسلاميين. واليوم نقول: عالجوا الأسباب التي أدت إلى عنف متطرفي الثوريين.

وكنا نُسأل في سياق الاتهام: هل هذا تبرير لأفعالهم؟! فنجيب: بل سعي عملي لإيقافها. وهو جواب اليوم عن نفس السؤال الذي سيتكرر، والسلام.

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.



(١) سورة النحل: ٩٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٢٨.

همسة في أُذن الشباب

[الأربعاء ٠٦/ ٠٢/ ٢٠١٣]

الحمد لله

مهما اتهموكم في دينكم وأخلاقكم، وفي إخلاصكم لقضيتكم. ومهما حاولوا تشويه صورتكم، وتاجروا بدمائكم أو جراحكم. ومهما تعاظمت آلامكم من الظلم الذي يواجهكم، واعترتكم الحيرة أو الغضب مما يجري، أنتم الأمل والغد لكم، وهذا الغد قادم لا محالة عن قريب.

فأحسنوا ولا تيأسوا، فإنّ تعنّت الظالم دليل ضعفه، وقسوة الجلاد علامة خوفه، وغلظة العبارة دليلٌ على ارتعاش يد من ينطق بها، وتناقض الاتهامات علامةٌ على فقد مصداقية من يوجهها.

اعقدوا آمالكم بالله تعالى عندما تشعرون بمرارة الخذلان ممن يحيط بكم، فلم يُظهر الله لكم توالي الخذلان منهم إلا ليُطهر قلوبكم من شوائب الاعتماد عليهم، ليَخلُص اعتمادكم عليه، ويَكْمُل



استنادكم إليه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1].

اطلبوا حقيقة التقوى حينما تشاهدون شطط من يستقوي عليكم بصورتها ومظهرها، فما قامت أمّة على صورة ولا استقام أمرها على مظهر.

تذوّقوا معنى إشارة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى صدره وهو يقول: «التقوى ههنا»[2]، لتُوقنوا بأن عماد الأمر هو القلب، وأن الأغصان المرتفعة نحو عنان السماء تستمد نضارتها فتزهر وتثمر بما تُمدها به جذورها الضاربة في باطن الأرض.

عيشوا سمو عبارة سيدنا المسيح عليه السلام عندما أجاب الذين كانوا يُفرغون أمراض نفوسهم بالمطالبة برجم المرأة الخاطئة قائلاً: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيئَةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَر»[3]، لتُدركوا ضحالة منطق من يرميكم بالتهم، فتتجاوزوا مستنقع التجني الآسن دون الخوض فيه مع الخائضين، وتكونوا ممن يرتقون في معارج نقد الذات إلى صفوف من يصطفيهم الله لإصلاح الفساد الذي ظهر في البر والبحر.

تأملوا عبارة نبي الله شعيب عندما اتهمه قومه بما ليس فيه واستخفّوا به لقلة عدد من معه ونظروا إليهم بعين الاحتقار ونعتوهم

---

(١) سورة الطلاق: ٣.

(٢) مسند أحمد رقم ٧٧١٣.

(٣) يوحنا ٨ الآية ٧.



بالأراذل، فأجابهم بسكينة الانكسار وصدق التواضع وعظمة التوكل على الله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]، فتطلبوا حقيقة التوفيق من اعتمادكم على الله في نجاح سعيكم وتحقيق آمالكم التي ناضلتم وضحيّتم من أجلها.

أكتب هذه الكلمات في وقت كثرت فيه السهام التي ترميكم، والتهم التي تكال لكم، وكثرت فيه الأصوات الطامحة في جني ثمار غرسكم، الذي سقيتموه بجهودكم، ودماء إخوتكم، ودموع أمهاتهم، وليس لدي ذرة شك في أن الأيام المقبلة ستكون لكم.

ولكن، احذروا الخطر الحقيقي، نعم أحبتي، الخطر الحقيقي. إذ ليس المقصود به ما يحيط بكم هذه الأيام من الأذى الظاهر على أيدي من يحاربونكم فهم أضعف من ذلك بكثير، لكنه خطر أهواء النفوس وأطماعها، فهو الداء الذي تنشط جراثيمه منذ اللحظة الأولى للنصر. ولا تستغربوا من الحديث عنه الآن، ولا تستخفّوا به، فقد كان عدد من جلّاديكم اليوم يعيشون بالأمس ما تعيشونه اليوم من معانٍ ومعاناة، ولكن إهمال التنبه لضرورة الاستعداد لهذا الخطر بالأمس، هو ما صنع بهم ما ترونه اليوم. وقد قال بعض السلف: ابتلينا بالهزيمة فثبتنا وابتلينا بالنصر فلم نثبت!

(١) سورة هود: ٨٨.


(٤)
مفاهيم



(٤)

مفاهيم

الإنسانية قبل التدين



[الأربعاء ٢٠/٠٢/٢٠١٣]

الحمد لله

جاء رجل إلى مكة في بداية البعثة وقد وصل إليه شيء من خبر النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ يبحث عنه فلما وجده باشره بالسؤال قائلاً:

ـ ما أنت؟

ـ رسول الله.

ـ ومن أرسلك؟

ـ الله عز وجل.

ـ بماذا أرسلك؟

ـ فأجابه النبي الكريم: «بأن تُوصلَ الأرحام، وتُحقن الدماء، وتُؤَمَّن السبل، وتُكسَّر الأوثان، ويُعبدَ الله وحده لا يُشرك به شيء».

ـ فقال الرجل: نِعم ما أرسلك به، وأُشهدك أني قد آمنت بك وصدقتك[1].

وهنا دروس عظيمة في حرص الرجل على التثبت والتأكد من الخبر بمباشرة التحقق من صاحبه قبل الحكم عليه وعدم الانصياع إلى الشائعات التي كانت تُطلق لتشويه الرسالة. ودروس في مباشرة السؤال ووضوحه والنظر في محتوى الرسالة قبل الحكم عليها. ودروس في سرعة الاستجابة للحق عند ظهوره وعدم التمسك بالموروث والسائد على نحو يحجب القلب والعقل عن تمييز الحق من الباطل.

غير أن الشاهد هنا يكمن في توصيف النبي للرسالة إذ فيه ما نحتاج إلى التوقف معه وتأمله والاستفادة منه في المرحلة التي نمر بها.

أصل الرسالة عقيدة التوحيد: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2]، ومع ذلك قدم النبي الكريم في تعريفه الرجل بما أرسله الله به ثلاثة أمور قبل أن يذكر له التوحيد ويطالبه به وهي:

(١) مسند أحمد رقم ١٧٠٥٧.
(٢) سورة الكهف: ١١٠.





١ ـ صلة الأرحام: الروابط الأسرية (الأمان المجتمعي)

٢ ـ حقن الدماء: قيمة الحياة (تأمين الحياة)

٣ ـ تأمين السبل: أي الطرقات (الأمن العام).

ثم ذكر تكسير الأوثان وعبادة الله وحده.

فالرجل جاء من بيئة تشكو من نتائج تفشي قطيعة الأرحام والاستهانة بالدماء وقطع الطريق وهذا الحال من فقد الإنسان لأوليات حق العيش الكريم وحرية الاختيار وتحقيق العدالة لا يمكن معه فقه عظمة الصلة بحقائق التوحيد الخالص أو تذوق حلاوة الإيمان بالله قبل أن يستقر في القلوب الإيمان بضرورة ترسيخ هذه المعاني.

وبدون «تأمين الحياة» و«الأمان المجتمعي» و«الأمن العام» لا تتشكل لدى الإنسان حرية الاختيار الناضج ومن ثمَّ لا يكون اختياره حقيقيًّا بل يكون أشبه بالاضطرار والإكراه المعنوي. وهذا الدين يقوم على أساس حرية الاختيار: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1]، وتقوم تكاليفه كذلك على أساس حرية الاختيار، فالمُكره تسقط عنه المؤاخذة.

بل إن العقل الذي هو مناط التكليف لا يستقل بالنظر في

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.



الأمور في ظل فقد الأمان فلا يكون اختياره حقيقيًّا ولا تنضج قراراته.

وأما القلب الذي هو بيت الإيمان ومستودعه فلا يجد طمأنينته في ظل غياب هذه التعاليم الفطرية الإنسانية الصحيحة، ومهما توهَّم صاحبُه رسوخَ إيمانه وهو غير مبالٍ بالروابط الإنسانية ولا بحرمة الدماء ولا بحق الأمان فلا يكون بناء الإيمان في قلبه إلا على شفا جرف يوشك أن ينهار عند أول هزة تحصل له.

فالإيمان يستقر في قلب الإنسان. تأملوا هذه العبارة جيداً: الإيمان يستقر في قلب الإنسان.

فبدون «قلب إنسان» لا يكون هناك استقرار حقيقي للإيمان مهما كانت صور العبادات التي يقوم بها ومهما قرأ من كلام الله تعالى ورتله. ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1]؛ وذلك لأن أثر القرآن يتوجه إلى القلب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2].

وهذا القلب الحي هو الذي يتفاعل مع ذكر الله بالطمأنينة

(١) سورة الحجرات: ١٤.

(٢) سورة ق: ٣٧.



﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ..﴾[1]، ويستشعر معاني الخشية والوجل ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾[2]، ويتعشق الطهارة من الغل والحقد ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ..﴾[3]، ويكون صاحبُه منسجمًا مع محيطه مؤتلفَ القلب صادق الأخوة متجاوزًا للعداوة ساميًّا بإيمانه عنها ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا..﴾[4].

ولهذا جعل الله أساس الكسب هو القلب ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ..﴾[5]، وجعل نظره تعالى إليه قبل نظره إلى العمل: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[6]، وربط تعظيم الشعائر برسوخ التقوى في القلب ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[7].

وعندما وصف الله تعالى أتباع السيد المسيح عليه السلام قدَّم وصف

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.

(٢) سورة الأنفال: .

(٣) سورة الحشر: ١٠.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٥) سورة البقرة: ٢٢٥.

(٦) صحيح مسلم، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه عرضه وماله.

(٧) سورة الحج: ٣٢.

قلوبهم على ذكر أفعالهم فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾(١).

فقدّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلة الأرحام وحقن الدماء وتأمين الطريق على ذكر التوحيد لأن الإخلال بها والتجرؤ على قطيعة الرحم وسفك الدماء والتعدي على من يسيرون في الطريق أفعال تضر قلوب مرتكبيها فيحيط بها الران ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢)، ويصيبها العمى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٣)، وتفقد التمييز والفهم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(٤)، وتغلفها القسوة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً..﴾(٥)، فيسهل على الإنسان الكذب ويصبح كلامه مخالفًا لحقيقة ما في قلبه ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ..﴾(٦)، ويسهل عليه أن يقول للناس ما يأباه قلبه ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ..﴾(٧)، دون أن يشمئز من المرض الذي

---

(١) سورة الحديد: ٢٧.

(٢) سورة المطففين: ١٤.

(٣) سورة الحج: ٤٦.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٥) سورة البقرة: ٧٤.

(٦) سورة آل عمران: ١٦٧.

(٧) سورة التوبة: ٨.



أصاب قلبه أو يخشى ازدياده بتماديه ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا..﴾[1]

وعندها يفقد إحساسه الإنساني بالخطأ ولا يزداد إلا تماديًا في الرذيلة وإن صلى وصام وقرأ القرآن ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ..﴾[2]؛ وقد حذر الله تعالى من هذه الحالة التي يقسو فيها القلب فلا يتحرك ولا يتأثر بالذكر ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ..﴾[3]، بل ربط سبب إصرار الكفار على الكفر بعد وضوح الحق لهم بما في قلوبهم من حمية جاهلية ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ..﴾[4]، ودعاهم إلى التطهر منها بالسير الآمن في الأرض كي تتنور قلوبهم فتتفكر وتعقل ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ..﴾[5].

نعم أحبتي، الإنسانية قبل التدين، ولا أقول قبل الدين. فالمرأة التي حبست هرة حتى الموت دخلت النار، والمومس التي سقت كلبًا غفر الله لها بالرحمة التي في قلبها، كما أخبر المعلم

---

(١) سورة البقرة: ١٠.

(٢) سورة التوبة: ١٢٥.

(٣) سورة الزمر: ٢٢.

(٤) سورة الفتح: ٢٦.

(٥) سورة الحج: ٤٦.



الأعظم والإنسان الكامل صلى الله عليه وآله وسلم.

لهذا فنحن بحاجة إلى استعادة إنسانيتنا حتى يصح تديننا، وبحاجة إلى أن يتوجه تديننا إلى إحياء قلوبنا لتنتعش آدميتنا وتستيقظ إنسانيتنا فتخلع عنها الاغترار وتأوي إلى رحاب الله وحده لا شريك له، فتخلع عنها شرك «الأنا»، وشرك الطمع، وشرك الرياء والسمعة، وشرك حب المكانة والشهرة؛ وتتلقى حقيقة العلم الأقدس: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾[1].

اللهم ثبت علم لا إله إلا الله في قلوبنا واغفر لنا ذنوبنا وللمؤمنين والمؤمنات.



(١) سورة محمد: ١٩.



عن (الآخر)، مفهوم آخر

[الأحد ٢٠/٠٢/٢٠١٣]

الحمد لله

كثيرًا ما نسمع ونقرأ عن «الآخر»، إقصاء الآخر، التعايش مع الآخر، الاستفادة من الشراكة مع الآخر، التماهي والذوبان في الآخر.

وتحدَّد هُوية الآخر بالدين أو الثقافة أو البلد أو الانتماء السياسي أو حتى الجنس. وترتبط نظرة التعامل مع الآخر بمستوى الثقافة أو الأخلاق أو القيم أو حتى المنطلق الديني.

ولكن، هناك آخر عميق خطير، كثيرًا ما نغفل عنه وعن تقييم منطلقات التعامل معه، ألا وهو هوى النفس الأمارة بالسوء، نعم «هوى النفس» فهو «آخر» يعمل فينا، يقابله في كل منا صفته الإنسانية التي تعمل فيها منظومة معتقداته ومفاهيمه وقيمه التي ارتضاها؛ ثم تصطدم بهوى نفسه، وعندها تبدأ المعركة. فمِنّا



المقصَى ومنا المتعايش المستفيد من الشراكة ومنا المتماهي مع هذا الآخر.

وللمزيد من التوضيح للمقصود هنا يُقال:

الإنسان مركب من روح ذات نزعة قدسية، وعقل يفكر ويُشير إذا استُشير، وقلب يقرر، ونفس تهوى، وجسد يحمل كل هذا المكون. وإنّ للجسد حاجاته كما هو شأن الروح فلها أيضًا حاجاتها. وللنفس متطلباتها وأهواؤها التي كثيرًا ما تتجاوز الاحتياج إلى الرغبة والتطلع.

لكن الأصل والحكمة من وجود هذا الهوى المتطلِّب هو إيجاد الهمّة والطاقة الدافعة إلى القيام بتوفير الحاجة والحماية.

فغريزة الجوع كي تنتهض بصاحبها فيطلب الغذاء لهذا الإنسان فتستمر حياته؛ وغريزة الجنس كي تنتهض الرغبة بصاحبها فيطلب الإلف ليسكن إليه الإنسان بالمودة والرحمة فيستمر نسله؛ وغريزة الغضب كي تنهض الشجاعة بصاحبها فيستخدم إمكانياته لحماية هذا الإنسان وحماية قيمه وحماية ممتلكاته.

وإذا تجاوزت هذه الغرائز حدّها تجاوزت حقّها، وانحرفت بمسار الإنسان، وهذا ما يحدث مع غالب البشر؛ حيث تتجاوز غريزة الجوع حدها لتتحول إلى حالة التشهّي الذي يجعل التلذذ بالطعام غاية



وليس وسيلة، فينحرف عن مقصود بقاء الإنسان ويُفرِط في تناول الطعام إلى حد التخمة المسببة للأمراض، ويفرط في تشهّي أنواع الأطعمة التي تزدهر تجارتها إلى حد الإخلال بالتوازن الغذائي على هذا الكوكب، فتظهر مشكلة المجاعات وتسخير أطفال الفقراء، في بعض مزارع الكاكاو مثلاً، وغيرها من أنواع الإضرار بالإنسان.

وتتجاوز غريزة الجنس حدها لتتحول إلى حالة هوس جنسي يجعل التلذذ الجنسي غاية وليس وسيلة، فينحرف عن مقصود بقاء النسل، ويهدد وجود الأسرة أو استقرارها، ويعصف بالأمن المجتمعي، ويظهر الاتجار بالبشر والرقيق الأبيض وغير ذلك من الآفات التي تضر بالإنسان.

وتتجاوز غريزة الغضب حدها لتتحول إلى هوى التجبر والتسلط والانتقام والاستبداد مما يجعل التملك غاية وليس وسيلة، فينحرف عن مقصود حماية النفس والقيم والممتلكات، ويهدد وجود الإنسان ويعصف بأمنه وأمانه وإيمانه، وتظهر الحروب ويفشو الاستبداد والظلم والقهر، وينتشر الكذب والغش والخداع، وتُستباح الأنفس والدماء والأعراض والأوطان، ويحصل الإضرار بالبيئة وتهديد التوازن في الكوكب الذي استخلف الله عليه هذا الإنسان.

وفي كل مرة يجد هوى النفس ما يبرر ذلك كله لصاحبه أو لمحيطه بالتلبيس والخداع واستخدام الشعارات الوطنية والدينية بل



وحتى الإنسانية، وأي ضرر أكبر من هذا يمكن أن يلحق بالإنسان؟

وهنا يظهر أن لدى كل واحد منا «آخر» في تكوينه هو، يحتاج إلى رؤية واضحة وعزيمة أكيدة للتعامل معه.

وعند تأمل المطروح اليوم في الثقافة الإنسانية والتجربة البشرية من أنماط التعامل مع «الآخر» نجد أن الإقصاء يكاد يكون متعذرًا، فكيف يقصي الإنسان هوى نفسه وهو جزء لا ينفصل عن تكوينه؟

كما أن التماهي مع هذا «الآخر» قد تسبب في استيلائه على إنسانية الإنسان وتحويله إلى عبد لرغباته ومنفذ خاضع لسياساته ومحامٍ مستميت في الدفاع عنه والتبرير لتصرفاته، إلى حد تمرد فيه على القوانين الكونية وانخلع عن الشرائع السماوية ونازع مقام الألوهية وأراد أن يكون هو «وحده» القاضي والمدّعي والمدّعى له وعليه.

وأما التعايش والشراكة فهما مبهمان في حال افتقاد رؤية واضحة وخطة محكمة ومعايير للتقييم تتصف بالحياد.

وهنا تأتي حاجة الإنسان إلى التوجيه الإلهي المنزَّه عن التحيز والميل والمصلحة والحاجة والرغبة والخوف، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

---

(١) سورة فاطر: ١٥.





وهنا تظهر جليًا معاناة الإنسان و«كدحه» مع نفسه لتعترف بمدى حاجته إلى «رب» يُبصره بمسلك الرشد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1].

وهنا يلوح معنى الشقاء الذي يلحق بالإنسان حال إعراضه عن ذكر ربه ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾[2].

ولم يعد هنا حجاب يحول بين الإنسان والاعتراف بهذا المعنى ليسارع إلى رحاب الله سوى «إماطة أذى» من يدّعون تمثيل الرب عن طريقه، فقد شوّش قبح خطابهم الصادر عن تماهي كلٍ منهم في «الآخر» الخاص به رؤية الإنسانية لسلامة هذا الطريق.

وعَودًا إلى الحديث عن المنهج الرباني للتعامل مع هذا الآخر الخطير، نجد أن الله قد أخبرنا بأن هذا الآخر على الرغم من الانحراف الذي أصابه غير أنه قابل للمعالجة، وأنَّ له مراتب في الترقي، إن دفعناه إليها «بالتي هي أحسن» تحوَّل من «آخر» خطير إلى «ولي حميم» يمكن التعاون معه في مسيرة الحياة.

وبداية هذا الطريق الاعتراف بأن هذا «الآخر» لديه مشكلة، وهي سوء ما يأمر به ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[3].

---

(١) سورة الانشقاق: ٦.

(٢) سورة طه: ١٢٤.

(٣) سورة يوسف: ٥٣.



غير أنه قابل للارتقاء «بالتزكية» لتصبح لديه صفة العتاب واللوم على الخطأ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1]، ثم يرتقي إلى حالة الإلهام التي تزيل التباس الفجور بالتقوى ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾[2]، ثم يطمئن في سيره إلى الله مسلّماً زمامه إليه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾[3]، فيعرج به التسليم إلى حضرة الرضا ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾[4] بمرتبتي الرضا بالله والرضوان من الله ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[5] ليستقبل مرتبة الكمال بمفهومه الإنساني.

هذه رؤية للتعامل مع خطر «الآخر»، وهو منهج غاب عن الطرح العام لعقود وربما أكثر من ذلك، فكان الحصاد مُرًّا، فهل نعود إلى زرع ما يطيب حصاده؟

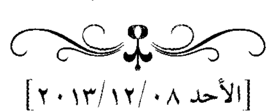
﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[6].

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها.



(١) سورة القيامة: ٢.
(٢) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.
(٣) سورة الفجر: ٢٧.
(٤) سورة الفجر: ٢٨.
(٥) سورة التوبة: ٧٢.
(٦) سورة الشمس: ٩ ـ ١٠.

لماذا «مانديلا» ؟



[الأحد ٠٨/١٢/٢٠١٣]

الحمد لله

لا تقتصر القِيَم التي أحياها «مانديلا» على قيمة نضاله ضد العنصريين، فقد سبقه إلى ذلك في جنوب أفريقيا الشيخ المناضل «عبد الله هارون» الذي مات تحت سياط التعذيب في السجن.

لكن القيمة العظيمة التي أحياها «مانديلا» هي أنه علّم شعبه، بل أعطى درسًا للعالم المعاصر في كيفية تعامل المنتصر مع من عذّبوه واعتدوا عليه بالعفو والسماحة، وكيف يتجاوز القائد بشعبه مضيق التوقف عند الماضي ليَبني معهم المستقبل.

بينما نسينا «نحن» قول سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يوم انتصاره لكُفّار قريش الذين آذوه وعذبوا أصحابه: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1] فكان ذلك سببًا في دخولهم الإسلام وإسهامهم في نشر قِيَمه السامية في أرجاء العالم.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة، ونصّ الحافظ ابن حجر على تحسينه في الفتح.



* مانديلا عاش مفهوم «عالمية الإنسانية» وجدّده في عصرنا، فلم يقتصر على التفاعل مع قضية شعبه، بل استشعر آلام المظلومين في الأرض دون أن يُفرق بينهم على أساس ألوانهم أو عناصرهم أو بلدانهم أو أديانهم، فدعم القضية الفلسطينية في المجتمع الدولي وقارن بين نضال الفلسطينيين ونضال السود في جنوب أفريقيا؛ كما استصدر بيانًا من مجلس حكماء العالم يدين فيه حصار غزة، ووصف هجوم الكيان الصهيوني على سفينة السلام المتوجّهة إلى غزّة بأنه لا يُغتفر أبدًا؛ وعمل على وأد فتنة بوروندي والحرب القبلية التي ذهب ضحيتها أعداد هائلة من البشر، فنجح في إجراء المصالحة بين الأطراف المتصارعة فيها؛ ووقف ضد احتلال أمريكا للعراق وهاجم بوش الابن على الرغم من أن الأخير كان قد كرّم مانديلا بوسام الحرية الرئاسي في نفس العام، فاتّهم بوش بأنه يريد أن يُغرِق العالم في هولوكوست جديد، وأنه ذاهب إلى العراق من أجل النفط، وذكّره بانتهاكات أمريكا القديمة لحقوق الإنسان بإلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناغاساكي.

ونسينا «نحن» أن سيدنا محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم وقف لجنازة يهودي، ورد على من قال له: «إنّه يهودي» بقوله: «أليست نفْسًا» ؟[1]

وأنه صلى الله عليه وآله وسلم أثنى على حِلف الفُضول وهو حلفٌ عُقِد في

---

(١) البخاري ومسلم.





الجاهلية لنصرة المظلوم فقال: «لقد شهدتُ مع عمومتي حِلفًا في دار عبد الله بن جدعان ما أُحب أنّ لي به حُمر النَعَم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[1].

* مانديلا حارب العنصرية باعتبارها رذيلة ولم يجعل حربه مقتصرة على عنصرية البيض بل رفض أن يُقابل السود هذه الرذيلة بمثلها تجاه البيض فقال: «طوال حياتي وهبت نفسي لصراع الأفارقة وحاربت ضد هيمنة ذوي البشرة البيضاء، وضد هيمنة ذوي البشرة السوداء أيضًا، وقد قدّرت فكرة الديمقراطية وحرية المجتمع حيث تعيش البشرية في تناغم ومساواة في الحقوق، وهي مبادئ أتمنى الحياة من أجلها، ولكن لو كانت إرادة الله فأنا مستعد أن أموت من أجلها».

ونسينا «نحن» أن سيدنا محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم رفض أن نجعل من ظُلم الآخرين لنا مُبرّرًا للاعتداء على أبناء عرقهم أو دينهم فلم يجعل من خيانة يهود بني قينقاع وبني النضير ويهود خيبر مُبرّرًا للاعتداء على كل يهودي في المدينة فتوفي صلى الله عليه وآله وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي مقابل طعام اشتراه منه[2]، فلم يُقاطعه ولم يستحلّ ماله بتبرير أن أبناء عرقه ودينه قد اعتدوا وخانوا

(١) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد وغيرهما.
(٢) رواه البخاري ومسلم.



* مانديلا أدرك أن الكراهية والبغضاء والعنصرية هي التي تسبّبت في سجنه ٢٧ سنة فقرر أن يتخذها عدوًا لدُودًا عِوضًا عن أن يجعل حربه دائمة مع الذين ابتُلوا بها وتسببوا في نشرها، بمعنى أنه قرّر أن تكون حربه على المرض وليست على المريض، فقال: «عند خروجي من السجن أدركت أنّي إن لم أترك كراهيتي خلفي فإنني سأظل سجينا»، وقال: «كنت على علمٍ بأن الناس يتوقعون منّي شعورًا بالحَنَق تجاه البيض، لكنني لم أكن أحمل ضغينة نحوهم إطلاقًا. لقد خفّ حنقي تجاه البيض داخل السجن، ولكن بُغضي للنظام العنصري تضاعف. كنت حريصًا أن تَعْلَم جنوب أفريقيا أنني أحب حتى أعدائي مع كراهيتي للنظام الذي خلق تلك العداوة بيننا».

ونسينا «نحن» أن سيدنا محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم حذّرنا من البغضاء وسماها «داء الأمم» فقال: «دَبّ إليكم داءُ الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر»[1]. كما نسينا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «صِلْ من قطعك وأعطِ من حرمك واعفُ عمن ظلمك»[2].

* مانديلا أدرك أهمية صلاح القلب، وأنّ العقل وحده لا

(١) حديث حسن لغيره رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن عبد البر في التمهيد.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده.



يكفي لإدارة شؤون الحياة إذا كان القلب فاسدًا، ففساد القلب يُحوِّل قوة العقل إلى أداة فساد في الأرض فقال: «العقل الصالح والقلب الصالح توليفة هائلة دائمًا».

ونسينا «نحن» قول سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا وإنَّ في الجسد مُضغة إذا صلحت صلُح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

* مانديلا كان أول بيت يدخله بعد أن أمضى ٢٧ سنة في السجن هو بيت صديقه «المسلم» وزميله في النضال ومحاميه المدافع عنه دولّه عمر فلم يكن ليجعل من انتصاره وشهرته مبررًا لتبنّي التعالي على الآخر والمكسو بثوب التديّن الزائف.

ونسينا «نحن» أنّ سيدنا محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم تذكّر عقب انتصاره في غزوة بدر رجلاً لم يدخل الإسلام لكنّه دافع عنه يوم عودته من الطائف وتبنّى حمايته من بطش الكفّار وذكر أنه لو كان حيًا وتشفّع في أسرى الكفّار لقبل ذلك منه وأطلق سراحهم إكرامًا له(٢).

كما نسينا أنَّ حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظم

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) السيرة النبوية للحافظ ابن كثير.

أبياتًا في رثاء «الكافر» مطعم بن عدي ومدحه فيها مدحًا عظيمًا[1].

* مانديلا قاتل مَن قاتلوه واعتدوا على شعبه بالقتل والاستعباد والتمييز العنصري، وشق طريقه عبر النضال المسلّح عندما اضطُر إليه، لكنّه لم يجعل من القتل وسفك الدماء منهجًا ثابتًا للنضال، بل صرّح بعد خروجه من السجن بأنّه مستمرٌ في النضال المسلّح لأن أسبابه لم تنته، لكنّه أكد بأنه لجأ إلى النضال المسلّح لكونه هو الوسيلة الوحيدة المتاحة أمامه لدفع العنصريين إلى التوقف عن القتل، وأنه بمجرّد قبول النظام العنصري للمفاوضات السلمية سيوقف القتال، وهذا ما التزم بتطبيقه، فقاوم نزعة الانتقام وواجه بحزم شديد عمليات العنف فقال: «مالم تواجَه ظاهرة العنف مواجهة حازمة وحاسمة فإنّ الأمل في إحراز أي تقدم نحو نظام سياسي جديد سوف يظل مهزوزًا».

ونسينا «نحن» أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم سارع إلى قبول صلح الحديبية على الرغم من شروطه الظالمة، لأنه سوف ينقل

---

(١) سيرة ابن هشام، والأبيات هي:

أجرتَ رسولَ اللهِ منهم فأصبحوا ... عبادك ما لَبَّى مُحلٌّ وأحرما
فلو سُئِلت عنه مَعْدٌ بأسرِها ... وقحطان أو باقي بقيّةَ جُرهُما
لقالوا هو المُوفِي بِخَفْرَةِ جارِهِ ... وذِمَّتَهُ يومًا إذا ما تجَشّما
وما تطلعُ الشمسُ المنيرة فوقَهم ... على مِثلِهِ فِيهم أعزَّ وأكرما
إباءٌ إذا يأبى وألينَ شِيمَةً ... وأنومُ عن جارٍ إذا اللّيلُ أظلما

الصراع من مرحلة العنف المسلّح إلى مرحلة الدعوة السلمية في حال التزام كفّار قريش ببنوده، وواجه بحزم من لم يتقبّلوا هذا الصلح من أصحابه رضي الله عنهم.

كما نسينا أنه صلى الله عليه وآله وسلم أصدر عفوًا عن المجرمين الذين أهدر دمهم ولو تعلّقوا بأستار الكعبة بمجرد أن تمكّن من فتح مكة وانتهت فرصتهم في جرّ قومهم إلى مواجهات دامية، ولم يكن قد قُتِل منهم إلا ثلاثة، فكان ممن عفا عنهم عكرمة بن أبي جهل، فرحب النبي به، ونهى المسلمين عن ذكر أبيه بسوء رعاية لمشاعره، مع أن أباه كان أشد الناس عداوة للنبي وأكثرهم تحريضًا على قتال المسلمين.

لأجل هذه القيم وأمثالها احترم العالم «مانديلا» وتأثروا به حيًا وميتًا، وبها وحدها يمكن أن يكون لنا دَورٌ حقيقي في نفع البشرية جمعاء، وبها ننال رضوان الله، وتقرّ بنا عين حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبدونها لن تكون لنا قيمة في الدنيا ولا منزلة رفيعة في الآخرة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١).

اللهم اهدنا إلى مكارم الأخلاق ورُدّنا إلى هدي حبيبك المصطفى مَرَدًّا جميلاً، يا هادي يا رشيد.

---

(١) سورة القلم: ٤.



حِلف الفُضول، وتناغم النشاز



[الأربعاء ١٧/ ٠٣/ ٢٠١٣]

الحمد لله

دخل رجل من اليمن مكة معتمرًا ومتاجرًا قبل بعثة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وباع بضاعة لأحد وجهاء مكة فاستضعفه ولم يعطه حقّه، فاستغاث اليمني ببعض أعيان مكة من بني عبد الدار فلم ينصفوه بل زجروه لأنه ضعيف يُطالب وجيهًا قويًا بحقه. فما كان منه إلا أن صعد على جبل أبي قُبيس في الصباح واستصرخ مروءة قريش بهذه الأبيات:

يـا للرجـال لمظلـومٍ بضـاعته ... بـبطن مكّـة نـائي الـدار والنفَـرِ
ومحرمٍ أشعث لم يقض عمرتـه ... يا للرجال وبين الحِجر والحَجرِ
إنّ الحـرام لمـن تمّـت كرامتـه ... ولا حـرام لثـوب الفـاجر الغـدِرِ

فتحركت نخوة الزبير بن عبد المطلب عمّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجَمَعَ بعض فخائذ قبيلة قريش المعروفة بالمروءة وهم بنو هاشم

فخيذة النبي وبنو المطلب أبناء عمومتهم وبنو زُهرة فخيذة السيدة آمنة وبنو أسد بن عبد العُزى فخيذة السيدة خديجة وبنو تَيم بن مرة فخيذة أبي بكر الصديق في بيت عبد الله بن جدعان.

وتعاهدوا على نصرة المظلوم على الظالم أيًا كان وأقسموا على الوفاء بالعهد ما بلّ بحرٌ صوفة وما ثبت حراء [غار] وثُبير [جبل]. وأرغموا الرجل الوجيه على أن يدفع للرجل اليمني حقّه فأنشد الزُبير بن عبد المطلب قائلاً:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالمُ

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمُعتر فيهم سالمُ

وذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحلف بعد هجرته إلى المدينة وارتفاع شأن دعوته الشريفة فقال: «لقد شهدت مع عمومتي حلفًا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حُمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» (ما أُحب أن لي به حُمر النعم: لا أرضى أن يكون لي بديلا عن حضوره أغلى كنوز العرب وهي الإبل أو الجِمال محمرة اللون).

ولم يتذكر النبي الكريم هذا الحلف مُبديًا استعداده للدخول في مثله بعد الإسلام عبثًا، بل إن فيه دروسًا لنا من بعده حتى نُعلي من شأن الروابط الإنسانية التي تُمجد القِيَم فتنتصر للمظلوم على الظالم



وتُحق الحق ولو على من تجمعنا بهم صلة رحم أو جنسية وطن أو اتفاق فكر أو حتى وحدة دين.

وفي عصرنا الذي طغت فيه العصبيات والانتماءات الضيقة وسادت فيه لغة الاستقواء بالمال والأتباع تجدنا أحوج ما نكون إلى استحضار هذا المعنى كي نتحالف مع أصحاب المبادئ الراقية والقيم السامية أيا كانت أجناسهم أو لغاتهم أو ديانتهم أو أفكارهم.

فعندما نجد من يُبرر قتل الأبرياء في فلسطين وسورية والعراق وبورما وغيرها أو يغض الطرف عن ذلك رضا بهذه الجرائم ونجد في المقابل من يُبرر قتل الأبرياء في بُرجي نيويورك أو قطارات لندن أو سينما موسكو أو نجد من يستثقل إنكارنا لهذه الجرائم نُدرك أن كِلا الفريقين لا يختلف بعضهما عن بعض سوى في الواجهة الخارجية للخطاب.

نعم أحبتي وعندما نستمع إلى «تناغم النشاز» بين أصحاب العصبيات العنصرية أو الفكرية أو الدينية فيصفق بعضُنا فرحا وشماتة بقتل الأبرياء في سباق «ماراثون بوسطن» ليعزف على نغمتهم العنصري، «ايريك فوكس» الكاتب والمحلل السياسي بقناة «فوكس نيوز»، فيتّهم المسلمين قبل ظهور نتائج التحقيقات ويكتب في تويتر مُحرضاً على الإبادة الجماعية بالمنطق النازي: «نعم، نتّهم المسلمين، دعونا نقتلهم جميعًا»



ندرك حينئذ أن «تناغم النشاز» هذا لا يخمد حرائقه التي تشتعل كل يوم إلا تحالفٌ إنساني يُشاركنا فيه «أُولو بقية» من القيم والفضائل أمثال العشرات الذين علّقوا على «إيريك فوكس» باشمئزاز ورفض لمستوى تفكيره العنصري وهم أولئك الذين يُمجّدون «مالكوم إكس» و«مارتن لوثر كينج» أو من نوعية «ميتشل كوري» تلك الفتاة الأمريكية الشجاعة التي دفعت حياتها ثمنًا لموقفها في التصدي لجرافات المحتل الصهيوني الذي أراد هدم بيوت الفلسطينيين،

أو د. داليا وصفي تلك الأمريكية من أب مسلم وأم يهودية التي وقفت في أمريكا تناضل ضد استبداد اليمين المتطرف وشركات البترول والسلاح الكبرى التي زجت بالشباب الأمريكي في حرب العراق. وغيرهم كُثر من أصحاب المبادئ والقيم الإنسانية كالذين سعوا إلى مبادرات المصالحة بين قبيلتي «هوتو» و«توتسي» بعد أن قضت الإبادة الجماعية على نحو مليون فرد منهما.

وحتى نصل إلى هذا المطلب الإنساني علينا أن نراجع مفاهيمنا الدينية والقومية والوطنية ليقوم كل منا بتصفية أفكاره وتصحيح مفاهيمه. وقبل ذلك نحتاج إلى أن يقف كل منا مع نفسه وقفة صادقة في ساعة قدسية شريفة ليواجهها بعيوبها وأنانيتها المظلمة.

نعم إخوتي، فإن منّا من بلغت أنانيته إلى حد السماح لنفسه



بادّعاء العمل الإنساني المشترك وهو يهمس لأتباعه بأن ذلك ما هو إلا وسيلة تتناسب مع الأسلوب المعاصر لنصرة قضيتهم دون أي مبالاة أو اهتمام بقضايا الآخرين.

هذه الانتهازية الأنانية ينبغي أن نتخلص منها بصدق، فالمسلم الحقيقي هو من يناصر المظلوم ولو لم يكن على دينه أو طائفته أو طبقته أو حزبه أو جماعته أو جبهته.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» [وحاشاها]، رواه البخاري ومسلم(١).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(٢).

اللهم ألهمنا من الرشد ما نصدق به في خدمة الحق، يا حق يا مبين.

---

(١) صحيح البخاري في حديث الغار، صحيح مسلم باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود.

(٢) سورة هود: ١١٥ ـ ١١٦.

حرب الفِجار

[الأحد ٠٢/٠٦/٢٠١٣]

الحمد لله

عرفت العرب في الجاهلية حروبًا شنيعة مثل «حرب الفِجار» بين كنانة وهوازن، و«داحس والغبراء» بين ذبيان وعبس، و«البسوس» بين تغلب وبني شيبان، فكان القاسم المشترك بين حرب «الفِجار» و«داحس والغبراء» هو التنافس على حماية قوافل مَلك الحيرة «مصالحه الاقتصادية»، والمشترك بين «البسوس» و«داحس والغبراء» أن بدايتها كانت بصيحات الشرف بعد التعدي على النوق والخيل استجابة لدواعي الكِبر والعصبية؛ والمشترك بينها جميعًا غلبة العصبية وطلب الانتقام مع عدم الاستماع إلى نداء العقل والمروءة مدة الحرب التي تجاوزت الأربعة أعوام في «الفِجار» والأربعين عامًا في «البسوس» و«داحس والغبراء»، ثم انتهت بعد أن أرهقت نتائج هذه الحروب جميع الأطراف فنادى أصحاب المروءة بالصلح فاستجاب الناس لندائهم.

وكانت القصائد والمعلَّقات «وسائل الإعلام في العصر الجاهلي» تُفاخر أثناء هذه الحروب بالقتل وإراقة الدماء وتحرض عليها، كمثل قول عنترة بن شداد العبسي في مُعلقته:

ومُدَّجِجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَهُ ... لا مُمْعنٍ هَرَبًا ولا مُسْتَسْلِمِ
جَادَتْ لهُ كَفِّي بِعاجِلِ طَعْنةٍ ... بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ

ثم تحولت القصائد بعد انتهاء الحرب إلى تخليد لذكر الرجال الذين سعوا في الصلح والثناء عليهم كمثل قول زهير بن أبي سلمى مادحًا الرجلين اللذين سعيا في إنهاء حرب «داحس والغبراء» في معلقته:

يَمِينًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيْلٍ وَمُبْرَمِ
تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا ... تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ

وسُمّيت حرب الفِجار بهذا الاسم لأنها انتهكت ما كان متعارفًا عليه من حرمة الزمان «الأشهر الحرم» وحرمة المكان «الحرم المكي»، وكانت بدايتها على يد رجل من كنانة خلعته قبيلته وتبرأت منه، فلما أهانه سيد من سادات هوازن أمام ملك الحيرة وأخذ منه رعاية المصالح التجارية لهذا الملك في الجزيرة العربية تربص به وقتله، فخرجت قبائل هوازن في طلب الثأر من قبائل كنانة فعرضت عليهم كنانة دفع الدية مع تذكيرهم بأن القاتل خليع من قبيلته، فلا

يُطلب منها دم تعدى بإراقته، ولن تطالب هي بدمه إن قُتِل، غير أن هوازن أصرّت على القتال فكانت الحرب المذكورة.

وعند تأمل حروب المنطقة منذ عهد صدام إلى اليوم نجد أنّ ثمّة عوامل مشتركة بينها وبين تلك الحروب. وإذا كانت هذه العوامل قد أطلقت شرارة الحروب الجاهلية ثم تسببت في استمراريتها فقد غلب عليها في الحروب المعاصرة التأثير البالغ على مسار الأحداث وتغذية استمرار اشتعالها، أما العنصر الأساسي لاشتعالها فهو مظلمة الشعوب المتراكمة وجرائم الأنظمة المتعاظمة، التي بلغت ذروتها في أحداث ليبيا وسورية.

ومن هذه العوامل المشتركة بين حروب الأمس وحروب اليوم نلحظ النقاط التالية:

* نشبت حرب «البسوس» وحرب «داحس والغبراء» بسبب مصالح مملكة الحيرة التي لا تنتمي إلى القبائل المتصارعة ولم تتكبد خسائر بشرية في القتال، وهذا ملاحظ في ابتداء معارك صدام مع نظام ولاية الفقيه العامة في إيران، وفي توجيه مسار الأحداث في كل من ليبيا وسورية فقد أثّرت في توجيه مسارها المصالح الاقتصادية والسياسية لدول الشرق والغرب تأثيرًا بالغًا.

* كما أنّ حرب الفجار لم تُراعِ أيًا من حُرمات الزمان

والمكان ؛ فقد لوحظ في القتل الذي مورس في كل من ليبيا وسورية أنه لم تُراعَ فيه حرمة لشهر رمضان والأشهر الحرم ولا لبيوت الله فقد قُتل مصلّون وقُصفت مآذن ودُكّت مساجد بل زاد هتك الحرمات عن تلك الحرب بقتل الأطفال والنساء والتعدي على الأعراض بالاغتصاب!

والعنصر المشترك الأخطر هو:

* أن الحروب الجاهلية نشبت على أرضية العصبية القبلية وغذى استمرارُ تغني الشعراء بأمجادها ومخازيها استمرارها مدة طويلة، وهو ما يسببه اليوم دخول نعرة العصبية الطائفية على خط التوجيه لمسار الأزمة السورية بشكل يُهدد باشتعالها في المنطقة كلها، وهذه النعرة تكاد تستولي على موقف «حزب الله» ومتطرفي شيعة العراق ودعاة الثورة الإيرانية بأساليب الحشد الداخلي للمقاتلين وشعارات تعبئتهم وكأن الشعب السوري هو من قتل سيدنا الحسين عليه السلام!

ثمّ إنّ هذه النعرة أدلى بشكل جزئي دلوه فيها غلاة السلفية بالحديث عن الانتصار للشيخين ولسيدتنا عائشة رضي الله عنهم بتكفير الشيعة واتهامهم بالخيانة عبر استدعاء المواقف التاريخية كالموقف المنسوب لابن العلقمي، مع أخذ هذا التحريض رواجًا إعلاميًا في





الحشد الطائفي للقتال.

ومع أنّ النعرة الطائفية غير موجودة لدى أكثرية الشعب السوري الذي رحب بالنازحين اللبنانيين (شيعة وسنة على حدٍّ سواء) إبّان حرب ٢٠٠٦ وعاملوهم معاملة الأخ لأخيه غير أنّ شِدّة وطأة البطش الذي مارسه النظام ضد عموم الشعب حمل الكثير من المكلومين على الاستجابة إلى المشاعر الطائفية.

وبالرغم من وجود أصوات شيعية تعلن رفضها لهذه التعبئة الطائفية غير أن هذه النعرة تحولت إلى ما يشبه الواقع المشتعل في الوسط السني في المنطقة ضد عموم الشيعة بعد مجاهرة الثوريين الإيرانيين وعناصر حزب الله المشاركين في القتال بالنعرة الطائفية في مواقع التواصل الاجتماعي وأدبيات التعبئة القتالية للعناصر المشاركة بإقحام شعار الدفاع عن مرقد سيدتنا زينب عليها السلام وصيحات «واحسيناه» واستغاثات «يا علي» أثناء القتال. وهكذا دارت رحى النعرة العصبية فأصبح كل تصرف يغذي النعرة لدى الطرف الآخر.

والمقصود من هذا الربط بين العصرين المتباعدين هو التنبّه إلى خطورة هذه العوامل، وخصوصًا أن نعرة العصبية الطائفية قد أخذت بعدًا خطيرًا بعد امتدادها من سورية إلى العراق ولبنان، وهي



تهدّد بأن تُشعِل البؤر المتوترة في شيعة السعودية والبحرين والكويت ولدى سنّة إيران؛ وهي أيضًا بمثابة صب الزيت على نار الاضطراب المتراكم بين السنّة والشيعة في كل من الهند وباكستان وطاجيكستان وأفغانستان،

وتكاد تتسبب بتفجير أزمات اليمن المعقدة المتراكمة، التي لا يتورع ساستها عن التلاعب بموروثها التاريخي العظيم من التعايش الراقي بين الشافعية والزيدية، ومسار تأزم الجنوبيين من تلاعب بعض السياسيين بقضيتهم ومحاولة هؤلاء الساسة تخويف دول الخليج من الوجود الإيراني في صفوف الجنوبيين وهو ما قد يدفع الجنوبيين بالفعل إلى الارتماء في أحضان إيران إذا لم يجدوا اهتمامًا جادًا من جيرانهم بمظلمتهم، لا سيّما والنظام الإيراني يعمل بجد واجتهاد على إيجاد موضع قدم له في الجنوب ابتداءً بتوفير الدعم الإعلامي والمالي، الذي يعقبه في العادة الاستقطاب الطائفي.

لهذا فإنّ التنبّه إلى خطورة هذه النعرة عامل أساسي في نجاح أيّ حل يُطرح لأيٍّ من هذه القضايا.

ونحن في حاجة ماسّة إلى نشر الوعي الذي يُفرّق بين الاختلاف الديني القائم على التعامل مع النصوص، والصراع السياسي الذي يستغل هذا الاختلاف بمكر ودهاء، وأحيانًا بغباء،

مما قد يؤدي إلى عواقب خطيرة.

على أنّه من الضرورة التفريق بين مرتكب الجريمة ومعتقده، سواء اتخذ من المعتقد ذريعة للوصول إلى الغرض السياسي، أم اتخذ من الظرف السياسي المأزوم فرصة لنشر توجهه العقدي.

وعلى المتصدرين للخطاب الإسلامي من الغالبية من أهل السنة أو الطائفة الشيعية أن يفقهوا جيدًا أن السكوت على تصاعد مثل هذه النعرة العصبية جريمة سوف تعود أضرارها على الأجيال المقبلة بتحميل الإسلام مسؤولية هذه الجرائم التي ترتكب باسمه، ولنا في عواقب الصراع الكاثوليكي البروتستانتي وتأثيره السلبي على إيمان الأوربيين عبرة فهل من معتبر؟

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[1].

اللهم إنّا نستعيذ بك من الشيطان ونزغه ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تصلح شؤوننا وتفرج همومنا، وأن تجمع قلوبنا عليك، يا حي يا قيوم.



(١) سورة الإسراء: ٥٣.



النبي والثروة



[الأربعاء ١٠/٠٤/٢٠١٣]

الحمد لله

كان لسيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم هدي في مفهوم الثروة يتلخص في النظر إلى الإنسان على أنه هو الثروة الحقيقية التي ينبغي أن تُستثمَر الثرواتُ الأخرى في بنائه.

فكان يستثمر ثروة الوقت في التعليم والتربية وربط القلوب بالله وحثّها على الإحسان في القول والفعل حتى أنفق عمره الشريف في بناء جيل الصحابة والرعيل الأول من آل البيت فكانوا يتواصلون مع يومياته في بيته ومسجده، وفي السوق والمزرعة، وفي السفر والحضر.

وتفاعل الصحابة مع هذا الأمر إلى حدٍّ بات يمسّ خصوصياته فأنزل الله آيات في سورة الحجرات تحفظ هذه الخصوصيات بتشريع الاستئذان قبل الدخول إلى حجرات النبي وعدم إطالة الجلوس بعد

تناول الطعام عنده والإنكار على من يناديه من وراء الحجرات أثناء وجوده مع أهل بيته مخترقًا بذلك حرمة هذه الخصوصية.

وكان يستثمر ثروة العقول في تعليم من يحيط بهم، حتى أنه جعل ضمن فداء أسرى غزوة بدر الكبرى أن يعلم الأسير عددًا من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة؛ وجاءت الأحاديث الشريفة التي تحث على العلم وتُعظم ثواب من طلبه ومن بذله، وصحّت أحاديث تُخبر عن تعظيم العوالم المحيطة بنا لمن يُعلّم العلم ومن يتعلمه، فالملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع والمخلوقات في السماء والأرض تُصلي على مُعلّم الناس الخير وكلها يستغفر لطالب العلم حتى الحيتان في البحر والطير في السماء.

وكان يستثمر ثروة جاهه ومكانته بين الناس في تصحيح مسار التعامل مع كرامة الإنسان فبدأ بإسقاط حق الدم المتعلق بثأر ابن عمه أولاً ليعلن القضاء على مسلسل الثأر الجاهلي حفاظًا على حياة الإنسان. وبدأ بإسقاط الأرباح الربوية الجاهلية التي كانت لعمه العباس قبل أن يعلن إسقاطه لسائر الاستحقاقات الربوية التي كانت في الجاهلية حماية للفقراء من استغلال رؤوس الأموال الكبيرة لحاجتهم.

وكان يستثمر ثروة ولاء المؤمنين له بالسمع والطاعة في ترتيب



مفاهيم الأولويات في البنية العقلية للإنسان المسلم، فنهاهم عن تعنيف الأعرابي الذي يرتكب منكر «البول» في المسجد حتى لا يتسبب التعنيف الجماعي في ترويعه مما قد يصيبه بمرض احتباس البول وقال لهم: «لا تزرموه»[1]، وفي رواية «لا تقطعوا على الرجل بوله»[2]، وتركه يكمل فعلته المنكرة الملوثة لبيت الله حفاظًا على صحته الجسدية والنفسية، ثم أقبل عليه يعلمه برفق ضرورة رعاية حرمة المسجد وقدسيته، وأمر أصحابه بغسل المكان وتطهيره بالماء ليؤسس للقاعدة التي عبر عنها شيخنا العلامة علي جمعة بقوله: «الساجد قبل المساجد والإنسان قبل البنيان».

واستثمر ثروة المال في بناء الإنسان وابتدأ بنفسه فكان ينفق كل ما يرد عليه من مال خاص وعام على حاجات الفرد والمجتمع ولم يقبل أن يدّخر شيئًا من ذلك. حتى أنه خرج من المسجد بعد إقامة الصلاة ثم عاد وصلى بالناس وعندما سألوه عن خروجه المفاجئ أخبرهم بأنه تذكر أن بعض الدراهم كانت في بيته فأنفقها قبل أن يقف بين يدي الله تعالى.

وحينما كان يستعد للقاء الله تذكر وهو في سكرات الموت أن

---

(١) صحيح البخاري باب الرفق في الأمر كله، صحيح مسلم باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد.

(٢) المعجم الكبير رقم ١١٥٥٢.





بعض الدنانير بقيت في بيته فأمر بإنفاقها. وأوصى أن يكون ماله الخاص صدقة جارية من بعده على اعتبار أن الأنبياء لا يورثون، دون أن يُشرّع ذلك للآخرين حفاظًا على الحق العام للورثة فحدد الثلث معيارًا لأقصى ما يمكن أن يتصدق به الإنسان في وصيته.

ثم حثّ صلى الله عليه وآله وسلم على الصدقة الجارية ورغّب في الوقف لتوظيف الثروة المالية للفرد في بناء الإنسان، فشهدت الأمة طفرة مذهلة في توسع الوقف ليصل إلى حد وجود وقف لرفع معنويات المريض يُستأجر مِن ريعه مَن يُضحك المريض ويُدخل السرور عليه ووقف آخر لاستئجار من يقوم بالحديث بجانبه عن الحالات التي شُفيت بعد أن كانت مصابة بنفس مرضه.

وأُنشئ وقف آخر لإصلاح الآنية المكسورة حتى لا يتم توبيخ الخادم الذي يكسر الإناء حفاظًا على آدميته وهذا بعد انتشار أوقاف كل من المدارس والبحث العلمي والمستشفيات والمساجد. بل وسّع دائرة استثمار هذه الثروة في عمارة الأرض التي استخلف الله فيها الإنسان فقرر لأمته أنه في كل كبد رطبة أجر. فظهر وقف في الشام لرعاية «الكلاب الضالة» أي المشردة، ووقف في المغرب لتجبير سيقان «الطيور المهاجرة» ذات السيقان الطويلة في حال إصابتها بالكسور أثناء سفرها!

هذا المفهوم الراقي للثروة العظمى التي تُستثمر في سبيلها مختلف الثروات الأخرى هو ما نحتاج اليوم إلى إحيائه وإلى إعادة النظر في ترتيب أولوياته في ظل التهافت المُزري على تضخيم ثروات المال والجاه والسلطة، التي كثيرًا ما ننخدع في غمارها بتبريرات واهية تُدلّس فيها أنفسنا علينا بزعم أن هذا التهافت سوف يُوظَّف في الإعداد لنهضة الأمة، مستشهدين بتجّار الصحابة كسيدنا عثمان بن عفان ﷺ، ونغفل حينها عن ترتيب الأولويات فننسى أن سيدنا عثمان قد خرج عن ماله مرتين في سبيل الله بمعنى أنه أنفق جميع ما يملك ليبدأ من نقطة الصفر مرتين، وننسى أنه في عام اشتداد الجوع والفقر رفض عروض تجار المدينة بمضاعفة أرباح قافلته إلى ٦٠٠٪ وأعلن أن هناك من عرض عليه ربحًا يبدأ من ١٠٠٠٪ فلما استنكروا كلامه وشككوا في وجود تاجر يعرض هذا الربح وأخبروه بأنه ليس هناك تجار في المدينة سواهم وحذروه من الطمع قائلين: «ما زادك الإسلام إلا طمعًا»؛ قال لهم إن الله قد وعدني في الحسنة عشر أمثالها وأشهدهم أن القافلة صدقة على فقراء المدينة.

إن ما نشهده اليوم من تطاحن مرير على ثروات المال والجاه والسلطة في سياق تنافسي تعصف بنا رياحه في متاهات الرغبات ومهالك الانفعالات ومهاوي الطموحات، فترخص فيه قيمة الإنسان ويُمحى اعتباره من قاموس الثروة فضلاً عن جعله الأولوية الأولى



فيها، لهو عين ما حذرنا الله تعالى منه في درس ابني آدم «هابيل وقابيل»، الدرس الأول عن النتائج المريرة لصراع الرغبات والثروات على وجه الأرض:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾(١).

ما أشد حاجتنا إلى مراجعة المفاهيم والأوليات اليوم، وما أعظم حاجتنا إلى معرفة قيمة ثروة الإنسان الذي هو بُنيان الله في الأرض.

اللهم إنا نسألك فهم النبيين وحفظ المرسلين وإلهام الملائكة المقربين اللهم أغننا بالعلم، وزيّنا بالحلم، وأكرمنا بالتقوى، وجمّلنا بالعافية.

---

(١) سورة المائدة: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١.

كيف نفهم أخطاء الصحابة رضي الله عنهم؟



[الأحد ٢٤/١١/٢٠١٣]

الحمد لله

رَوَت لنا الصِّحاح مواقفَ أخطأ فيها عدد من ساداتنا الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، حتى إن بعضهم ارتكب أفعالاً تُعدُّ من الكبائر، فأقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحدود على من لم تكتنف معصيته شبهة تدرأ الحد عنه، ولم يُفرّق في ذلك بين الشريف والوضيع والغني والفقير، بل أقام العدل على أساس المساواة في المحاسبة وحفظ الحقوق حتى قال فيما رواه البخاري ومسلم: «أيها الناس، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايَمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها»(١)، وحاشاها عليها السلام.

ومع ذلك أمرنا بالأدب مع الصحابة وبالكفّ عن التطاول على

(١) صحيح البخاري في حديث الغار، صحيح مسلم باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود.

شريف مقامهم لما خُصّوا به من عظيم المنزلة ومَزِيَّة الصُّحبة فقال في الحديث المتفق عليه: «لا تسبوا أصحابي لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه»(١).

فكيف نفهمُ صدور مثل هذه الأخطاء عن الصحابة الكرام الذين جالسوا رسول الله؟ وكيف نفهم الأمر بالأدب معهم على الرغم من ذلك؟

إن عظمة الصحابة التي جعلت منهم قدوة أنهم لم يكونوا معصومين عن الخطأ، بل كانوا يتلقون المنهج عن المعصوم ويطبقونه بذواتهم غير المعصومة. وبهذا يكونون قدوة لنا في التعامل مع الخطأ والمخطئ، ولو كانوا معصومين لافتقدنا هذه القدوة.

لقد علمهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف ننظر إلى من أخطأ، فلا نحتقره، ولا نطرده، ولا نُغلق أبواب الرحمة دونه، لأن الله تعالى أرسله بالرحمة، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢)، فبهذه الرحمة يكون الإصلاح وتستقيم الأحوال وسرعان ما يرجع المذنب عن ذنبه وخطئه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ

(١) صحيح مسلم باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم. وهو أيضا في صحيح البخاري لكن بدون القسم وبدون تكرير «لا تسبوا أصحابي».

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٧.

﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[1]. وقد مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم المرأة التي ارتكبت فاحشة «الزنا» ومجّدَ توبتها فقال فيما رواه مسلم في صحيحه: «لقد تابت توبة لو قُسِّمتْ بين سبعين من أهل المدينة لوَسعتهم»[2].

تأمل، كيف نقَل النبي أصحابه من انتقاص المخطئ إلى النظر في توبته التي هي الجانب المشرق الذي أعقب خطأه على الرغم من بشاعة هذا الخطأ.

تأمل، كيف أمره الله تعالى بأن يحترم المخطئ والمذنب من أصحابه، كي نتعلم من ذلك كيف نتعامل مع المخطئ فلا ننتقص من آدميته، ولا نُلغي حقّه في إبداء الرأي، بل تجاوز ذلك إلى حدّ الأمر بمشاورتهم في أمور الأمّة، فقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[3]. فالعفو يكون عن المخطئ والاستغفار يكون للمذنب، ومع ذلك فقد أمر الله أكملَ الناس عقلاً بأن يُشاور من كان قد صدر منه الخطأ والذنب، في أمر الأمّة.

* كل ذلك يُعلّمنا كيف نُفرّق بين الحرص على الإصلاح، وما يمكن أن تُلبّس علينا دوافع نفسية من داء الكبر والتعالي

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠١.

(٢) صحيح مسلم باب الحامل إذا اعترفت بالزنى.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٩.

والقسوة، بالغيرة على الحق والدين والوطن والشرف.

وكثيرًا ما نُخطئ فنقيس رحمة الله على نفوسنا الضعيفة، ونقيس الهَدْيَ النبوي على فهمنا القاصر، مع أن المطلوب عكس ذلك وهو أن نُحكّم الله في أنفسنا ونحتكم إليه في منهج حياتنا ونُقدّم الهَدْيَ النبوي الشريف على تصوراتنا القاصرة، فتزكو نفوسنا وتتسع مداركنا، وندخل في عِداد المصلحين.

* ويُعلّمنا درسًا في الأدب مع الله، فعندما نرى من يُخطئ نُنكر عليه خطأه وننهاه عنه بالمعروف ونبذل له النُصح، ونَدَعُ شأن معاقبة من استحق العقوبة للدولة فهو واجبها وهي المسؤولة عنه، فإن قصّرت فيه فعلينا مطالبتها بإقامة العدل، مع السعي في الصلح بين المتخاصمين، والترغيب في العفو، دون أن نفتئتَ على اختصاص الدولة بتولي المحاكمة أو بتنفيذ العقوبة.

وليس لنا مع ذلك أن نتطاول على من أخطأ أو نتألّى على الله بالطعن واللعن، واللمز والغمز، والتحقير والانتقاص لأحد من خلقه، أو أن نجزم بمصيره ومآله، فذلك من باطن الإثم وظاهره لما فيه منازعة لاختصاصات الربوبية.

* ويُعلّمنا أن نُفرّق بين الخطأ والمخطئ، فنرفض الخطأ ونقيل المخطئ، وكلنا مُعرّض للوقوع في الخطأ، ونُحبُّ حينئذ أن يتقبّلنا مجتمعنا في حال رجوعنا عنه، بل إننا نُحبّ أن يَتلطّفوا بنا

في النصيحة حال ارتكابنا للخطأ وأن لا يُغلظوا لنا القول كيلا تنفرَ نفوسنا عن الحق ويأخذها الكِبر.

كذلك ينبغي أن نعامل المخطئ، بما نُحب أن نُعامَل به حال وقوعنا في الخطأ؛ فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه». رواه البخاري ومسلم[1].

* ويُعلّمنا كيف تكون مجتمعاتنا «صالحة» و«مُصلحة»، وليست طاردة أو مُنفِّرة، فلا تكون المجتمعات «صالحة» مهما تظاهرت بالصلاح إن لم تكن «مُصلِحة».

* ويعلمنا أن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتوقف عند حد الألفاظ بل يكون نابعًا من قلوب تَملَؤها الرحمة وعقول تُزينها الحكمة وتصرفات يكسوها الأدب.

* ويُعلّمنا أن أخطاء أفراد من الصحابة، أورثت كمالاً في مجتمعهم، فنتعلم منها كيف تُصوّب الأخطاء لتستقيم المجتمعات.

فلهم رضي الله عنهم ما للمعلم من الأدب والاحترام.

وبهذه النظرة العميقة والمستوى الراقي في المعاملة انتشر الإسلام، وشَعُرت الأُمم بحاجتها إليه، فاعتنقته عن إيمان وقناعة.

(١) صحيح البخاري باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، صحيح مسلم باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير.

وعندما تخلّفنا عن هذا المستوى تقلّص دورنا في نشر الاسلام والترغيب فيه، وتخلّفنا عن حقيقة الدعوة مع كثرة من يحملون لقب «الداعية»، بل لقد بدأ الكثير من أبنائه يتشككون فيه، ويرتدّون عنه، ذلك لأننا قدّمنا الإسلام مشوبًا بِعِلل نفوسنا وضيق مفاهيمنا ورُعونة تصرُّفاتنا.

وهنا يظهر مدى تخلّفنا عن الهَدْيِ النبوي الشريف ومسلك السلف الصالح، وعندما نجد أن نظرتنا إلى من يُخطئ وطريقة تعاملنا معه مخالفة لهذا الهَدْيِ نُدرك مدى الخلل الذي نعيشه في حياتنا، ونكتشف مدى الزيف الذي قد يعتري تديننا.

وأخيرًا، لعله اتضح من هذه الأسطر كيف نفهم الأخطاء من بعض الصحابة، وكيف نفهم الأمر باحترامهم والأدب معهم، وكيف نستفيد من ذلك في تزكية أنفسنا وإصلاح مجتمعاتنا.

﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1].

اللهم ارزقنا قلوبًا رحيمة وعقولاً حكيمة ووفّقنا للمسالك المستقيمة يا حق يا مُبين.

---

(١) سورة الحشر: ١٠.

«نقد» أم «نقض»؟

[٢٠١٣/١١/٢٤]

الحمد لله

كثر في الآونة الأخيرة التطاول بالطعن في علم الإسناد ومرويات كتب السُّنّة الشريفة، إلى حد رفضها بالكلية من خلال سرد مغالطات في النقل والتحليل، وتغطية غياب الموضوعية بالشتائم والتحقير.

والعجيب أن من يتناول الموضوع على هذا النحو يضع الأخلاق ضابطًا في قبول النص ورفضه، ثم ينقض كلامه بسيل من عبارات الشتم والتحقير لمن سبق من أهل العلم، وكأن السباب واللعن والشتائم وتحقير الآخرين تصرف أخلاقي!

فهناك فرق بين النقد العلمي الموضوعي والهجوم الشامل المتجه نحو الهدم. ومثال النقد الموضوعي الذي يدحض دعوى تعميم التعصب على أئمة الإسناد؛ تناولهم لأحاديث في الصحيحين

«البخاري ومسلم» بالنقد؛ فقد شكك عدد من قدماء المحدثين ومنهم الدارقطني وأبو مسعود الدمشقي وأبو علي الغساني وغيرهم في صحة ٢١٠ من أحاديث البخاري ومسلم، ٣٢ منها متفق عليه و٧٨ منها في البخاري، و١٠٠ منها في مسلم، كما نص على ذلك الحافظ ابن حجر في مقدمة شرحه على البخاري، وأجاب آخرون عن استشكالهم كالحافظ ابن حجر والإمام النووي.

وعلى الرغم من تتبع الحافظ ابن حجر لهذه الاستشكالات فقد قال في مقدمة تتبعه لها: «ينبغي لكل منصف أن يعلم أن هذه الأحاديث وإن كان أكثرها لا يقدح في أصل موضوع الكتاب فإن جميعها وارد من جهة أخرى وهي ما ادعاه الإمام أبو عمرو بن الصلاح وغيره من الإجماع على تلقي هذا الكتاب بالقبول والتسليم لصحة جميع ما فيه، فإن هذه المواضِع مُتنازَع في صحتها فلم يحصل لها من التلقي ما حصل لمعظم الكتاب».

وقد عُرف نوع من المصنفات عند أهل الحديث بـ«النُكَت» أي الملاحظات النقدية، فانتقد الحافظ السيوطي كتاب الأذكار للإمام النووي في كتاب «تحفة الأبرار بنُكَت الأبرار» وانتقد الحافظ ابن حجر شيخه الحافظ ابن الصلاح بكتاب «نُكَت ابن الصلاح»، وانتقدهما تلميذ ابن حجر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب «النُكَت الوفية بما في شرح الألفية». ومن الجدير بالملاحظة هنا

نقد التلميذ لشيخه ونقد تلميذ التلميذ لشيخه ولشيخ شيخه، مع كامل الاحترام والثناء والإجلال والأدب والمحبة.

والمقصود هنا هو الإشارة إلى وجود ثقافة «النقد» لدى أهل علوم الإسناد بخلاف ما تدعيه مغالطات من يسعى إلى «نقض» هذا العلم.

بل إن علم الجرح والتعديل مداره على نقد رجال السند وفق معايير عالية الدقة مع وجود مساحات من الاختلاف في تطبيقها.

وهذا ما لا يخفى على من درس أوليات هذا العلم.

وهنا يأتي خَلْطٌ آخر بين أهمية احترام التخصُّص ونسبة الكهنوت إلى علماء المسلمين، فالتخصص والدراسة القائمة على التحقيق من أهم شروط النقد الموضوعي المحترم، بينما الأمر المرفوض في الشريعة المطهرة هو الحجر على العقول ومنع النقد الموضوعي والتزام الطاعة العمياء، أو اتخاذ الكهنوت مسلكًا أوحدًا للمغفرة.

نعم يوجد في كل عصر من تعصَّب في نظرته، أو بالغ في تعبيره عن تبجيل أئمة هذا العلم، وهم أهلٌ لكل احترام وتبجيل، غير أن المنهج الراسخ المعتمد هو ما تم توضيحه في هذه الأسطر.

ولهذا فنحن بحاجة إلى الخروج من تطرُفَي الجمود والتعصب،



والتهور في النقد بغير تخصص ولا دراسة موضوعية.

وأما ما يتكرر طرحه من اعتماد العقل والأخلاق معيارًا في قبول النص ورفضه ففيه تفصيل:

١ ـ عبارة «المقبول والمرفوض عقلاً» يقع فيها خلط بين «المستحيل عقلاً» و«المستحيل عادة».

فالمستحيل عقلاً هو ما لا يمكن حدوثه إطلاقًا؛ ومثاله وُلوج الكبير في الأصغر منه دون أن يصغر الكبير أو يكبر الصغير، فهذا من المستحيل العقلي الذي لا تُقبل الرواية إذا جاءت به على نحو قاطع.

وأما «المستحيل عادة» فهو ما يتخيل الإنسان استحالته بسبب رفض نفسه قبول إمكانية حدوثه، لعجزها عن تصور إمكانية حدوثه ولعدم اعتيادها عليه، ومثاله إمكانية التواصل في نفس الوقت بين اثنين في بلدين مختلفين عبر الشبكة مع إمكانية مشاهدة كل طرف للآخر، أو إمكانية السفر من بلد إلى آخر بِقطْع آلاف الأميال خلال ساعات محدودة، فهذا كان بالنسبة إلى أجيال سابقة من ضرب المستحيل، لكنه من المستحيل عادة وليس عقلاً، ومع ذلك فإننا إذا خاطبنا عموم أهل تلك الأزمان عن هذا الأمر فإنه سيجيبنا بقوله: «هذا مستحيل ولا يقبله العقل». فهذا النوع من الرفض النفسي الذي



يتوهم صاحبه بأنه لا يُقبل عقلاً وهو من «المستحيل عادة» لا يصلح أن يكون معيارًا لقبول النص ورفضه.

٢ ـ «عبارة المقبول والمرفوض خُلقًا» أيضًا فيها تفصيل، فمن الأخلاق ما هو ثابت مطلق الاستحسان لدى عموم البشر كالصدق والأمانة والوفاء، وهذا ما لا تُقبل رواية يُقطَع بمخالفتها لمقتضاه.

وهناك من الأخلاق ما هو نسبي متغير بتغير الثقافات والأزمنة، كتقنين الدعارة، فهو مرفوض خُلقًا لدى المؤمنين وكثير من غير المؤمنين، بينما هو حرية شخصية لدى آخرين، «مع كونه المحفِّز الأول لتفشي تجارة الرقيق الأبيض».

ومثال آخر للخُلق النسبي أقرب إلى واقعنا اليوم: إعطاء المال لكل سائل «شحّاذ»، فهو داخل في خُلق الكرم وحسن الظن لدى البعض، بينما يراه البعض الآخر مُشجعًا على التواكل وانتشار العصابات التي تدير هذا النوع من السلوك، فهو بذلك غير مقبول أخلاقيًا.

وهذا النوع من الخُلق النسبي لا يمكن اعتباره معيارًا في قبول النص ورده.

وبقيت لدينا مشكلة التعامل مع هذا النوع من الهدم الذي يأتي في صورة التجديد، فإن الصراخ والسباب والمطالبة بالحبس



والعقوبة ليست سبيل من يثق في حُجّته، كما أنها لا تفيد سوى زيادة الافتتان بشبهات المخالِف وانتشارها بين الناس.

ولكن التفنيد العلمي القوي في حجته، الهادئ في لهجته، الخلوق في عبارته، هو السبيل الأمثل لإفهام طالب الفهم، وإفحام طالب الهدم.

ولنتأمّل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

فإذا كان هذا هو منهج القرآن وهدي المصطفى من بني عدنان صلى الله عليه وآله وسلم في محاورة المخالِف في أصل الدين فكيف تكون محاورة المخالِف في فهم الدين؟

وأخيرًا..

الفرق بين «النقد» و«النقض» دقيق، فالأول يسعى إلى التقويم والثاني يعمل على الهدم.

اللهُمَّ اهْدِنا لِمَا اختُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإِذْنِكَ، إنَّكَ تَهدي مَنْ تشاءُ إِلَى صِراطٍ مُستقيم.

---

(١) سورة سبأ: ٢٤، ٢٥، ٢٦.



نزاهة العمل الخيري

[الأربعاء ٠٥/٠٦/٢٠١٣]

الحمد لله

دُعي علماء المسلمين ودعاتهم الذين أطلقوا مبادرة «كلمة سواء» إلى مؤتمر في جامعة «ييل» الشهيرة للحوار مع المسيحيين، وكان غالبية الحضور المسيحي من طائفة «البروتستانت» مع وجود بعض الأرثوذكس والكاثوليك، وكان حوارًا موفقًا أسفر عن نتائج جيدة، منها تعرّف الأطراف المتحاورة على رؤى بعضهم البعض، ومن ذلك تعرُّفُنا عن قرب على نماذج مسيحية راقية في إيمانها بالتعايش الحقيقي، كالبروفيسور ميروسلاف فولف، مدير مركز الدين والثقافة بجامعة ييل، صاحب الدعوة إلى المؤتمر، ومن هذه النتائج الاعتراف البروتستانتي التاريخي بأن الإسلام دين سماوي.

وعلى هامش المؤتمر دُعينا إلى اجتماع مغلق حضره شخصيات من أهم ممثلي الكنائس في الولايات المتحدة ومنهم رئيس اتحاد الكنائس الإنجيلية، وطرح أحد أساتذة اللاهوت سؤالاً عن سبب

عدم السماح للمبشرين الإنجيليين بالعمل في البلاد الإسلامية، فأجابه مطران أرثوذكسي من القدس بأنّ كثيرًا من المبشرين الإنجيليين يعملون وفق توجّهات سياسية تضرّ بواقعنا وضرب له مثلاً القدس الشريف وما يجري فيه من عملٍ على تحويل المسيحيين المقدسيين من الطائفة الأرثوذكسية إلى الطائفة الإنجيلية ومن ثم تشجيعهم على الهجرة إلى الغرب مما اعتبره جزءاً من عملية تهويد القدس.

وكان تعليق الفقير إلى الله أن المشكلة تتعلق أيضًا باستغلال الكثير من المُنَصّرين الإنجيليين القادمين من الغرب للأوضاع المأساوية في بلاد المسلمين على نحو غير أخلاقي وضربت لهم أمثلة حقيقية من الواقع.

فأجاب قسٌّ وقور قد جاوز الستين من عمره هو رئيس «الكويكرز» البروتستانت بصوت متهدج صادق: إن هذه التصرفات تعتبر خيانة للسيد المسيح وأنا أعتذر إليكم عنها ولا أقبلها. فشكرته وقلت له إن خطابك هذا يذكرني بقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(١).

وتذكُر هذا الموقف يعيدنا إلى واقع أليم في منطقتنا يتّصل بما

(١) سورة المائدة: ٨٢.



يشوب الكثير من الأعمال الخيرية مِن سوء الاستغلال السياسي والفكري لمآسي الناس من كوارث وفقر ومرض وجهل، فقد واجهتنا مواقف مخزية أثناء العمل الإغاثي لمتضرري السيول في حضرموت قبل نحو خمسة أعوام كمحاولة بعض المسؤولين الاستيلاء على المعونات مما اضطرنا إلى مخاطبة الرئيس شخصيًا ليوقف عبثهم، لكن الأسوأ من ذلك هو محاولة بعض السياسيين من المعارضة استثمار الكوارث لصالح حملاتهم الانتخابية التي كان موعدها وشيكًا، حتى وصل إلى حد اقتحام أحد نوّابهم لطائرة عمودية وفّرتها الدولة للوصول إلى القُرى المحاصرة بالمياه وتوجيهها إلى قرية غير محاصرة سبق أن وصلتها المعونات عبر سيارات الدفع الرباعي، وعند البحث عن وضع هذه القرية تبيّن أنها من القُرى التي صوت غالبية سكّانها لصالح حزب هذا النائب المعارض!

وفي موقف آخر بينما كانت إحدى ناقلات الأغذية تستعد للتوجه إلى القرى المنكوبة فوجئ الناس ببعض أعضاء جمعية خيرية يطابق اسمها اسم الحزب السياسي نفسه يحملون لافتة كتب عليها «معونات لأهلنا المتضررين في حضرموت» مع كتابة اسم الجمعية المذكورة ليلتقطوا صورًا أمام ناقلة المعونات التي ليس لهم فيها ناقة ولا جمل! مما أدى إلى غضب الأهالي من صنيعهم وإبعادهم عن الناقلة.

وعندما تبرع الشيخ خليفة بن زايد ببناء مئات المساكن للمتضررين واجهتنا مشكلة محاولة المجالس المحلية المنتخبة، التي نجح فيها الحزب المعارض نفسه، لفرض قوائم غير دقيقة للمتضررين شملت الموالين لهم ممن لم تتضرر بيوتهم، وعندما أصرّت لجنة تحديد المتضررين على عدم اعتماد هذه القوائم شُنّت حرب شعواء لعرقلة هذا المشروع من قِبل الحكم المحلي لا زلنا إلى الآن نعاني من آثارها السلبية على المشروع على الرغم من مُضيّه قُدُمًا، ثم أعقبه سعي حثيث لتهييج المتضررين على هذا المشروع ومحاولة تشويه المعونة الإماراتية التي تميّزت برفضها الاستثمار السياسي من قِبل الحكومة أو المعارضة وأصرّت على أن تكون خيرية لا تشوبها شائبة السياسة.

هذه الوقائع تستدعي أمثالها في مختلف الدول ومن مختلف الأطراف السياسية، فاستغلال الكوارث والفقر والمرض لصالح التنافس السياسي سلوك غير أخلاقي يرفضه الشرع وترفضه المروءة، ومن كانت لديه همّة صادقة ورؤية واضحة لمعالجة معاناة الشعوب عبر مشروعه السياسي فهو بحاجة إلى وضع استراتيجية مُحكمة وخطة مدروسة تتجاوز الشعارات الانتخابية إلى امتلاك آليات تغيير الواقع، وليس استغلال عَوَز الناس.

لهذا أود أن تكون لدينا تشريعات قانونية تمنع استغلال العمل

الخيري في التنافس السياسي وتُجرّم وضع الشعارات الحزبية على المعونات الغذائية.

كما أدعو منظمات حقوق الإنسان إلى العمل على إدراج هذا الالتزام ضمن الاتفاقيات التي توقع عليها الدول في هيئة الأمم المتحدة وضمن شروط المعونات المقدمة إلى الأنظمة.

إنّ هذا المعنى متصل بحفظ كرامة الإنسان الفقير والمريض من أن يكون سلعة رخيصة في متجر التنافس السياسي، وهذا من أوليّات حقوقه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

ونقل الحافظ ابن جرير في تفسيره أن ترك السلام على المتصدَّق عليه أفضل من السلام إذا كانت نفسه ستستشعر الحرج من المتصدِّق.

(١) سورة البقرة: ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[1].

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: من طلب من الفقراء الدعاء أو الثناء خرج من هذه الآية.

ولا ينبغي أن يُغالط أحد نفسه بالاستشهاد الخاطئ بقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2] لأن الآية الكريمة تُجيز الإعلان عن الصدقة في سياق الحث على فعل الخير وليس في سياق توظيفها سياسيًا أو فكريًا لصالح المتصدِّق أو مشروعه.

وقال سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في ذكره للسبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه: «رجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أُهديتْ لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم شاةٌ، قال: اقْسِمِيها، فكانت عائشةُ إذا رجعتِ الخادمُ تقولُ: ما قالُوا؟ تقولُ الخادمُ: قالوا: باركَ الله فيكم، فتقول عائشة: وفيهم بارك الله،

(١) سورة الإنسان: ٨ ـ ٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٧١.

(٣) صحيح البخاري باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد.



نردُّ عليهم مثلَ ما قالوا، ويَبقى أجرُنا لنا. أخرجه النسائي في سننه[١].

فكان أشياخنا رحمهم الله يقولون لنا: إذا ساعدتم محتاجًا فلا تطلبوا منه الدعاء لكم حال مساعدته لأن في ذلك شبهة استبطان النفس للشعور بالتفضّل عليه وطلب المقابِل لهذا الإحسان وهذا قد يَجرح نفس المحتاج ويقوّي وهم المنّة في نفوسكم.

فكيف إذا أتى الإعلان عن المساعدات في سياق الترويج السياسي أو الفكري؟

وأخيرًا، إن المجتمع الذي لا يصون كرامة الفقير لا يمكن أن ينال حقيقة الأمن ولا الطمأنينة، ولا يأتمنه الله على رفع راية الحق، ولا يفوز بحقيقة الارتقاء الحضاري وإن حقق قفزات في التقدم المادي.

اللهم وسّع مشاهدنا وصفِّ مواردنا، وارزقنا من الإخلاص ما نبلغ به مراتب الصدّيقين، ومن البصيرة ما نسلك به مسالك المحبوبين، يا أرحم الراحمين.



(١) سنن النسائي الكبرى باب ما يقول لمن أهدي له.

ذوو «العطاءات» الخاصة



[الأحد ٠٥/٠٦/٢٠١٣]

الحمد لله

يظهر الحديث عن ذوي الاحتياجات الخاصة (المعاقين) من وقت لآخر، غير أن الذي نحتاج إليه هو تصحيح نظرتنا إليهم أولاً لبناء مفهوم التعامل معهم على نحو يليق بهم.

فالقضية لا تتعلق بمجرد العمل على توفير الأعمال التي تُدر الدخل المناسب لهم، وتيسير الممرات في الشوارع والمباني، وعمل الدورات التأهيلية، والرقي بمستوى العلاج فحسب.

فمن نسميهم بذوي الاحتياجات الخاصة أو المعوقين هم أفراد ابتلوا بفقدٍ عضوي، ولكنهم مكتملو الإنسانية، بل إن الله قد عوضهم بما فقدوا فيضًا في إنسانيتهم يفوق ما نلاحظه فيهم من التفوق العضوي المقابل لما فقدوه (كالسمع المرهف لدى البصير).

والعاطفة الإنسانية الجيّاشة في مشاعرهم هي ثروة عظيمة





تفوق حاجتنا إليها كلَّ ما يُتحدث عنه من حاجتنا المستقبلية إلى المياه والغذاء، لأن جفاف الشعور الإنساني الصادق أصبح واقعًا مريرًا نعيشه ونجني حصاده المؤلم من قسوة في القلوب تظهر آثارها في يوميات كل من الأسرة والمجتمع والاقتصاد والسياسة والإعلام بل وفي المسجد!

والاحتياطي المتوفر لدى هؤلاء من هذه الثروة غني بحيث يكفي لحاجة أهل كل بلد، فهناك تناسب مطرد بين نسبة هذه الشريحة العظيمة ونسبة الإعاقة الإنسانية في كل مجتمع، وسبحان القائل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾[1].

ومن هذا المشهد ندرك أننا أصحاب الاحتياجات الخاصة إلى إحياء إنسانيتنا الذي أودع الله إكسيره وجرعة انبعاثه في قلوب من نسميهم أصحاب الاحتياجات الخاصة. ولكن قصورنا عن الارتقاء إلى هذا المستوى من تقدير أهميتهم في حياتنا قد أعاقنا عن تفعيل هذا المعنى وبذلك أصبحنا (معوّقين) عن التعامل مع من نسميهم بالمعوقين.

ولتجاوز هذه الإعاقة والحصول على هذه الاحتياجات الخاصّة ينبغي أن نتعامل معهم عبر هذه النظرة على نحو يتجاوز المفهوم

---

(١) سورة الزخرف: ٣٢.



المشوَّه والمشوِّه للعطف والشفقة والصدقة، حتى غدت هذه الألفاظ الراقية جارحة للمشاعر وتصل، على غير دلالتها الأصلية، مُهينة للكرامة منفرة للنفوس المكلومة بالرغم من أن الأصل في وجودها هو تطبيب جراح النفوس والأخذ بالأيدي لنا ولهم.

لذا فعلينا أن ندرك أننا من نحتاج إلى التعامل معهم من منطلق أنهم أسوياء إنسانيًا، وأن لديهم ما يمكن أن يقدموه إلى المجتمع في شتى المجالات العملية إذا ما أُتيحت لهم فرصة التدريب والتأهيل والتمكين من الوظائف.

وهنا نجد أن الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم قد رسم لنا منهجًا عمليًا في التعامل مع هذه الشريحة المعطاء في هديه الشريف، فهذا عبد الله بن أم مكتوم يصبح مؤذنًا للنبي على الرغم من فقد بصره، بل ويعتمد النبي أذانه الفجر دون أذان بلال فيقول عن الإمساك في الصيام: «إن بلالاً يؤذِّنُ بليلٍ فكلوا واشربوا حتى يناديَ ابن أمِّ مكتوم»[1]. وها هو يستخلفه على إمارة المدينة ثلاث عشرة مرة عند سفره صلى الله عليه وآله وسلم منها! بل لقد تعامل معه من منطلق أنه مكتمل الآدمية والكفاءة حتى أنه أذِن له بأن يحمل لواءً لجيش المسلمين في بعض المعارك، الأمر الذي جعله يُصرُّ على حمل اللواء في معركة

(١) صحيح البخاري باب أذان الأعمى إذا كان له من يخبره.



القادسية في خلافة عمر طلباً للشهادة في سبيل الله.

هذا المنطلق من احترام حق ذوي الاحتياجات الخاصة (المعوقين) في أن يُعطَوا فرصتهم لخوض تحديات الحياة، هو ما نحتاج إليه اليوم كي نكتشف حقيقة أنهم ذوو (العطاءات) الخاصة.

وعندما نتأمل منطلق الترغيب في خدمتهم وما يترتب عليه من الثواب ندرك أننا نحن من نحتاج إليهم أكثر من حاجتهم إلينا. فالثواب الأخروي هنا يعالج أنانيتنا بالسمو بمفهوم المصلحة عن النظرة الضيقة المقتصرة على الرغبات الدنيوية العاجلة، إلى طلب نيل رضوان الله تعالى في الآخرة. فيتخلص المؤمن من استعباد هوى نفسه له ليرقى إلى ملامسة حقيقة أنه عبد للواحد الأحد، فيسعى إلى التحرر من عبوديته لنفسه وأطماعها وشهواتها ويتعامل مع ما يحيط به على أساس طلب رضوان الواحد الأحد، وليس طلبًا لرضا نفسه عنه، سواء كان رضاها متعلقاً بالجمع أو المنع أو الشهوة أو الشهرة، أو حتى ما نسميه اليوم «السلام النفسي» وإن كان هذا الأخير أرقى مما قبله، غير أنه لا يزال خاضعًا لتقلبات النفس وهي كثيرة.

وإنّ ربط التعاملات بحقيقة الصلة بالله تعالى يجعلها تتصل بالثابت غير المتناهي فيفتح أمام النفس أبواب تحدي الارتقاء اللامتناهي.



هذا المعنى العظيم مرتبط بالتعامل مع هذه الشريحة، فعندما نرتقي بالتعامل معهم على أساس أنه جزء من عبادتنا لله ندرك أننا أصحاب الحاجة إليهم فنصحح نظرتنا إليهم، ونحترم كرامتهم، ونُجلّ قدرهم، ويظهر ذلك في تصرفاتنا، فتعود مصطلحات الرأفة والشفقة والإحسان إلى مكانها الصحيح بأنها أجزاء أساسية من إنسانيتنا لا نكون آدميين بدونها وليست جسوراً لإرضاء غرورنا أو وسائل لتنميق صورنا الاجتماعية.

نعم نحن أصحاب «الاحتياجات» الخاصة إلى هذه الشريحة من أصحاب «العطاءات» الخاصة، فهل ننتبه إلى هذه الحقيقة فننتهض إلى حسن التعامل معهم ونحترم هذه النعمة العظيمة التي أوجدها الله لإنقاذ ما أتلفته أهواء نفوسنا من إنسانيتنا؟

اللهم يا من وفق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفقنا للخير وأعنا عليه.



يوم الميلاد المجيد «وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ»



[الأحد ٠٦/ ٠١/ ٢٠١٣]

الحمد لله

«نحن أولى بموسى منهم»[١]، هكذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما قيل له بأن يهود المدينة يصومون عاشوراء فرحًا بنجاة سيدنا موسى وقومه من فرعون وجنوده، وقد كان يصوم هذا اليوم وهو في مكة قبل الهجرة[٢].

لم يسأل النبي عن ارتباط الشهر العربي بالواقعة على الرغم من أن الحساب العبري مختلف عنه، واكتفى بكون يهود المدينة قد ارتبطوا بالأشهر العربية لأنهم استوطنوا بلاد العرب، ولم يقل: وكيف نتحقق من صحة التاريخ فإن اليهود قد حرفوا كتابهم لذا لا يجوز أن نثق بتحديدهم لتاريخ نجاة موسى؟!

---

(١) صحيح البخاري، باب صيام يوم عاشوراء، سنن ابن ماجه باب صيام يوم عاشوراء.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ.

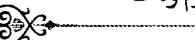


لأن الأمر ليس متعلقا بذات الزمان بقدر ما هو متعلق بالمعنى الذي تدل عليه المناسبة وهو الفرح بفضل الله، ومحبة الصالحين من عباده. وهذا الارتباط بمواسم فضل الله على عباده الصالحين هو ارتباط أصيل وعميق في ديننا. فإنّ ركن الإسلام الخامس وهو الحج ملئ بمعاني الارتباط بفضل الله على خُلَّصِ عباده الصالحين من الأمم السابقة.

بدايةً بالطواف حول الكعبة التي رفع إبراهيم الخليل قواعدها مع ابنه اسماعيل، ومرورًا بالسعي بين الصفا والمروة حيث كانت سيدتنا هاجر المصرية تتردد بين هذين الجبلين بحثًا عن الماء لتشرب وتسقي طفلها، والمبيت بمنى حيث رجم الخليلُ عليه السلام الشيطانَ عندما كان يحاول جاهدًا أن يثنيه عن امتثال أمر الله في امتحان ذبح ابنه إسماعيل، ووصولاً إلى ذبح الهدي الذي يذكرنا بالذبح العظيم الذي جعله الله فداء لإسماعيل عليه السلام بعد نجاح أبيه في الاختبار الصعب.

هذه عظمة شعائرنا التي نعبد الله تعالى بها، أنها مرتبطة بالمعاني العميقة وليست مجرد أداء شكلي ظاهري؛ وقد قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم: ٥.



لهذا عندما تأتي ذكرى ميلاد السيد المسيح عليه السلام، فإننا نستشعر أننا أمام تذكر يوم من أيام الله تميز بمعجزة عظيمة في مولده الشريف ارتبطت بمعنى السلام الذي نحن في أشد الحاجة إليه في هذه الأيام. نعم فقد جعل الله السيد المسيح رمزاً للسلام في هذا العالم. ألم يقل تعالى على لسان السيد المسيح: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[1].

فهذا وحده سبب كافٍ لأن أفرح بهذه الذكرى الشريفة بغض النظر عن التدقيق في ضبط تاريخها عندنا أو عند غيرنا أو اختلاف الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت أو غيرهم حول التحديد الدقيق للمناسبة، لأن الأمر غير متعلق بذات اليوم بل بالمعنى الذي يرمز إليه.

ثم إن إخوتنا في الإنسانية وجيرتنا في الأرض ونظراءنا في الخلق لهم علينا حق البر والقسط اللذين نبهنا الله إليهما بقوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[2].

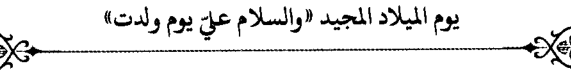
قال الحسن البصري: إن المسلمين استأمروا رسول الله في

---

(١) سورة مريم: ٣٣.

(٢) سورة الممتحنة: ٨.





أقربائهم من المشركين أن يصلوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس يريد بالصلة وغيرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يريد أهل البر والتواصل. وقال شيخ المفسرين الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره للآية: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُنى بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرّوهم وتَصِلُوهم وتُقسطوا إليهم ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ.

ولكم أن تتأملوا كيف ربط الله بر غير المسلمين وحسن مواصلتهم بمحبته تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، فإنّ رعاية القسط والبرّ في تعامل المسلمين مع غيرهم سبيل موصل إلى محبة الله تعالى، و«البر حسن الخُلق» كما قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وقبل أن يتحمّس إخوتي من طلبة العلم ويهرعون إلى جمع أقوال الفريق الذي منع التهنئة من فقهاء الأمة، أُذكرهم بأن من لم يُجز تهنئة غير المسلمين بأعيادهم الدينية ربط ذلك بقرينة «إقرارهم» على ما يعتقدونه من عقائد مخالفة للإسلام، ولم يذكروا دليلاً صريحًا يمنع التهنئة لذاتها.

وهذا «الإقرار» لا يُتصوّر اليوم من المسلمين بعد استقرار الإسلام وانتشار المعلومات ووضوح الاختلاف العقدي. ونُضج

السلوك البشرى، إذ لا يوجد مسلم اليوم ممن يُهنئون جيرانهم المسيحيين يخطر بباله أنه يقر بألوهية السيد المسيح أو بأنه ابنُ الرب تعالى، ولا يوجد مسيحي يتوهم ذلك من تهنئة المسلم له! كما أنه لا يوجد مسيحي اليوم ممن يُهنئون جيرانهم المسلمين بالعيدين أو برمضان أو بالمولد النبوي الشريف يفهم من ذلك أنه قد أقرّ المسلم على اعتقاده، ولا يوجد مسلم اليوم يتوهم ذلك من تهنئة المسيحي له!

لكن المعنى الذي يصل إلى القلوب والعقول هو البر والصلة وحسن الجيرة وكريم الأخلاق. فهل من عاقل اليوم يرى ذلك إقرارًا على العقيدة؟ أو مشاركةً في طقوس العبادة؟

وهل وصلنا إلى حالة صرنا فيها نتشاجر ونصدر الفتاوى ونعلن البيانات بل ونكيل التهم ونشكك في سلامة معتقدات بعضنا بسبب كلمة طيبة اعتاد المسلم أن يقولها لجاره المسيحي: «كل عام وأنتم بخير»؟ أي مستوى من السقوط ندفع إليه أجيالنا؟ أم أي مستوى من الاستخفاف بعظمة هذا الدين نقدمه لشبابنا؟

من حق من لا يريد أن يُهنئ غيره ألا يفعل فلم يقل أحد أن هذا فرضٌ، لكن أن نُنكر على من يفعل ونُبرق وُنرعد ونُشكك في دينه! فهذا نوع من العبث بدين الله! بل هو تقزيم لعظمة الشريعة



السمحة! أرجوكم كفوا عن الإساءة إلى عظمة هذا الدين. أرجوكم كفوا عن تنفير الناس منه بتضييق رحابه الواسعة عليهم.

وانتبهوا إلى غضب النبي الكريم وتحذيره الشديد عندما شكا إليه رجل أنه صار يتأخر عن صلاة الفجر في المسجد بسبب تطويل الإمام كما روى البخاري ومسلم بسندهما إلى أبي مسعود الأنصاري، إذ قال الرجل: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا» قال أبو مسعود: «فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد غضبًا في موعظة منه يومئذ»! فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ»[1].

غضب النبي واشتد في موعظته واتهم من يطيل الصلاة بأنه منفر! فكيف بمن يطعن في دين الناس ويشكك في إيمانهم وسلامة معتقدهم بسبب برّهم بجيرانهم؟ وأذكر نفسي وأذكركم بوصيته صلى الله عليه وآله وسلم: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا»[2].

وأخيرًا، أُهنئ سيدنا محمدًا بميلاد السيد المسيح، نعم أُهنئ

(١) صحيح البخاري، باب من شكا إمامه إذا طول، صحيح مسلم، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام.

(٢) صحيح البخاري، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.



سيدنا محمدًا، أليس هو من قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة»[1]. وأُهنئ المسلمين والمسيحيين بل أُهنئ البشرية كلها بالميلاد المجيد لمن تجلّى الله عليه في مولده باسمه السلام فجعله رمزًا للسلام.

وأقول لسيدنا المسيح: سيدي يا روح الله وكلمته، السلام عليك يوم وُلدتَ ويوم تموتُ ويوم تُبعثُ حيًا.



(١) صحيح البخاري في باب قوله تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...)، صحيح مسلم في باب فضائل عيسى عليه السلام.

«إن منكم منفرين»
حول حكم تهنئة المسيحيين

[الأربعاء ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١٣]

الحمد لله

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ منكم منفِّرين فإذا صليتم فأوجزوا فإن خلفكم الضعيف والكبير والمريض وذا الحاجة»(١).

وهنا علّمنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن من يتصدر لخدمة دين الله ينبغي أن يلاحظ حالة المتلقي وألا يكون منفّرًا للناس عن الإقبال على الله تعالى ولو كان ذلك عبر تلاوة كلام الله أثناء الصلاة.

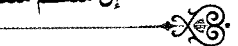
وفي هذه الأيام كثر اللّغط حول مسألة تهنئة أهل الكتاب في أعيادهم وانحرف مسار الحديث عنها في البلاد التي تتنوع عقائد مواطنيها عن بيان حكم شرعي إلى حالة من التنفير عن الدين بل

(١) صحيح البخاري، باب من شكا إمامه إذا طول، صحيح مسلم، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام.

أصبح مهددًا للأمن الاجتماعي ومنافيًا لأوليات الأخلاق والقيم الإنسانية التي جاء النبي الكريم متممًا لمكارمها، وأصبح الحديث عن هذا الموضوع جزءًا من منظومة الإمعان في تمزيق منطقتنا المضطربة الممزقة عبر المفهوم المحرَّف للولاء والبراء.

والعلماء الحقيقيون يفرقون بين الحكم والفتوى التي هي تنزيل الحكم على الواقع؛ فالفتوى قد تخالف الحكم. أكل لحم الخنزير، على سبيل المثال، حكمه التحريم، لكن الفتوى تخالف الحكم في حالة من لم يجد طعاما سوى الخنزير فخشى الموت جوعا فتكون الفتوى بأن يأكل من لحم الخنزير في هذه الحالة.

أما مسألة الحكم الشرعي لتهنئة أهل الكتاب مجردًا عن تنزيله على الواقع فهو اجتهاد لم يُبنَ على نصّ صريح من كتاب أو سنة في الجواز أو المنع، بل كان من المسائل الاجتهادية لدى الفقهاء، فكان محل تفصيل وخلاف. أما التفصيل فمنهم من أباح التهنئة في المناسبات الدنيوية دون الدينية، وأما الخلاف فهو ثابت في عموم التهنئة؛ فقد نصَّ الإمام أحمد بن حنبل على جواز التهنئة في أحد أقواله المروية عنه كما نقل ذلك «المرداوي» في «الإنصاف» دون تقييد بالمناسبات الدنيوية وإن اعتمد الحنابلة رواية التحريم مما يردُّ زعم الإمام الحافظ ابن القيم أن التحريم محل اتفاق.



فالعلماء الذين نهَوا عن التهنئة بنَوا النهي على علّة (سبب) نصّ عليها عدد منهم في فتواهم وهي التباس التهنئة بإقرار أهل الكتاب على العقائد المخالفة لعقيدة الإسلام، وهذا التعليل كان صحيحًا في إطار الثقافة السائدة في المجتمع الإنساني آنذاك من ارتباط التهنئة بتبني إقرار الأمر الذي تكون التهنئة بصدده، وهذه العلة قد انعدمت بالكلية في الثقافة الإنسانية المعاصرة، فقد تجاوز النضج الإنساني هذه النظرة الضيقة وأصبح مفهوم التهنئة مرتبطًا بالبرّ وحسن الصلة وجميل التعايش بالمعروف، لهذا أصبح المسيحيون يهنِّئون المسلمين في أعيادهم الدينية ولم يكونوا يفعلون ذلك في العصور السابقة، والقاعدة الفقهية تقول: «الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا» أي أنَّ الحكم الشرعي الاجتهادي إذا لم يُبنَ على نصٍّ صريح وبُني على سبب مرتبط بواقع متغير فإنه يتغير بتغير هذا الواقع.

كما أن الأصل في الصلة بيننا وبين غير المسلمين الذين لم يقاتلونا هو العدل والإحسان فقد قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(١).

(١) سورة الممتحنة: ٨.



والخلاصة أن المسألة خلافية وعلة المنع (سببه) لم تعد قائمة في زماننا بل أصبحت دواعي التهنئة قائمة في مرحلة أصبح السِّلم المجتمعي فيها على المحك. وهنا يحضر قول الحافظ ابن القيم: «من لم يُحقق المناط على الزمان والمكان فقد ضلَّ وأضلَّ»، والمناط هو العلّة أو السبب في الحكم الشرعي، وتحقيقه هو إنزاله على الواقع.

وهنا تظهر أيضًا إشكالية استدعاء فتاوى علماء من بلاد لم تعرف التنوع الديني ولا طبيعة التعايش فيه لإنزالها على بلاد قامت تركيبتها السكانية وتأسَّس استقرارها على هذا التنوع، كما ظهرت إشكالية تطبيق أحكام قامت على علل وأسباب تغيرت بتغير الزمان.

ومع ذلك فمن لم يُرد أن يبرّ جيرانه بتقديم التهنئة فله حرية عدم تقديمها، ولكن أن يحرِّض الناس على ذلك بل ويتطاول على كبار أهل العلم والفضل الذين يجيزونها أمثال الإمام الأكبر شيخ الأزهر وفضيلة مفتي الديار المصرية السابق والحالي والإمام عبد الله بن بيه وغيرهم من كبار علماء الأمة فهذا تَعَدٍّ مرفوض.

وأما ما نشاهده من ورود تحريم التهنئة في سياق منظومة من التحريض على المواطنين من أهل الكتاب فهذا من الفتنة التي تصل

إلى حد الإخلال بأمن البلاد واستقرارها.

بل إنه نوع من التنفير البغيض لشباب المسلمين عن دينهم، وسبب من أسباب تشكيك الجيل في عظمة هذا الدين وسماحته فضلاً عن تنفير غير المسلمين، فشبابنا الذي يعيش في عصر استقرّ فيه الوعي الإنساني على الفصل التام بين تهنئة الناس في مناسباتهم الدينية وقضية إقرارهم على صحة معتقداتهم أو تبنيها، لا يتصورون بحال من الأحوال منطقية الربط بين التهنئة والإقرار بصحة المعتقد، وإن كان هذا الربط مُبرراً في ثقافة العصر الذي أفتى فيه العلماء بتحريم التهنئة.

لهذا ينبغي لنا أن نتقى الله في أوطاننا وشبابنا ولا نجعل من المسائل الاجتهادية التي تقبل النظر سبباً في الفتنة بطرحها وكأنها من المسائل قطعية الدلالة في الكتاب والسنة.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

وما أعظم حكمة أشياخنا من أهل الحديث حين كانوا يفتتحون تدريس الطالب الجديد بالحديث المسلسل بالأولية الذي يقول فيه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

من في الأرض يرحمكم من في السماء»[1].

اللهم انقلنا من ظلمة الوهم إلى نور الفهم، واجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مُضلين، ولا تجعلنا فتنة لعبادك عن سبيلك يا رب العالمين.



(١) مسند أحمد رقم ٦٤٩٤، سنن أبي داوود باب في الرحمة، سنن الترمذي باب ما جاء في رحمة المسلمين.

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ١ ـ ٢

[الثلاثاء ٠١/٠١/٢٠١٣]

الحمد لله على نعمة الإسلام

وفي هذه الخاطرة تأملتُ قول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1] متسائلاً:

١ ـ من هم الناس؟ هل هم من يتفقون معنا من المسلمين فقط؟ أم عموم المسلمين؟ أم الناس كل الناس؟

٢ ـ ما المقصود بالحُسْنِ في القول هنا؟ أهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ أم عرض الإسلام؟ أم أنه مُطلق الحُسْن؟

٣ ـ ما صلة هذا الأمر ببقية التعاليم الواردة في نفس الآية؟

٤ ـ هل هذه التعاليم متوجهة إلينا أم أنها خاصة ببني إسرائيل وهل الأمر بحُسْن القول للناس باق أم أنه منسوخ بآية السيف؟

(١) سورة البقرة: ٨٣.



ثم أبحرت في كتب المفسرين لأنظر في صحة نتاج هذا التأمل.

وقد يتساءل البعض: لماذا كل هذا؟ أليس حُسْن الخلق أمرًا فطريًّا لا يحتاج إلى بحث أو استدلال؟

والجواب: بالتأكيد هو كذلك، لكن ما نعانيه اليوم من تدهور أخلاقي واختلال في الاتزان النفسي، مع تسارعٍ في تتابع الأحداث، وحدّة في التصادم على مستوى الأفكار والقيم والأفراد والجماعات على مختلف الصُعُد الثقافية والمجتمعية والسياسية والاقتصادية والإعلامية.

كلُّ هذا مع ما نعانيه من تصدر فجّ لمشهد الخطاب الإسلامي في هذا التصادم، وارتفاع أصوات من لم يكتمل لديهم الحد الأدنى من التأهل الشرعي والنفسي، وانحراف بعض نبرات خطابهم عن الهدي النبوي، بل ومحاولة إعطاء هذا الانحراف نوعًا من المشروعية بالاستناد إلى بعض النصوص على نحو مُحرّف لسياقها وفاقد لاستيعاب دلالاتها اللغوية الأدبية في ذات السياق. وذلك كلّه لتبرير هذا الانحراف دون تنبّه أو التفات إلى ما يسببه هذا العبث من اهتزاز ثقة الجيل بدينه العظيم وتعطيله عن ارتقائه في معارج قيمه السامية.

لكل هذه الأسباب أجدني بحاجة إلى التعامل مع معضلة



توضيح الواضحات وهي من أعظم المشكلات كما يُقال. فلنمضِ إلى خوض غمار إيضاح المعضلة بالإجابة عن هذه الأسئلة:

۞ السؤال الأول:

من هم الناس؟ هل هم من يتفقون معنا من المسلمين فقط؟ أم عموم المسلمين؟ أم الناس كل الناس؟

والجواب:

الآية جاءت مخبرة عن ميثاق أخذه الله على بني إسرائيل، وقد سبق أن أنكر الله على طائفة منهم حين جعلوا الالتزام بالقيم مشوبًا بالعنصرية، فيكون الالتزام بالقيم واجبًا حين يكون التعامل مع بني جنسهم ويُبرَّر عندهم انتهاكُها عند التعامل مع الآخرين من غيرهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[1] فكيف يُستساغ أن يأخذ الله عليهم ميثاقًا يمكن أن يُفهم منه قبول هذا النوع من التحيّز في القيم؟

يتضح من هذا أن المقصود هنا هو عموم الناس لأن المبادئ لا تتجزأ.

وعند النظر في كتب التفسير وجدت نقلاً لبعض الأقوال التي

---

(١) سورة آل عمران: ٧٥.





وقعت في فخ التجزئة للمبادئ غير أن الترجيح كان لتأكيد أنّ المبادئ ثابتة.

وهنا ينبغي أن نفهم عند قراءة كتب المفسرين أن الكثير منهم التزموا نقل الأقوال المتعددة احترامًا لأمانة النقل ورعاية لقيمة التنوع وفتحًا لأبواب النظر والتحليل وهذا منهجٌ راقٍ.

لكن للأسف جرى تشويه هذا المنهج في ظل فوضى الخوض في الخطاب الإسلامي دون احترام المنهجية والتخصص، وعشوائيةِ بناء المفاهيم الشرعية لتسكين الأفكار المنفعلة في ثنايا هذه العشوائيات، وإعطائها صفة الوجود المجتمعي عبر انتشارها بقوة فرض الواقع وقانون وضع اليد.

والقائلون بأن الأمر الإلهي هنا يشمل جميع الناس هم: الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والإمام محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين، وعطاء بن أبي رباح، كما نقل ذلك عنهم الحافظ السيوطي في الدر المنثور وهو ما ذهب إليه كل من شيخ المفسرين ابن جرير والإمام الفخر الرازي والإمام الجيلاني والحافظ ابن كثير والإمام ابن حيان الأندلسي والإمام القرطبي والإمام الماوردي والإمام الصاوي والإمام البروسوي والإمام البقاعي والطاهر بن عاشور في تفسيرهم للقرآن العظيم.



وما أحوجنا إلى تأمل عبارة الإمام القرطبي في تفسيره للآية حيث قال: «فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لَيِنًا ووجهه منبسطًا طَلْقًا مع البَرّ والفاجر، والسُّني والمبتدع، من غير مداهنة».

إذًا، ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ تشمل عموم الناس.

السؤال الثاني:

ما المقصود بالحُسْن في القول هنا؟ أهو مُطلق الحسْن؟ أم أنه مقصور على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعرض الإسلام؟

الواضح من السياق هنا عموم الحسن وشموله لكل ما يمكن أن يكون حسنًا، دون تخصيصه بجزء دون آخر لأن ما سبق هذا الأمر كان به تخصيص لأنواع من المعاملة الحسنة التي تشمل القول والفعل كالإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين فلا يستقيم أن يأتي بعد ذلك أمر عام يُقصد به أمر خاص، وقد ورد النص بقراءتين: حُسنًا وحَسنًا لتأكيد الأمر والمبالغة فيه كما قال الإمامان البغوي والبيضاوي في تفسيريهما.

وعلى الرغم من وجود روايات منسوبة لابن عباس رضي الله عنهما تشير إلى ارتباط المعنى بالإفصاح عن صدق رسالة سيدنا محمد غير أن الحافظ ابن كثير في تفسيره نبه على أن تفسير البعض معنى «الحُسن»

هنا بتفسيرات خاصة لا يُلغي عموم المعنى بل يندرج ضمنه فقال: «أي كلموهم طيبًا، ولينوا لهم جانبًا»، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، فالحسْن من القول يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلم ويعفو ويصفح، ويقول للناس حسنًا؛ كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

وصرح الإمام الشوكاني في تفسيره بتأكيد أنه المعنى العام، بقوله: «والظاهر أن هذا القول الذي أمرهم الله به لا يختص بنوع معين، بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعًا كان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر».

كما نقل الحافظ ابن الجوزي في تفسيره عن الإمام محمد الباقر ما يفيد تأكيد ارتباط المعنى بمفهوم عدالة المبادئ حيث يقول الإمام الباقر: «كلموهم بما تحبون أن يقولوا لكم».

بل لقد استدل بعض السلف بالآية على جواز إلقاء السلام على اليهود والنصارى كما ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره: عن أسد بن وداعة أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديًا ولا نصرانيًا إلا سلم عليه، فقيل له: ما شأنك تسلم على اليهودي والنصراني؟ فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وهو السلام.

وروي عن عطاء الخراساني نحوه.

إذًا، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ تشمل عموم القول الحسن وليست مقتصرة على نوع منه كما يزعم البعض.

وللحديث بقية في الجزء الثاني من الخاطرة إن شاء الله.



﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ٢ ـ ٢

[الأربعاء ٠٢/٠١/٢٠١٣]

الحمد لله

أكرر اعتذاري للقارئ الكريم على إشغال وقته في قراءة ما يبدو محاولة لإثبات أن الإسلام يأمر بحسن الخلق! قد مر في الجزء الأول من الخاطرة أن المقصود بقوله تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ هو عموم الناس وعموم الإحسان. وبقى أن نجيب عن السؤالين الأخيرين من الأسئلة الأربعة:

۞ السؤال الثالث:

ما صلة هذا الأمر ببقية التعاليم التي في نفس الآية؟

والجواب:

تأملوا معي سياق الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ

وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

فقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بالعهد التالي:

١ ـ أن يوحدوه ولا يعبدوا غيره.

٢ ـ أن يحسنوا تعاملهم قولاً وعملاً مع الدوائر المحيطة بهم حسب درجة الصلة: (الوالدين فالأقارب فالأيتام فالمساكين).

٣ ـ أن يقولوا حُسْنًا للناس، كل الناس.

٤ ـ أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

ثم عاب عليهم إعراضهم عن الالتزام بالميثاق.

وهنا نلاحظ عظمة الخطاب من جوانب عدة:

* جمع التوجيه الإلهي هنا بين الإحسان الفعلي والقولي كما ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره.

* قدم الله إحسان القول والفعل على الصلاة والزكاة مع أنهما من أهم الفرائض بل هما من أركان الإسلام!

وكأن الحق تعالى ينبهنا إلى أن الفرائض لا تستقيم ولا تثمر دون حسن المعاملة مع الخلق، وهذا درس عظيم ما أشد حاجتنا إليه اليوم.

---

(١) سورة البقرة: ٨٣.

وما أعذب عبارة الشيخ العارف أحمد بن عجيبة الحسني في تفسيره البحر المديد حيث يشير إلى هذا المعنى بقوله: «وأخذ العهد على المتوجهين أن يكلموا الناس بالملاطفة والإحسان، ويرشدوهم إلى الكريم المنان، ويقيموا الصلاة بالجوارح والقلوب، ويؤدوا زكاة نفوسهم بتطهيرها من العيوب».

تنبيه :

يؤكد هنا الطاهر بن عاشور في تفسيره ضرورةَ أن يكون حسن القول نابعًا من اعتقاد القلب بما ينطق به اللسان وليس مجرد المجاملة اللفظية، قال رحمه الله: «وجعل الإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به وذلك أنَّ أصل القول أن يكون عن اعتقاد، فهم إذا قالوا للناس حسنًا فقد أضمروا لهم خيرًا وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

كما نبهنا الله إلى أننا إن عجزنا عن مساعدة كل الناس مساعدة عملية، فلا ينبغي أن نبخل عليهم بحسن المعاملة والقول الحسن

(١) صحيح البخاري باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، صحيح مسلم باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير.

وبذل النصيحة، قال الإمام البقاعي في تفسيره: «ولما لم يكن وسع الناس عامة بالإحسان بالفعل ممكنًا أمر بجعل ذلك بالقول».

ومن جميل النظرة المستوعبة للسياق قول الشيخ ابن عجيبة في تفسيره: «ذكر الحق تعالى في هذا العهد أربعة أعمال: عمل خاص بالقلب، وهو التوحيد، وعمل خاص بالبدن، وهو الصلاة، وعمل خاص بالمال، وهو الزكاة، وعمل عام وهو الإحسان، ورتَّبها باعتبار الأهم فالأهم، فقدّم الوالدين لتأكيد حقهما الأعظم، ثم القرابة لأن فيهم أجر الإحسان وصلة الرحم، ثم اليتامى لقلّة حيلتهم، ثم المساكين لضعفهم».

۞ السؤال الرابع:

هل هذه التعاليم متوجهة إلينا أم أنها خاصة ببني إسرائيل، وهل الأمر بحسن القول للناس باق أم أنه منسوخ بآية السيف؟

والجواب:

عند تأمل السياق يظهر جليًّا أن التعاليم التي في الآية ثبت توجيهها إلينا في الشريعة الإسلامية. فقد أمرنا الله بتوحيده وبالإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين وبالصلاة والزكاة، وجاء الأمر بحسن القول لجميع الناس في وسط هذه

التعاليم، فكيف يُستساغ استثناء هذا الأمر من بينها باعتبار أنه خاص ببني إسرائيل أو أنه منسوخ بآية السيف؟

وكيف يقبل عاقل اعتبار الأمر بحسن الخلق شرعًا خاصًّا ببني إسرائيل ولا يكون في شريعة الإسلام السمحة الخاتمة للشرائع؟ أم كيف يقبل عاقل اعتبار الأخلاق والقيم محلاً للنسخ والتغيير وهي من ثوابت الفطرة السليمة؟ لا سيما أن النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قد قال: «إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاق»[1].

وعند تأمل كتب التفسير نجد أن جمهور المفسرين يعتمدون القول بأن هذه التعاليم تشمل الأمة المحمدية وأنها باقية ولم تُنسخ بالرغم من نقلهم بعض المرويات التي تقول بخلاف ذلك. وقد جزم بذلك الإمام الألوسي في «روح المعاني» بعد نقل الأقوال المروية إذ قال: «ومن قال إن المخاطب به الأمة وهو محكم أو منسوخ بآية السيف أو إن (الناس) مخصوص بصالحي المؤمنين إذ لا يكون القول الحسن مع الكفار والفساق لأنا أمرنا بلعنهم وذمهم ومحاربتهم، فقد أبعد».

وقد أورد الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير والإمام ابن حيان الأندلسي في البحر المحيط أدلة من القرآن تؤكد شمول الأمة

(١) مسند البزار ١٥/٣٦٤.

المحمدية بهذه التعاليم السامية وبقائها دون نسخ، إذ قالا: وزعم أبو جعفر محمد بن علي الباقر أن هذا العموم باق على ظاهره وأنه لا حاجة إلى التخصيص، وهذا هو الأقوى والدليل عليه أن موسى وهارون مع جلال منصبهما أُمِرا بالرفق واللين مع فرعون، وكذلك محمد صلى الله عليه وآله وسلم مأمور بالرفق وترك الغلظة؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(٤)].

ونبّه الشيخ العارف ابن عجيبة على أن هذه التعاليم السامية إنما تذكر في القرآن لنأخذ منها العبرة فقال في تفسيره: «كل عهد أخذ على بني إسرائيل يؤخذ مثله على الأمة المحمدية، وهذا حكمة ذكر قصصهم لنا، وسرد مساوئهم علينا لنتحرز من الوقوع فيما وقعوا فيه، فنهلك كما هلكوا».

وأخيرًا، بعد أن اتضح من قوله تعالى ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٨.

(٣) سورة الفرقان: ٧٢.

(٤) سورة الأعراف: ١٩٩.

حُسْنًا﴾[١] أنّ الآية:

١ ـ تشمل جميع الناس، وليست خاصة بمخاطبة الصالحين أو المؤمنين.

٢ ـ تعني عموم معاني الإحسان، وليست مقتصرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

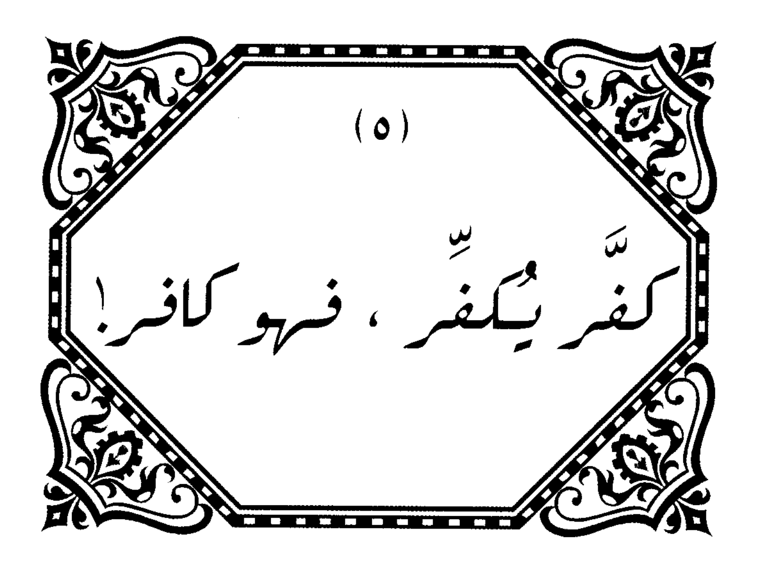
٣ ـ ثابتة في الشريعة الإسلامية، وليست خاصة ببني إسرائيل.

٤ ـ محكمة باقية، وليست منسوخة.

أقول لإخوتي الذين حاولوا تبرير بذاءة ما نطقت به ألسنتهم بإلصاقها بشرع الله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.



(١) سورة البقرة: ٨٣.



(٥)

كَفَّرَ يُكَفِّرُ، فهو كافر!

الكـافـر



[الأربعاء ٠٦/٠٣/٢٠١٣]

الحمد لله

كثر الحديث هذه الأيام عن كلمة «كافر» وتعرض هذا المصطلح لعبثية فوضى الخطاب المعاصر وجنح بعض الناس في التعامل مع هذه الكلمة بأنماط متعددة من التطرّف. ففريق أفرط في إطلاقها على كل من خالف فهمه للدين من أبناء دينه فضلاً عن غيرهم. بل أطلقها بعض العابثين على من يخالف مواقفه السياسية.

مع أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حذّر منها فيما رواه البخاري ومسلم: «أيما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما»(١)، وزاد مسلم في رواية أخرى: «إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»(٢).

ومنهم من زاد على ذلك بأن جعل من لوازمها القتال

(١) صحيح البخاري، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، صحيح مسلم باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر.

(٢) صحيح مسلم، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر.

والتعدي، وكأن الدين يقوم على الإكراه أو أن مجرد الكفر يبيح الدم والعرض والمال، وهذا باطل مخالف لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1]، وقد أخطأ من قال بأن الآية منسوخة لأنها نزلت في المدينة المنورة بعد الإذن بقتال الكفار المعتدين.

وفريق آخر فرّط ورفض الاعتراف بهذه الكلمة على الرغم من كونها ثابتة بنص القرآن، ولعله يعيش حالة ردة فعل تجاه الفريق الأول مع عدم تمييزه بين الكفر وتبرير القتال.

والمعنى اللغوي للكُفر هو الستر والتغطية، ولهذا يُسمى المزارع كافرًا لأنه يستر البذور ويغطيها بالتراب حين يدفنها؛ كما يُسمى الليل كافرًا لأنه يستر الأشياء بظلمته ويُغطيها.

ولهذا أيضًا يُسمى الجحود كُفرًا لأن صاحبه يستر الحقيقة ويغطيها بإنكاره لها، ويسمى القار (الزفت) الذي تُطلى به السفن كُفرًا، وكذلك يُسمى التراب لأنه يغطي الأشياء حين يدفنها، وكذلك الأرض البعيدة لأنها لا تُرى والقرية الصغيرة لأنها لا تكاد تُذكر.

وهذا اللفظ انتقل إلى اللغة الإنكليزية في التعبير عن الغطاء: «Cover».

(١) سورة البقرة: ٢٥٤.

وهناك معنى شرعي للكفر اختلط فهم الناس له بالعُرف المعتاد في تناول الكلمة وهو ما ينبغي توضيحه وإزالة اللبس المتعلق به وتبيين ما يترتب عليه من حكم دنيوي وحكم أُخروي وهو على النحو الآتي:

* هناك فرق بين الدلالة الشرعية للكلمة والدلالة العُرفية.

فالمجتمع المصري، على سبيل المثال، يتعامل معها عرفًا على أنها سُبّة يُشتم بها من اشتد جحوده وظلمه، ولهذا تجد في اللهجة المصرية عبارات مثل: «دول عالم كَفَرة»، «يا كفرة»، «انت هتخليني أكفر»، وبالطبع السلامة تقتضي تجنّبها.

والدلالة العرفية لها اعتبار في الشرع يدعو إلى الانتباه لحساسيتها، ولذلك قَبِل أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من قبيلة تَغْلِب طلبهم حين اشترطوا عليه تسمية الجزية بالصدقة لأن دلالة الجزية حملت عندهم معنى الإهانة لمكانتهم بين قبائل العرب.

* وأما الدلالة الشرعية فهي على خمسة أقسام:

١ ـ **كفر دون كفر**: وهو يُطلق للتغليظ ومرتكبه لا يخرج عن الإسلام ولكنه يرتكب نوعا من الجحود في المعاملة ومثاله قول النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «اثنتان في الناس هما بهم كفر، الطعن في

النسب والنياحة على الميت»[1]؛ فاتهام الناس في أنسابها والنياحة على الميت من المعاصي المتعلقة بالجحود، ولكن ليست مخرجة من الإسلام، ومرتكبها مسلم مذنب عاصٍ.

٢ ـ **كافر منافق**: وهو الذي يتظاهر بالإسلام ويُبطن الكفر: وحكمه في الدنيا حكم المسلم لأن ما في القلوب غيب والأحكام الشرعية في الدنيا تُطبّق على الظاهر والأصل في التعامل فيها مع الإنسان على أساس حسن الظن وافتراض الصدق فيه ما لم يثبت خلاف ذلك، وقد كان المنافقون يُصلّون خلف النبي وهو يعرفهم فلا يمنعهم، لأن التفتيش عن النوايا ليس من مهمتنا.

وإنما وردت الأحاديث التي تذكر صفات النفاق لتحذيرنا من الوقوع فيها حتى لا يتسلل داء النفاق إلى قلوبنا بسببها والعياذ بالله، ومن ذلك قول النبي الكريم: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أُؤتمن خان»[2]، فمن تكرر وقوعه في ذلك فقد اتصف بصفات النفاق. وأما الحكم الأخروي: فهو أنه كافر: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[3].

٣ ـ **كافر بجهالة**: وهو حال أكثر أهل الأرض الذين لم يصلهم

(١) صحيح مسلم، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة.

(٢) صحيح البخاري باب علامة المنافق، صحيح مسلم باب بيان خصال المنافق.

(٣) سورة النساء: ١٤٤.

الإسلام على نحو واضح يُقنع العقل ويطمئن له القلب ويسلم من التشويش.

وحكمه في الدنيا: أنه كافر بمعنى أنه لا تنطبق عليه أحكام المسلم في النكاح والميراث والصلاة عليه عند موته وغير ذلك من أحكام الجنائز، ولا يُخاطب بالالتزام بالأحكام الشرعية التي يلتزم بها المسلم كالصلاة والزكاة والحجاب.

وأما الحكم الأُخروي: فالذي يظهر أنه يدخل في حكم أهل الفترة الذي يتبيَّن من قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]، وهذا واضح الانسجام مع العدالة الإلٓهية والرحمة الربانية.

٤ ـ **كافر معاند:** وهو من بلغته الرسالة دون تشويش قولي أو عملي يحجب عنه وضوح صدقها ومع ذلك أصر على الكفر بها وإنكارها جحودًا على الرغم مما استقر في عقله وقلبه من الاقتناع بصحتها والتصديق بها كما في قول الحق سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2].

وهذا يضاف في حقه إلى الحكم الدنيوي السابق الحكم الأخروي بأنه من أهل النار إن مات على حالته تلك كما أخبر القرآن

(١) سورة الإسراء: ١٤.
(٢) سورة النمل: ١٤.





الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

وجميع هذه الأنواع لا يجوز الاعتداء عليهم ولا قتالهم بسبب كفرهم ولا إرغامهم على الإسلام لأن الدين لا يكون بالإكراه وإنما بالاختيار، فالإيمان قناعة عقلية واعتقاد قلبي، والله تعالى يقول:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[2]

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ..﴾[3].

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[4]

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[5].

٥ - **كافر حربي**: وهو الذي يجمع مع صفة الكفر صفة

---

(١) سورة البقرة: ٣٨.

(٢) سورة يونس: ٩٩.

(٣) سورة الكهف: ٢٩.

(٤) سورة الروم: ٤٣.

(٥) سورة لقمان: ٢٢.

الاعتداء بالقتال إما بمباشرته أو بالتحريض الحقيقي عليه أو بالتخطيط الثابت له أو بمنع الناس حقهم في اختيار الإيمان والإصرار على إجبارهم على الكفر وهؤلاء يضاف إلى الحكم بكفرهم دنيويًا، وأخرويًا إن ماتوا على ما هم عليه، الحكم بجهادهم بالقتال المباشر لمن اعتدى، وبالتخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال في حق من يحرض أو يخطط أو يمنع الناس حقهم في حرية الاختيار، وعليه تُحمل جميع آيات القتال التي يُذكر فيها الكفر بدليل أن النبي الكريم وصحبه البررة تعاملوا مع من لم يكن هذا حاله بغير القتال وقد توفي الحبيب المصطفى ودرعه مرهونة عند يهودي. وبهذا يتضح أن مجرد الكفر ليس سبباً للقتال ولا مبرراً له.

هذا هو مفهوم كلمة «كافر» لغة وشرعًا. وبقي تأكيد خطورة الفوضى الحاصلة في تصدُّر غير المؤهلين لاعتلاء المنابر والتدريس في المساجد وعقد الندوات والظهور في الفضائيات مما جعل كل من هبَّ ودبَّ يستشهد بآيات القرآن ونصوص السنة في نشر الفتنة والكراهية واستباحة الدماء.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

اللهم اجعل نفوسنا مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة يا كريم.



التكفير السياسي

[الأحد ١٦/٠٦/٢٠١٣]

الحمد لله

الحكم بكفر إنسان بعينه أمرٌ بالغ الخطورة، إلى حدٍّ من الجدية جعلت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يضع المكفِّر بين خيارين لا ثالث لهما:

إما أن يكون الحكم صحيحًا أو أنه يرتدُّ على من أطلقه وذلك من حديث البخاري ومسلم: «أيُّما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه»(١).

بل إنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدَّ التكفيرَ جريمةً تعادل جريمة القتل وذلك من حديث البخاري أيضًا: «ولَعْنُ المؤمن كقتلِه، ومن رمى مؤمنًا بكفرٍ فهو كقتلِه»(٢).

(١) صحيح مسلم، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر.

(٢) صحيح البخاري، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال.

ومن المعلوم أنَّ قتل إنسان واحد كقتل الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(١).

لذلك فإنَّ الحكمَ على إنسان بالكفر لا يجوز إلا في ثلاث حالات فقط:

* **الأولى**: أن يعلن كفره بنفسه.

* **الثانية**: أن يرتكب فعلاً من صريح الكفر على نحو لا يقبل التأويل كمن يتعمد إهانة المصحف على نحو صريح بوضعه تحت القدم أو وضع نجاسة عليه والعياذ بالله.

* **الثالثة**: استحلال محرم مقطوع بتحريمه كمن يقتل نفسًا معصومة وهو مصرٌ على أن قتلها مباح.

حتى أن العلماء رفضوا الحكم على من يسجد لغير الله بالكفر أو الشرك حتى يُسأل عن نيته من السجود، فإن قال إنه نوى عبادة المخلوق الذي سجد له فقد «أشرك» شركًا يُخرجه من الملّة، وإن قال إنما قصدت بذلك التحية والاحترام فقد ارتكب «إثمًا» لا يُخرجه من الملة، لأن سجود التحية والاحترام حرام في شريعتنا، وقد كان في الشرائع السابقة جائزًا على سبيل الاحترام كما فعل نبي

---

(١) سورة المائدة: ٣٤.



الله يعقوب وزوجه وأولاده لابنه يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾[1]. والشرائع لا تختلف في العقائد وإنما يكون اختلافها في الأحكام «يجوز أو لا يجوز».

وكان أول من ارتكب جريمة تكفير المسلم هم الخوارج الذين برروا نقضهم للعهد الذي بينهم وبين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بتكفيره، فكان هذا التكفير مرتبطًا بقصد سياسي وهو تبرير الانشقاق السياسي واستباحة الاغتيال، وهو ما حصل بالفعل فقد كان قاتل أميرِ المؤمنين وابنِ عم سيد المرسلين الإمامِ علي يعتبر نفسه مناصرًا لدين الله ومدافعًا عن شرع الله بقتله لمن حكم هو وجماعته بتكفيره، بينما رفض الإمام علي تكفيرهم بالرغم من خروجهم عليه.

ومن ذلك العصر ظهرت حركات وجماعات استباحت قتل مخالفيهم السياسيين عبر مقدمة تكفيرهم كالفِرَقِ الباطنية.

وعلى الرغم من أن مطلق الكفر لا يبيح القتل إلا إذا اقترن بالعدوان، غير أن الجهل بالدين يجعل الشريحة الجاهلة قابلة للتعبئة المغلوطة التي تؤدي إلى القتل، لا سيما إذا اقترنت بالمشاكل النفسية أو السخط على المجتمع.

وفي عصرنا شاهدنا أمثلة حيّة لاقتران التكفير بالقتل، كاغتيال

(١) سورة يوسف: ١٠٠.



فرج فودة ومحاولة اغتيال نجيب محفوظ اللَّذين مهما اختلفنا حول الأفكار التي طرحاها فإن هذا لا يُبيح ارتكاب جريمة اغتيالهما ولا يُبررها.

ومن الملاحظ اليوم أن المشهد يُكرّر نفسه لدى متطرفي الشيعة الذين يُصرّحون بإهدار دم السنة «الوهابية»، ومتطرفي السنة الذين يستبيحون دم الشيعة «الروافض» عبر مقدمة سابقة للقتل ألا وهي التكفير.

وعندما نسمع من يدّعون العلم ويلبسون ثوب المشيخة الشرعية، والعلم والشريعة من أقوالهم براء، وهم يرمون مخالفيهم السياسيين بالكفر فإن ذلك ليس له إلا معنى واحد هو التحريض على القتل.

لهذا عدَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم التكفير بمرتبة القتل. ولهذا فنحن بحاجة إلى سنّ قوانين تُجرِّم التكفير وتُعاقب مرتكبه حقنًا للدماء وصيانة للدين من جهل الجاهلين وتلاعب المتلاعبين.

وقد بلغ الضلال بأحد الخوارج أنّه سمع خطبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فخرج وهو يقول: ما أفقه هذا الكويفر! (كويفر: تصغير كافر).

لست مؤيداً للنظام أو المعارضة السياسية فلست سياسياً،

ولكل من الناس حق الاختيار غير أن إقحام التكفير على الخلاف السياسي هو اعتداء صارخ على الشريعة المطهرة لا يسع طالب العلم السكوت عنه.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه وأزل العمى عن البصائر ونقِّ السرائر وأصلح الضمائر يا مُقتدر يا قادر.



هل نحن جادّون في مواجهة الفكر التكفيري؟



[الأربعاء ٢٢/٠٥/٢٠١٣]

الحمد لله

دعا شيخنا الإمام عبد الله بن بيّه عبر مؤسسته «التجديد والترشيد» عام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م بالتعاون مع جامعة «أرتوكلو» التركية ومؤسسة طابة، إلى مؤتمر في بلدة ماردين في الجزء التركي من كردستان لتدارس أحد أهم أسس العلاقات بين المسلمين وإخوانهم في الإنسانية؛ وهي تصنيف الديار في التصور الإسلامي وما يرتبط به من مفاهيم كالجهاد والولاء والبراء والمواطنة والهجرة ومناقشة فتوى الشيخ تقي الدين ابن تيمية الشهيرة «بفتوى ماردين» التي استنبط فيها حكمًا جديدًا للتقسيم الفقهي للعالم إلى دار كفر ودار إسلام ودار عهد؛ حيث اعتبر «ماردين» دار كفر من جهة كون حكامها من التتار ودار إسلام من جهة كون أهلها مسلمين.

وطرح الإمام ابن بيّه في المؤتمر إعادة النظر في هذا التقسيم الموروث بسبب تغير المسار السياسي للعلاقات الدولية ووجود

اتفاق على معاهدات الأمم المتحدة التي نقلت العالم إلى مرحلة التعايش السلمي بالرغم من وجود خروقات من بعض الدول.

وتحفّظ الإمام ابن بيّه على كلمة في النسخة المطبوعة للفتوى الشهيرة في موسوعة فتاوى ابن تيمية وطالب بإعادة النظر في صحتها لعدم مناسبتها لسياق العبارة، فاعترض د. أحمد الريسوني عضو مجمع الفقه الاسلامي بأن هذه الملاحظة قد تفتح باب التشكيك في المصادر التراثية، فأجابه الإمام ابن بيّه بأن هذا تساؤل مشروع ومراجعة النص فيها خدمة للتراث بتحقيقه.

وطلبنا صورة للفتوى من المخطوط الوحيد لفتاوى شيخ الإسلام من المكتبة الظاهرية بدمشق وعند مراجعتها وجدنا أن تَحفُّظ الإمام ابن بيّه كان في محله تماماً؛ إذ إنَّ نصّ العبارة في المطبوع: «يُعامل المسلم فيها بما يستحقه و«يُقاتَل» الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه»، وكان التحفّظ على كلمة «يُقاتَل»، فإذا بالنصّ في المخطوط: «يعامَل المسلمُ فيها بما يستحقه و«يعامَل» الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه»!

وظهر أن تحريف هذه الكلمة في النسخ المطبوعة على مدى ١٠٠ عام كان أحدَ أهم مبررات التكفيريين من أصحاب المفهوم المنحرف للحاكمية في سفك الدماء وإزهاق الأرواح!



وقد كتب الإمام العلّامة علي جمعة مفتي مصر السابق مقالاً حول المسألة وصدرت عن دار الإفتاء فتوى متعلقة بالموضوع. رابط الفتوى: www.dar-alifta.org/ViewFatwa.aspx?ID=3757.

وعلى الرغم من أنّ هذا التصويب لِما حُرِّف من فتوى ابن تيمية ينطوي على إنصافه مما نسب إليه افتراءً، فإنّ رد فعل التكفيريين كان شديداً لكونه يمس مشروعيتهم! فكتبوا ثلاثة مؤلفات لمحاولة الرد على مؤتمر «ماردين» ضمن حملة شعواء لتشويه المؤتمر ومحاولة إلصاق التهم به، وبالطبع كانت قناة الجزيرة في طليعة هذه الحملة التشويهية للمؤتمر من خلال تقريرها الإخباري الذي أخذ مراسلها فيه يلمز المؤتمر بأنه لم يلقَ ترحيبًا لدى أهل «ماردين» وذلك لقلة الحضور متجاهلاً كون المؤتمر تخصصيًا وليس جماهيريًا، ومتجاهلاً أن علماء «ماردين» قد شاركوا في المؤتمر، بل لقد شارك في الحملة المضادة بعض الذين شاركوا في صياغة بيان المؤتمر بعد تعرضهم لانتقادات المتشددين!

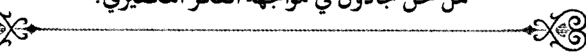
هذا كله وأنظمتنا التي تعلن محاربتها للإرهاب في سبات عميق وتجاهل كلي لهذا المؤتمر ونتائجه القيّمة، وكذلك كان حال مجامعنا الفقهية ومؤسساتنا الدينية وغالب إعلامنا المرئي والمقروء. لذلك أصبح السؤال الملح اليوم هو:

هل نحن جادّون في مواجهة الفكر التكفيري؟

وإليكم بعض المقترحات لما ينبغي التركيز عليه في حال كوننا «جادين» في المعالجة:

* **أولاً**: أن تتوقف الأنظمة والتنظيمات «فورًا» عن التعامل مع الفكر التكفيري بصفته أداة من أدوات لعبة التوازنات السياسية فيدعمه البعض تارة ويهاجمه تارة أخرى، ويوفر له البعض في وقت من الأوقات المناخ الخصب للتكاثر والانتشار ليستثمره في المقايضات السياسية في وقت آخر ولا مانع لديه في أن يقاتله حينئذ، وهذا ما جرى في عدد من دولنا خلال العشرين سنة الماضية.

* **ثانيًا**: أن تتصدّى المؤسسات الشرعية التعليمية منها والدعوية على نحو جاد ومعلن لهذا الفكر الضالّ عبر دراسات شرعية قوية الاستدلال، راسخة القدم في التحقيق الفقهي وتناول الشبهات التي يُضل بها قادةُ هذا الفكر فلذات أكبادنا لينتزعوا منهم انتماءهم ويحولوهم إلى قنابل موقوتة تنفجر هنا وهناك، ثم تُنشَر هذه الدراسات وتُدرَّس في المدارس والمساجد ووسائل الإعلام، وتُناقش عبر ندوات حوارية بحضور الرموز الدينية لهذا الفكر الضالّ ومشاركتهم ليظهر الصحيح من السقيم ويرجع الصادق منهم إلى الحق ويُفحَم صاحب الهوى على الملأ، مع التوقف عن استضافتهم في وسائل الإعلام منفردين دون وجود من يرد عليهم.



* **ثالثًا:** أن يُجاهِر العلماء والدعاة برفضهم لهذا الانحراف ويقوموا بدورهم التوعوي دون تردد أو خوف من التهديدات، فقد أخذ الله علينا العهد بتبيين الحق وحذّر من يكتم العلم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[1].

وإذا تواتر الصادعون بالحق في الذبّ عن حُرمة هذا الدين فلن يستطيع خفافيش الليل أن يقاتلوا جموع العلماء والدعاة.

* **رابعًا:** أن تكون لدينا شجاعة الاعتراف بمشاركتنا من حيث لا نقصد، علماء وحكومات وتنظيمات وإعلاميين ومثقفين، في تهيئة المناخ المناسب لانتشار هذا الفكر الضالّ بإهمال تفقّه أجيال من الأمة بأحكام دينها، لتصبح بذلك الإهمال فريسة لكل من يدّعي الجهاد في سبيل الله، لا سيما في ظل غضب الشباب من الضعف والهزيمة والتخلف والفساد الذي نعيشه.

* **خامسًا:** أن نعمل جادين على إعادة الاعتبار للمؤسسات الشرعية العريقة وعلى رأسها الأزهر الشريف وجامعة الزيتونة وجامع القرويين ومدرسة حضرموت والمدرسة الشامية ومحاضر موريتانيا ودور العلم في القارة الهندية وخلاوي السودان وتوفير الدعم الكافي

---

(١) سورة البقرة: ١٥٨.

لاستقلالها المالي والإداري، مع كفّ أيدي أصحاب الأفكار والمشاريع المخالفة لها عن العبث بها أو بمناهجها الراسخة عبر القرون، وضرورة إخراجها من معترك التنافس السياسي على السلطة ليكون ترشيدها للسياسة مستقلاً كما هو الشأن في الاقتصاد والاجتماع وبقية شؤون الحياة.

* **سادسًا**: عدم الاقتصار على الحلول السطحية السريعة التي لا تزيد المعضلة إلا تعقيدًا ولا تزيد الأوهام في نفوس الشباب إلا تأكيدًا، ومن ذلك الاكتفاء بتفويض الأمر إلى الأجهزة الأمنية وحدها، وإن كانت الحلول الأمنية الناضجة مهمة، لكننا جرّبنا الفشل الذريع الذي تسببنا فيه بتحميل أجهزة الأمن فوق طاقتها في ذلك أو البحث عن الحلول الجاهزة أو الاختيارات الفردية في صنع القرار المتعلق بتصحيح الأفكار، فإقناع الإنسان بالعدول عن فكر اعتقد صوابه صناعة أعمق من هذا بكثير.

* **سابعًا**: التخلص من «توهم» البعض إمكانية الاستفادة من إخفاقات «الإسلاميين» بتوظيفها في صناعة جيل يُلقي بالدين وراء ظهره لينصهر في بوتقة النموذج المعرفي الغربي الذي يظن أصحابه أنه قد نجح في صبغ العالم بصبغته، وأنه يمثل نهاية التاريخ التي سوف يؤدي الاختلاف معها إلى حتمية «صدام الحضارات»، فإن الاستمرار في الركض وراء هذا السراب لن يُفلح في شيء سوى

تعميق التطرّف باتجاهَيه الديني واللاديني، وسوف يضيف إلى مصائب التطرف التكفيري كوارث التطرف الإلحادي.

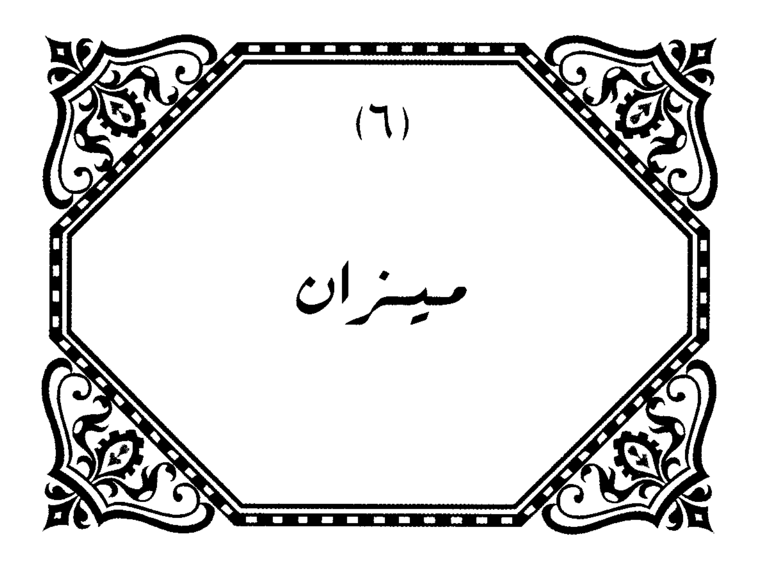
* **ثامنًا**: العمل الجاد على تجديد نموذجنا المعرفي ومنظورنا الثقافي المنطلق من هويتنا والمستوعب لمتغيرات زماننا ليشكل للأجيال القادمة معينًا ينهلون منه فيقابلون المجتمعات الإنسانية بثقة تُخرجهم من ثنائية التحجّر والذوبان إلى همّة التعايش القائم على المشاركة، وطموح الإسهام في تطور المجتمع الإنساني.

وأخيرًا، أُذكّر نفسي ومن يقرأ بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١)؛ وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٢).

اللهم اجعلنا هادين مُهتدين غير ضالّين ولا مُضلّين برحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٢) سورة النحل: ٩٢.


(٦)
ميزان

رجلٌ تعدَّى على سيِّدنا

[الأربعاء ١٣/٠٢/٢٠١٣]

الحمد لله

صدمَ الصحابةَ رضي الله عنهم وهو يهاجم النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ويأخذ بتلابيبه ويسبُّ قبيلته صارخًا في وجهه الأنور: «ألا تقضيني يا محمد حقي»؟ «فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب لَمُطل، [أي تؤخرون الوفاء بالدَين] ولقد كان لي بمخالطتكم علم».

فتطاير الغضب من عيني عمر وينتفض جسمه وهو يقول: يا عدو الله! أتقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أسمع، وتصنع به ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوتَه لضربت بسيفي رأسك!

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسُّم، ثم يقول: «أنا وهو كنّا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التِّباعة» [أي طلب الدَين]. «اذهب به يا عمر فاقض حقه وزده عشرين صاعًا مكان ما رعْتَه» [أي أخفته].

فينطلق به عمر وهو متعجّب ويعطيه التمر ويزيده عشرين صاعًا، كما أمره النبي، فانتقلت الصدمة وسرى التعجب إلى الرجل وهو يسأل

الرجل: لم زدتني يا عمر؟

عمر: أمرني بذلك رسول الله تلقاء ما رعتك.

فقال الرجل: أتعرفني يا عمر؟

عمر: لا، فمن أنت؟

الرجل: أنا زيد بن سَعنَة.

عمر مندهشًا: الحبر؟! (يعني حاخام اليهود وعالمهم الكبير)

الرجل: الحبر.

عمر: فما دعاك أن فعلت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعلت، وقلت له ما قلت؟

الرجل: يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا فقد اختبرتهما؛ فأشهدك يا عمر أنني قد رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيًا، وأشهدك أن شَطر (نصف) مالي فإني أكثرُها



(أكثر يهود المدينة) مالاً صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فرجع عمر وزيد بن سعنة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال زيد: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله[١] .

ينبغي أن نتوقف كثيرًا أمام هذا الموقف، فالرجل اليهودي الذي جاء يطالب النبي بمقابل ماله الذي استدانه منه قبل موعد السداد متهجمًا عليه أمام الصحابة عند رجوعهم من مقبرة البقيع أراد أن يختبر حِلم النبي الذي قرأ عن أوصافه في التوراة.

* الرجل خاطر بحياته ليعرف الحقيقة، تهجم بيده ولسانه على النبي بين أصحابه، في بلد آمن أهله بالنبي وأحبوه وحكّموه في أمرهم وبايعوه واستعدوا للموت دفاعًا عنه، وفي عصر يعيش ثقافة الرد القوي ويتقلد أهله السيوف. وبغض النظر عن صحة تصرفه من خطئه لكنه عرّض حياته للخطر في سبيل معرفة الحقيقة.

فهل نتعلم من الموقف قيمة جدّية البحث عن الحقيقة؟

* عمر بن الخطاب الرجل القوي المعروف بقوة بطشه وعظيم غيرته على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومحبته له لم يحتمل الموقف وكاد أن يقتل الرجل، لكن الغيرة العمرية كانت منضبطة بالأوامر المحمدية.

(١) صحيح ابن حبان، صحيح ابن حبان، ذكر الاستحباب للمرء أن يأمر بالمعروف من هو فوقه ومثله ودونه في الدين والدنيا إذا كان قصده فيه النصيحة دون التعيير.

فهل نتعلم من الموقف أن الغضب لما نراه تعديًا على أهل الحق لا يُبرر التصرفات الخاطئة والمخالفة للهَدْي المحمدي؟

* سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الخلق وخاتم الأنبياء المؤيد بالحق المطلق من السماء والممَكَّن من قلوب أهل المدينة والممتلك لزمام القرار فيها يأخذ الرجلُ بتلابيبه ويتطاول عليه وعلى قبيلته ويطالبه بغير استحقاق قبل موعد السداد، فلا يلتفت إلى تجاوز الرجل بينما ينتقد انفعال عمر صاحبه الذي آمن به ونصره ووالاه! يشتغل بتقويم المؤيد عن تأديب المعارض المعتدي! ويعبر عن ذلك بلسان التواضع الصادق: «أنا وهو كنّا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التّباعة»!

فهل نتعلم من الموقف أولوية ترشيد المؤيد الموالي قبل معاتبة المخالف المتجاوز؟

* «أنا وهو كنّا أحوج إلى غير هذا»، ما أعمق هذا الخطاب وكم هو مليء بالدروس. فالمعصوم المؤيد بوحي السماء يقول بأنه أحوج إلى النصح! وفي حالة وجود اختلاف بينه وبين كافر به مُتعدٍّ على جنابه الشريف يضع نفسه على قدم المساواة مع من يخاصمه؟!

نعم فالقضية متعلقة بشأن من شؤون الحياة ولأن للرجل جزئية حق هي الأصل في الخصومة، وإن لم يكن موعد السداد قد حان



وإن أخطأ الرجل وتعدى في أسلوب المطالبة.

فهل نتعلم من الموقف عدم خلط قضايا الحقوق بخلفيات الدين والعنصر والانتماء، وعدم تبرير التقاعس عن أدائها بأخطاء المطالبين بها؟

* «أن تأمرني بحسن الأداء». ويا لها من عبارة فمن يأمر من؟ وهل قصَّرتَ نفسي لك الفداء؟ أنت اقترضت المال لمساعدة الفقراء، والرجل هو من عرض عليك القرض دون طلب منك، وموعد السداد لم يحن وقته، وأكثر من كل هذا الرجل تطاول وتعدى وأساء عند المطالبة، ومع ذلك لم تقبل التغافل عن كون الرجل يطالب بحقه ولم تتخذ من تجاوز الرجل في المطالبة بحقه مبررًا للامتناع عن إعطائه حقه، بل أمرت بإعطائه أكثر مما يستحق مقابل ردة الفعل اللفظية تجاهه لأنها تسببت في ترويعه وإخافته،

فهل نتعلم من هذا الموقف تعظيم قيمة أداء الحقوق وإن تجاوز أصحابها حدود المطالبة إلى التعدي؟

* «وأن تأمره بحسن التباعة». جاء التنبيه على تقويم صاحب الحق إذا أخطأ في طريقة المطالبة بحقوقه، حتى لا تتحول المطالبة بالحقوق إلى وسيلة لتبرير التعدي؛ ولكن جاء هذا التنبيه بعد الاعتراف بحقه، وتعليم المؤيدين معنى الإنصاف للحق والتعظيم

لقيمة الاعتراف به، وعدم إقرارهم على الإيذاء المعنوي بترويع الآخر أو إنكار حقه في المطالبة لمجرد أنه أساء أو تعدى بأسلوبه في المطالبة، فالمؤيد والمعارض أمام الحق سواء، والمؤمن والكافر في ميزان العدالة عند المطالبة بالحقوق سواء، وصحبة عمر رضي الله عنه ومحبته للنبي وولاؤه له لا تمنحه الصواب المطلق في تصرفاته دفاعًا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فهل نتعلم من الموقف أن كوننا أصحاب حقوق لا يجعلنا فوق المطالبة بحسن التصرف؟ وهل نتعلم من الموقف أن تقويم تصرفات المتعدين في أسلوب المطالبة بحقوقهم يبدأ بالاعتراف بها أولاً وبرفض تجاوزات المُوالين لنا ثانياً ثم يأتي ترشيد المطالبين إلى حسن المطالبة بعد ذلك؟

اللهم صلِّ وسلم على صاحب الخُلق العظيم والقدْر الفخيم من أرسلته رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وخلقنا بخُلقه وأدبنا بأدبه، وأحيِ فينا وفي أُمته هذه المعاني يا كريم.



وضوح الرؤية

[الأربعاء ٠٣/٠٤/٢٠١٣]

الحمد لله

كثُر النقاش هذه الأيام حول مفاهيم الصواب والخطأ والحلال والحرام والفضيلة والرذيلة.. وهذا يدلّ على الرُقى إذا كان في سياق ترشيد المسار وإيثار كل من الصواب والحلال والفضيلة على الخطأ والحرام والرذيلة.. وليس الحديث هنا عن الثوابت والمتغيرات والقواطع والاجتهادات والمطلق والمتغير في كل منها؛ لأن هذه المفاهيم يُمكن التعامل معها ضمن سياق الاسترشاد والترشيد.. لكن الإشكال، كل الإشكال، يكمُن في السياق الذي يدور النقاش في فلكه؛ فإدارة النقاش في سياق ترشيد المسار تجد فيها الاحتكام إلى ميزان الحقوق والواجبات مع تركيز كل طرف على الواجبات قبل الحقوق

وإذا نظرنا إلى سياق نقاش المرحلة بهذا المعيار واجهتنا مرارة وقائع الأحوال بحقيقة صادمة تتطلب وقفة صادقة مع النفس في

ضوء قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾(١).

فسياق الجدل الحالي يكاد يقتصر على تجنيد هذه المصطلحات «الصواب والخطأ والحلال والحرام والفضيلة والرذيلة» في معركة شرسة لا تحتكم إلى قواعد الفروسية النبيلة بل يحكمها منطق المغالبة المُلِحّة بُغية الانتصار بغض النظر عن مشروعية السلاح المستخدم ومهما كان الثمن باهظًا أو كانت الخسائر فادحة.

وعندها تتحول المبادئ والقيم والأخلاق، وحتى الدين، من مرجعية حاكمة لمفاهيمنا وسلوكياتنا إلى أدوات مستخدمة في هذه المعركة، حرامٌ على خصومنا أن يسخروا منّا بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾(٢). وعندما نسخر نحن من الآخرين تكون السُخرية حلالاً بدليل قوله تعالى على لسان نبيه نوح: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾(٣).

وعندما يُسيء أحدهم إلينا في لغة خطابه بسبٍ أو قذفٍ نستشهد بقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛

(١) سورة القيامة ١٣ ـ ١٤.

(٢) سورة الحجرات: ١١.

(٣) سورة هود: ٣٨.



وعندما تصدر منّا نفس الإساءة في لحظة انفعال فنُذكَّر بالآية الكريمة نفسها يكون الرد جاهزًا: «لماذا لا تُكملون بقية الآية: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾»، وننسى خاتمة الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[1]. أو نستشهد بقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾[2].

وعندما نكون حُكّامًا نستحضر قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[3]، وعندما نعارض الحكام نأتي باختلاف المفسرين لمعنى (أُولِي الأمْرِ مِنْكُم)، فتارة نقول إن أولي الأمر هم العلماء وتارة نُنبه من يحتج علينا بالآية إلى كلمة «منكم» معللين خروجنا عن الطاعة بأن هؤلاء الحكام ليسوا منّا.

وعندما نُطلق العنان لأنفسنا في النيل من الآخرين نتمسك بأن «حرية التعبير» من حقوق الإنسان بينما إذا نال الآخرون منّا نستدعي ضابطًا يُقيد هذه الحرية: «أنت حر ما لم تضر» وتظهر مفردات «الخطاب التكفيري» و«التحريض على العنف» و«الفتنة الطائفية».

وعندما نكسب الجولة الانتخابية نتمسك بتلابيب الديمقراطية والاحتكام إلى الصندوق، فإذا ما خسرنا الجولة صرخنا بأن هناك

---

(١) سورة النساء: ١٣٨.

(٢) سورة البقرة: ١٩٣.

(٣) سورة النساء: ٥٨.



مبادئ حاكمة تقررها مواثيق حقوق الإنسان لها قيمة تفوق ديمقراطية الصناديق لأنها تضمن عدم اعتداء الأغلبية على الأقلية، أو يستحضر بعضنا نصوصًا شرعية توجب الالتزام بالبيعة وتحكم على من خرج عنها بالقتل، حتى وإن كنا قد التزمنا بالعقد الاجتماعي للدولة الديمقراطية الحديثة الذي لا تنطبق عليه صيغة البيعة ولوازمها.

وعندما تُتاح لنا منابر الإعلام نَصول فيها ونجول فإذا أُتيحت لمن يُخالفنا اتهمنا الإعلام بالعمالة ومخالفة المسلك الثوري واتهمنا من يختلف معنا بالنكوص عن الوفاء للشهداء في حال كنا ممن يُطلق عليهم «القوى المدنية»، أما إذا كنّا ممن يُطلق عليهم «الإسلاميون» فيمكن أن نضيف إلى قائمة الاتهام للإعلام بأنه «علماني محارب للإسلام» وإلى قائمة الاتهام لمن يختلف معنا بأنه ممن باع دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل وخصوصًا إذا كان ممن ينافسنا في شعار «الإسلاميين» الذي نحمله!

وعندما تقف الدول الغربية ضدنا في صف خُصومنا نتّهمُ الخصم بأنه عدو للوطن حليفٌ للإمبريالية الظالمة والرأسمالية المجرمة إن كنا من فريق «اليساريين»، فإذا كنا من فريق «الإسلاميين» فيكون من يُخالفنا في هذه الحالة من أعداء الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]، وتظهر الأبحاث

(١) سورة المائدة: ٥٣.



والدراسات التي تشير إلى المؤامرات ومخططات الحرب على الإسلام. كما يصبح التردد على سفاراتهم دليلاً قاطعًا على العمالة والتحاور معهم انبطاحًا وعقد المعاهدات معهم خيانة.

فإذا اقتضت مصالح تلك الدول أن تقف في صفنا أصبح ذلك مؤشرًا على موافقتنا للمجتمع المتقدم ودليلاً قاطعًا على سلوك مسار التنوير إذا كنا من «اليساريين». فإن كنا من «الإسلاميين» كان وقوف تلك الدول إلى صفنا دليلاً على سعتنا وقدرتنا على الاستيعاب وحكمتنا في إدارة الواقع وحِنكتنا في التعامل مع الأعداء وذلك من باب المصلحة الشرعية؛ وتنهال الشواهد من القرآن والسنة ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[1] ودروس صلح الحديبية تُعطينا مشروعية التنازلات الجزئية في سبيل القضية الكلية وهكذا.

وعندما وعندما.. فالأمثلة كثيرة ووقائع الأحوال مُثيرة مَريرة.

ولعل الإشكال لا يكمن في نوع المبادئ والقيم والشريعة التي نستشهد بها بقدر ما هو كامنٌ في حقيقة هذا الاستشهاد ومدى مصداقيته. فالصدق في طلب الحق مع الثبات على المبادئ المُعلن الإيمان بها وبذل الوسع في سبيل تحقيقها جهاد يثمر الوصول إلى وضوح الرؤية وتحقيق المطلب ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2].

(١) سورة الأنفال: ٦٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.



ولعل السؤال المفتاح لوضوح الرؤية: هل استشهدتَ بالنص أو المبدأ لتُقرر أم لتُبرر؟ وهل استشهدتُ بالنص أو المبدأ للاحتكام أم للاستخدام؟ فالقضية متعلقة في المقام الأول بوضوح الرؤية لديك فيك. فهي البوصلة التي تُعينك على وضوح الرؤية لديك في الواقع المحيط بك.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1].

اللهم نوّر بصائرنا وصفِّ سرائرنا ونقِّ ضمائرنا وألهمنا الرشد في القصد والقول والفعل، يا رؤوفًا بالعباد.



(١) سورة الذاريات: ٢١.

ميزان القيم

[الأحد ٢٠١٣/٠٢/٢٤]

الحمد لله

خلق الله هذا العالم ووضع الميزان وأمرنا ألا نطغى في الميزان وأن نقيم الوزن بالقسط وأنْ لا نُخسر الميزان.

ومن معاني الميزان: القوة المميزة العاقلة كما ذكر الإمام نجم الدين الطبري في تفسيره. والمقصود هنا تفعيل هذه القوة بالعدل بين ثابت كوني ومتغير بشري وهما السنن الكونية والقيم الأخلاقية.

فإن الله تعالى قد أقام هذا العالم على سُنن كونية وقوانين راسخة يستطيع الإنسان بمعرفتها وإعمال أسبابها أن يُدير شؤون حياته، منها القوانين الفيزيائية ومنها المعادلات الرياضية. وخلق الإنسان وأودع فيه «النزعة» السماوية و«النزعة» الأرضية، ففيه روح ترنو إلى الرقي ونفس تركن إلى الرغبة، ووهبه عقلاً يميز وقلبًا يقرر. وأرسل إليه وحيًا من السماء ليدله على كيفية إعمال عقله

بطاقة روحه في تزكية نفسه فيستنير قلبه، ليثمر نضجًا في قيمه الأخلاقية التي تحكم قراراته وتُحكِم تصرفاته.

وفي ذلك الوحي آيات تُقرر الأحكام الفقهية «الحلال والحرام» تُشَكّل نحو ٨٪ من عدد آياته، بحسب تقسيم حجة الإسلام الإمام الغزالي، بينما تُشَكّل بقية الآيات ملامح العقيدة والأخلاق ومنهجية التفكير، ولهذا ربط الله الدين بالقيم ﴿دِينًا قِيَمًا﴾[1]. وقال الفخر الرازي في تفسيره: «دينًا ذا قيم»، فهو ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[2]، ولهذا علمنا الله أن ندعوه في كل ركعة قائلين: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

والنضج القيمي الأخلاقي للإنسان هو المُحدد لقراراته في تفاعله مع ما يتوصل إليه من اكتشافات للسنن الكونية. ومعرفة هذا الأمر لا تتطلب كثير عناء أو مشقة. فبمجرد النظر في حال العالم اليوم يظهر مدى الخراب الذي ألحقه الإنسان ببيئة الأرض ومواردها على الرغم من أنه توصل إلى قدر من اكتشاف السنن الكونية، وتفعيل هذه المعرفة لم يسبق له التوصل إليه من قبل في تاريخه المعروف.

إذًا فنحن بحاجة مُلحّة إلى معرفة حقيقية بأثر القيم الأخلاقية

(١) سورة الأنعام: ١٦٣.
(٢) سورة التوبة: ٣٦.



على حياة الإنسان، بل على نظام الأرض التي استخلفه الله فيها، ثم نحتاج إلى تفعيل نتائج هذه المعرفة في حياتنا الفردية والأسرية والمجتمعية، وفي مختلف المؤثرات السياسية والاقتصادية والعسكرية، على مستوى الوطن والأمة والعالم.

وعندما نشاهد ما يجري اليوم في منطقتنا من اشتداد في الخصومة السياسية أو اضطراب في الموازين الاقتصادية أو سفك للدماء في النزاعات المسلحة ندرك أن غياب الوازع القيمي قد تسبب في «طغيان» المغالبة بامتلاك زمام معرفة السنن الكونية.

فمن يمتلك أدوات التفاعل السياسي يطغى على من دونه، بغض النظر عن الصواب القيمي، ما دام قد امتلك أسباب إدارة اللعبة السياسية، وكذلك يفعل من يملك أسباب إدارة الاقتصاد ومن يمتلك قوة الترسانة العسكرية. وتدور رحى التدافع بين مالكي زمام التفاعل مع السنن الكونية بقانون المغالبة دون التفات إلى النتائج المترتبة على هذا النزاع في ظل سكرة الرغبة والطمع. وفي غمرة هذه السكرة يوظف الإنسان، من حيث يشعر أو لا يشعر، كل ما في يده من أدوات لتمكينه من الأخذ بزمام السنن الكونية، ولو كانت المبادئ نفسها! سواء كان هذا التوظيف للمبادئ من منطلق ديني أم «لا ديني».

نعم، حتى التدين نفسه أحيانًا لا يسلم من هذا التوظيف!

فالتلهف على نيل مكتسبات التمكين من الأخذ بزمام السنن الكونية يُنسِي الإنسان أن الله تعالى لم يُنزل الكتاب وحده مع الرسل دون الميزان: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ فيغفل عن الحكمة من هذا الاقتران بين الكتاب والميزان: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ويكون فهمه لدلالة الكتاب مقتصرًا على التفاعل مع سنن الكون دون ميزان القيم فتُعميه القوة والبأس: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وتشغله عن معنى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فيفشل في اختبار ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وتغيب عنه حقيقة ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[(١)].

فتُحجب القلوب عن لب مقصود التدين وهو شهود حقائق الصلة بالله تعالى والاستسلام لعظمته ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا﴾[(٢)].

وهذا البغي بين بعض المتدينين في اختلافهم على المكتسبات يُحيط القلب بسواده ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(٣)] من

(١) سورة الحديد: ٢٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

(٣) سورة المطففين: ١٤.

أوهام امتلاك أسباب السنن الكونية فتكون النتيجة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(١) بحجاب الأطماع الواهمة.

وينسى ابن آدم أمانة الخلافة في الأرض فلا تجد له عزمًا على عمارتها ولا همة في تزكية نفسه ولا شوقًا إلى الارتقاء في معارج العبودية ليقف على سر السعادة الأبدية وحقيقة الحقائق الوجودية وهي «معرفة الله».

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ لا يجد فيها سر السعادة الأبدية ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٢) عن حقيقة الحقائق الوجودية.

والخروج من هذه الورطة يبدأ بالعودة إلى معاني رحمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فتنبسط فيه آفاق ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ التي تعيد تخلّق إنسانية الإنسان فينال شرف تعلّم البيان ليفقه حسبان سنن الكون «بشمس» مصادره و«قمر» تفاعله ويسجد «نجم» عجزه و«شجر» تمكينه و«ترتفع» سماء تطلعاته وآماله «بوضع» ميزان قوة تمييزه وعقله ليدفع إفراط «طغيان» معرفته لسنن الكون «بقسط» القيم دون تفريط الخسران وعندها يتسع وضع «الأرض» للأنام بجميع أصنافهم من بشر وحيوانات ونباتات. وبهذا يفقه الإنسان دلالة قوله تعالى:

(١) سورة المطففين: ١٥.

(٢) سورة طه: ١٢٢.





﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ
ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾
وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ
ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾[1].

اللهم فقّهنا في الدين وعلمنا التأويل، واهدنا سواء السبيل.



(١) سورة الرحمن، الآيات: ١ ـ ٨.



كن صادقًا

[الإثنين ١٦/١٢/٢٠١٣]

الحمد لله

من أسوأ ما نمر به هذه الأيام أن علّة الكذب الواضح والمغلّف قد تخللت وخلخلت وبلبلت الكثير من واقعنا، ونخرت في عمق سلوكياتنا، بل في مفاهيمنا.

والأصعب من ذلك كله هو استرسالنا في تبريره وتقعيده وتأصيله وتحريره وتحبيره وتعبيره وتعميره وتطريزه وتأطيره وتصويره وتسويره وتحسينه وتزيينه وتضمينه وتمكينه وتعيينه وتأمينه وتدوينه وتهوينه وتفخيمه وتلوينه وتقنينه و«أسلمته» و«لبرلته» و«تثويره» و«تفليله».

ولهذا فخاطرة اليوم هي إشارات إلى أثر ذلك على بناء الذوات والمآلات:

* عندما تكذب على من تختلف معه فإنك تعترف بأنّك فاقدٌ للحُجّة.



* عندما تكذب على من تختلف معه فإنك بذلك تُسيء إلى نفسك وتضرّ القضية التي تحملها.

* عندما تحترف الكذب على من تختلف معه فإنّك بذلك تخسر معونة الله.

* ما فائدة أن يُصدّق الناس كذبك إذا كنت ستُكتب عند الله كذّابا؟

* إذا سَهُل عليك الكذب بحيث يتوقف ضميرك عن القلق قبله واللوم بعده، فاعلم أنّك في خطرِ السقوط من عين الله!

* عندما تُبرّر لك نفسك الكذبَ بأنك تنصر الدين، فاعلم بأنك بهذا تُشكّك في مصداقيته، وإن لم تقصد ذلك، فالحق لا يُنصر بالباطل.

* عندما تكذب، فتبرر الكذب بأن هناك من كذب عليك، وتَظلم، فتبرر الظلم بأنّك قد ظُلمت، فانتبه واحذر، لأنّ الظلام يقرع أبواب قلبك.

نسأل الله السلامة والعافية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠.

اللهم اجعلنا مع الصادقين وفي الصادقين ومن الصادقين واجمعنا بمن جاء بالصدق وصدّق به في مقعد صدق عندك بك لك منك يا حق.

تحدي الأخلاق

[الأحد ٣١/٠٣/٢٠١٣]

الحمد لله

لكل عصر تحدٍ، وتحدي هذا العصر هو المحافظة على الأخلاق. قالها شيخنا الإمام عبد الله بن بيه وقد صدق.

وهذا التحدي هو جوهر إشكالات المنطقة اليوم، بل ربما أصل إشكالات العالم بأسره. فالأنظمة التي تبطش بشعوبها مشكلتها أخلاقية. والاستغلال الاقتصادي الذي يطحن الفقراء والمرضى مشكلته أخلاقية. والصراع المذهبي والطائفي والديني واللاديني مشكلته أيضًا أخلاقية.

لقد تأملت ردود الأفعال على بعض الأحداث في الأسبوع المنصرم ومن أبرزها الاعتداء الآثم على بيت من بيوت الله في مسجد الإيمان بحي المزرعة بدمشق، والذي ذهب ضحيته نحو الخمسين من طلبة العلم أثناء حضورهم درسًا لتفسير القرآن الكريم

مع أستاذهم شيخنا العلّامة الشهيد محمد سعيد بن ملا رمضان البوطي رحمهم الله جميعًا، في ظل نزاع جبّار سُفكت فيه الدماء وهُتكت فيه الحُرمات ودُمرت فيه المدن والقرى ببيوتها ومساجدها ومستشفياتها.

والعلّامة البوطي قامة عالية في العلم والفكر تجاوزت مؤلفاته الستين وتجاوز عمره الثمانين. وقد اختلف معه العشرات من علماء الشام أقرانًا وتلاميذ حول موقفه من الأحداث التي تدور رحاها اليوم على أرض الشام وذهب ضحيتها ما يزيد على المائة ألف واعتقل ضعفهم وهُجّر أضعافهم. فقد كان الشيخ يرى أنها حرب تقودها قوى إقليمية وعالمية على أرض بلاده ضمن توازنات المرحلة المقبلة وتستغل في خوضها تراكم رفض الناس لما تعرّضوا له من قهر وظلم وأذى عبر عقود مضت وأن الاستجابة لهذا الاستغلال يحوِّل بلاده إلى أرض معركة للقوى الإقليمية والعالمية وَقودها الشعب السوري. وكان مخالفوه يرون أن المسؤولية بالدرجة الأولى تقع على النظام الحاكم الذي واصل البطش والقتل دون وازع من أخلاق أو رادع من دين، وأنه لولا ذلك لما وجدت تلك القوى فرصة لاستغلال المرحلة.

وصرّح كبار علماء الشام ممن غادروا البلاد إبّان الأحداث ووقفوا مع الثورة وأيدوها وارتأوا ضرورة إسقاط النظام بأن اختلافهم

مع الشيخ رحمه الله كان خلافًا على فهم ما يدور من أحداث وطريقة التعامل معها وأنهم يختلفون مع الشيخ بشدة ومع ذلك شهدوا له بالزهد والورع والتقوى وأنكروا على من اتهم الشيخ بمداهنة السلطان طمعًا في مال أو سلطة؛ ثم استنكروا حادث اغتياله، وكذلك فعلت قيادة المعارضة بل وتبرأت من هذه الجريمة النكراء. واعتراف العلماء هذا بفضل الشيخ وورعه يعطينا درساً أخلاقيًّا في الاختلاف نحن أحوج ما نكون إليه اليوم.

الشيخ أنكر على النظام سرًّا وجهرًا من قبل الثورات وحذره من عواقب تصرفاته. حتى أن أحد العلماء المؤيدين للثورة اليوم روى لي وقفة الشيخ أمام الأسد الأب في مؤتمر منقول عبر التلفاز في مطلع الثمانينيات مطالبًا إياه بالعدل على مرأى ومسمع من الناس فخفقت قلوب العلماء خوفًا على الشيخ من بطش النظام.

ولكن المشكلة الأخلاقية تكمن في فريق آخر كانت بينه وبين الشيخ خصومة فكرية على مدى أربعين سنة مضت، ولم يستطيعوا مجاراة الشيخ في سعة علمه وقوة حجته ومستوى طرحه حتى جاءت الثورة؛ فبدأت عملية غير أخلاقية من تصفية الحسابات والاغتيال المعنوي واستغلال جراح المنكوبين منذ اليوم الأول.

* أخذوا يتهمونه بتأييد الأسد الأب في أحداث حماة وقد نفى ذلك بعض كبار القيادات الدينية من التنظيمات الإسلامية التي



قادت مواجهة النظام في أحداث حماة.

* علقوا على بكاء الشيخ أثناء صلاته الجنازة على الأسد الأب واعتبروا ذلك من الموالاة والنفاق بالرغم من أنَّ الشيخ أجاب من سأله عن سبب هذا البكاء بأنَّ من يرى حاكمًا قويًا دانت له البلاد مُسجى لا يتحرك وقد ذهب جبروته وفني سلطانه لا بد أن يتأثر من موعظة المشهد.

* اتهموه بأنه أفتى بقتل المتظاهرين السلميين على الرغم من فتواه المعلنة منذ بداية الأحداث على صفحته الإلكترونية التي أجاب فيها عن سؤال جندي سوري عن حكم الشرع في قتل المتظاهرين في حال اضطراره إلى ذلك وتهديد قيادته بقتله إذا لم ينفذ الأوامر فكانت إجابته بتحريم قتل المتظاهرين ولو أدى الامتناع إلى تعرض الجندي للقتل.

* اتهموه بأنه أفتى بصحة السجود على صورة الأسد الابن على الرغم من فتواه المصرحة بأن أمر الناس بالسجود لصور الرئيس كفر، لكنه أوجد مخرجًا لمن يُجبَر بقوة السلاح بأن ينوي السجود لله ويعتبر الصورة بمثابة المفرش أو السجادة، فبتروا عبارته وحرفوها إلى أنه أجاز السجود للرئيس!

* أفتى بأن النتائج المتوقعة للاستمرار في التظاهرات ستؤدي

إلى سفك الدماء وتخريب البلاد وعليه لا يجوز التظاهر سدًا للذريعة مع أنَّ التظاهر في الأصل مباح وحق مشروع، فحرّفوا كلامه بأنه أفتى بالتحريم المطلق للتظاهرات.

ناقشت شيخنا رحمه الله حول وجهة نظره واشتد اختلافنا حول نقاط محددة في الموقف مع فارق السن والعلم والفضل فلم أسمع منه تجريحًا ولم أجد منه جفاء ولا طعنًا في النيات والمقاصد؛ وهذا ما نفتقده اليوم: «الأخلاق».

والنقاط التي مضت كانت أمثلة لمستوى الانحدار اللاأخلاقي في الاختلاف لكن الظهور الفجّ لهذا السقوط برز عقب استشهاد الشيخ وهو يفسر القرآن ليلة الجمعة في المسجد. فمن قائل أنه من سوء الخاتمة! ومن داعٍ إلى إظهار الفرح والسرور مستشهدًا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية على نحو مُحرف يُشعر بالغثيان!

بل لقد تمادى البعض إلى حد يكشف على نحو فجّ أن دافعه في الشماتة والتشويه مرتبط بخلفية الاختلاف الفكري، فربط اغتيال الشيخ باختلافه العلمي مع أحد شيوخهم قبل أكثر من ٣٠ سنة! مهاجمًا خلفية الشيخ الشرعية وتوجهه الفكري ومحرضًا على مدرسة الشيخ مستغلاً في ذلك غضب الشعب السوري وعظيم مُصابهم قتلاً وترويعًا واعتقالاً وتشريدًا.

وعلى الرغم من أن ركب الثوار المعارضين للنظام قد جمع بشهادة قياداتهم أعدادًا من مختلف التوجهات السورية الدينية واللادينية من أقصاها إلى أقصاها، ففيهم إلى جانب أهل السنة [صوفية وسلفية] مسيحيون ودروز ونصيرية وربما غيرهم، غير أن ضعف الوازع الأخلاقي قد دفع البعض إلى الانسجام مع التوجه المؤجج للفتنة الطائفية ساعيًا بذلك إلى انحراف مسار الأحداث إلى التصادم الديني الطائفي شأنه في ذلك شأن ما يُتهم به النظام بأنه ظهر منذ البداية بمظهر من لا يتردد في استغلال بغيض للتنوع الثقافي في سبيل كسب معركته ضد معارضيه. غير أن الخطر القادم يكمن في أثر هذا الخطاب بين صفوف منسوبي الثورة لأنه خطر مستقبلي عظيم.

وهو سياق مشابه لما صاحب وفاة الناشط السلفي الخلوق د. محمد يسرى سلامة الذي رفض مواقف جماعته السياسية وأعلن مخالفته لهم، وإن كان يتفق معهم في الرؤية الشرعية السلفية؛ وقد شهدت جنازته درسًا عمليًّا باجتماع فُرقاء السياسة على تشييعه والبكاء عليه. بل لقد أذاب في قالب الأخلاق الحواجز الوهمية الناشئة عن الفهم المنحرف لاختلاف الدين فرأينا شبابًا مصريًا من المسيحيين يضعون صورته في صفحاتهم على فيسبوك وتويتر. كما وضع قبلهم شباب مصريون مسلمون صورة الناشط المصري

المسيحي مينا دانيال في صفحاتهم. فكان في فعلهم هذا إبلاغ رسالة واضحة مفادها أن الأخلاق الراقية هي الوعاء الذي يمكن أن يجمع الفرقاء مهما اختلفوا سياسيًا ودينيًا وفكريًا.

وعلى الرغم من حضور بعض أشياخه جنازته وثنائهم عليه غير أننا سمعنا صوتًا نشازًا يجهر في فضائية دينية بالشماتة «المقززة» بمرض هذا الشاب وموته معللاً ذلك بانشقاقه عن صفوف جماعته ومخالفته لمواقفهم السياسية!

إن هذا المستوى من السقوط الأخلاقي إلى حد الرقص على الجُثث والتلاعب بالجراح مصيبة عظمى وأعظم منها صدورها من منتسبين إلى جماعات تعتبر نفسها مناصرة للدين وساعية في إعادة دولته وتشييد بنيانه، وإلى الله المشتكى.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١).

وصلى الله تعالى وسلّم على من قال: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٢). اللهم إنا نسألك التحقق بمكارم الأخلاق وسلامة الصدور وطهارة القلوب وعفّة الألسن يا كريم.

---

(١) سورة المائدة: ٨.

(٢) مسند البزار، نوادر الأصول، سنن البيهقي.

علماء السلطان وعلماء الشعب



[الأربعاء ١٢/٠٦/٢٠١٣]

الحمد لله

عُرِفَ مصطلح علماء السلطان بأنه يشير إلى نوع من العلماء الذين سخّروا علمهم لخدمة الحاكم طمعًا في نفعه أو خوفًا من ضُرّه، وقد ورد ذم هذا السلوك لدلالته على إيثار الدنيا على الآخرة وتقديم رضا المخلوق على رضا الخالق.

فمن ذلك ما أخرجه أبو عمر الداني في كتابه «الفتن»: «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه، ما لم يمالئْ قُرّاؤها [علماؤها] أُمراءَها»(١).

وروى أحمد والبزار وابن حبان قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «سيكون أمراء، من دخل عليهم وأعانهم على ظلمهم، وصدّقهم بكذبهم، فليس مني ولست منه، ولن يرد عليّ الحوض. ومن لم يدخل

(١) عزاه لأبي عمرو الداني العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين.

عليهم، ولم يُعنهم على ظلمهم، ولم يصدّقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وسيرد عليّ الحوض»(١).

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند رواته ثقات، عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا رسول الله من أهل البيت أنا؟ فسكت، ثم قال في الثالثة: «نعم ما لم تقم على باب سدة، أو تأتي أميرًا فتسأله»(٢).

وقد كتب الحافظ السيوطي كتابًا في هذا الموضوع بعنوان: «ما رواه الأساطين في عدم المجيْءِ إلى السلاطين».

لهذا السبب كان فريق من السلف يجتنبون التردد على السلاطين ما لم يستدعوهم، ومنهم الحسن البصري وسفيان الثوري وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وجمع من الأئمة، بينما ذهب غيرهم من الأئمة إلى الأخذ بأهمية التردد على الحاكم لإبداء النصيحة والتذكير بالله تعالى شريطة التعفف عن الدنيا التي يملكها، ومن هؤلاء رجاء بن حيوة والشعبي والزهري وإمام دار الهجرة مالك بن أنس.

وانتشر رفض من يُتّهم بأنه من علماء السلطان في العقود

(١) مسند أحمد رقم ٥٧٠٢، مسند البزار ٧/٢٥٥، صحيح ابن حبان ١٧٢٣.

(٢) المعجم الأوسط رقم ٢٦٠٥.

الأخيرة بسبب غضب الناس من اشتداد ظلم الحكام، إلى درجة مبالغ فيها من عدم تقبُّل البعض لمبدأ التواصل بين العلماء والحكام فضلاً عن الثناء عليهم، بما في ذلك التردد عليهم من أجل المصلحة العامّة أو كان الثناء الصادق في سياق ترغيبهم في الخير.

والمعنى العميق هنا في ذم علماء السلطان يكمن في دلالته على ضعف اليقين وعدم انقطاع الرجاء عن كل ما سوى الله تعالى، وانتفاء الخوف من غيره سبحانه، وهذا اليقين متعلق بحقائق التوحيد، فلا يكمل التوحيد إلا برسوخ هذه المعاني في القلب.

غير أنه قد بدا على نحو واضح أن نوعًا آخر من المداهنة قد انتشر في السنوات الأخيرة؛ ألا وهو ما يعبّر عنه مصطلح «علماء الشعب» الذين يُراعون إرضاء الناس بغض النظر عن الصواب والخطأ، طلبًا للشهرة وكسب المنزلة والمكانة في قلوب الناس، وهؤلاء قد تعلو أصواتهم بمناهضة الحاكم مع الافتتان بثناء الناس عليهم وتقديرهم لهم، فلا يُبالون حينئذ بالظلم الذي قد يرتكبونه في حق الحاكم إرضاءً للناس كما لم يُبالِ «علماء السلطان» بظلمهم الناس إرضاءً للحاكم، وهذا هو القاسم المشترك بين الشريحتين؛ ضعف اليقين بالله تعالى، وتوجّه الرجاء والخوف إلى المخلوقين، وغلبة الرياء على القلوب، سواء كان المخلوقون حكامًا أم شعوبًا، والعياذ بالله.

وهذا النوع من المداهنة قد تفشّى كالسرطان على إثر ما سُمّي بالربيع العربي، حين أصبح جدار العديد من الحُكّام قصيرًا يسهل تسوّره إرضاء للشعوب، مع الإحجام عن التصريح بالدلالة على الحق أمام سيل حماس الناس الجارف.

وفي هذه الدوّامة يختلط ميزان المداراة المحمودة بالمداهنة المذمومة، والفرق بين المداهنة والمداراة هو أنّ المداراة: التلطّف بالمخاطَب طلبًا لصلاح آخرته؛ أمّا المداهنة: التلطّف بالمخاطَب طمعًا في دنياه.

وإن مداهنة الناس ليست بأقلّ سوءًا من مداهنة الحاكم، فقد أخرج الدارمي حديثًا عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من طلب العلم لأربعٍ دخل النار: ليباهي به العلماء، أو ليُماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، أو ليأخذ به من الأمراء»[1].

وأخرج الخطيب وابن عساكر مرفوعًا: «إن العالِمَ إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد به أن يكنز به الكنوز، هاب من كل شيء»[2].

فنحن إذًا في أمس الحاجة إلى «علماء الشريعة» الذين

(١) سنن الدارمي، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/٣٦٣، تاريخ دمشق ٥٣/١٣٣.

لا يُداهنون الحاكم ولا الشعب بل يُراعون الشرع الشريف مع المداراة والتلطّف في أسلوب النصيحة والثبات على الحق بغض النظر عن تفهّم الناس أو الحُكّام لمواقفهم أو اتّهامهم لهم بقدر مخالفتهم لأهوائهم.

وبقدر ظهور «علماء الشريعة» وثباتهم على الحق يعود الناس إلى علمهم حكامًا ومحكومين. ولو تأخرت هذه العودة إلى ما بعد وفاتهم، مثل ما جرى لسيد المحدّثين الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله حيث كفّره العوام في نيسابور بسبب شائعات أطلقها أحد أقرانه من العلماء، مع غضب واليها عليه، مما اضطره إلى الرحيل منها ومات غريبًا في بيت أحد أصحابه، فلم تمضِ سنة إلا والناس تستسقي عند قبره فيسقيهم الله تعالى كما نصَّ على ذلك الحافظ الذهبي في سِيَر أعلام النبلاء، ولم تمض فترة من الزمن إلا وقد أصبح صحيحه أعظم كتب السنة.

لهذا فالعلماء الذين تحتاج الأمة إليهم اليوم هم «علماء الشريعة» وليسوا «علماء السلطان» ولا «علماء الشعب». ولهذا ينبغي وجود الفهم الراسخ لكون مهمة «علماء الشريعة» هي دلالة الناس على ما يُحبّه الله ويرضاه من الحق والعدل والجمال، وليست مهمتهم متابعةَ الحاكم أو الاستسلام للتوجّه الجارف للشعب.



ولهذا أيضًا ينبغي الإقرار بأنّ من يُقابل اختيارات الناس السياسية في إطار الآليات المباحة بتهديدهم بسيف الدين أو التلويح بتكفيرهم واتهامهم بالخروج عن الملّة هو متلاعب بالدين بقصد أو بغير قصد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

اللهم طهّر قلوبنا عن كلّ تعلُّقٍ بمن دونك واجعلنا من قوم تُحبّهم ويُحبّونك يا حق يا ودود.



(١) سورة الأحزاب: ٣٩.

التحذير الكبير



[الإثنين ١٧/١٢/٢٠١٣]

الحمد لله على كل حال. ألتمس بدايةً العفو والمسامحة على ورود بعض ألفاظ وعبارات قد تؤذي أعينكم عند قراءة هذه الخاطرة. غير أن الانتشار «المؤسف» لهذه اللغة فيما بيننا اليوم جعلها في الغالب غير صادمة للقارئ، والله المستعان وإليه المشتكى.

كثيرًا ما نسمع أنواعًا من التحذيرات المختلفة بل المتناقضة من قبيل:

احذروا من اليهود أو النصارى أو الكفار أعداء الإسلام ومن مؤامراتهم التي باتت تتحكم في كل شيء يجري في العالم عبر الماسونية العالمية ومخططاتها السرية النافذة. أو:

احذروا من الليبراليين والعلمانيين الكفار أو القوى المدنية الماسونية أو الخونة الأناركية عملاء الغرب وفاقدي الانتماء،

وأتباعهم من الشواذ والسكارى المحششين ممسوخي الهوية الحالمين بنشر النموذج الغربي الفاسد. أو:

احذروا من الكنيسة ورجالها فهم أعداء الدين والوطن المتآمرون أو المستقوون بالخارج المدعومون لضرب الإسلام، الذين يخططون لتمزيق الأمة، وأتباعهم المواطنين النصارى الحاقدين على المسلمين، الحالمين بقيام الدولة القبطية. أو:

احذروا من الشيعة الروافض أو المجوس الفرس أبناء المتعة الكفار سابِّي الصحابة أصحاب المشروع اليهودي، وأتباعهم من مرتزقة الصوفية وطالبي المال والمندفعين خلف خرافة الثورة الإسلامية ليقعوا في العمالة الإيرانية. أو:

احذروا من الوهابية النواصب المجسمة أو السلفيين التكفيريين الجهاديين والقاعدة الإرهابيين أو الظلاميين المتخلفين الرجعيين عملاء السلطان، وأتباعهم الفاشلين والبسطاء المغفلين والمندفعين وراء حلم تطبيق شرع الله دون وعي أو الطامعين في البترول السعودي. أو:

احذروا الإخوان المتأسلمين القطبيين وتنظيمات «الإسلام السياسي» ومستغلي الدين للأغراض السياسية أو مليشيات تجّار الدين الكاذبين اللاهثين خلف السلطة وليس لهم ولاء للوطن،

وأتباعهم قطيع الخرفان المندفع وراء حلم الخلافة دون وعي، الذين ألغوا عقولهم وسلّموها لبيعة السمع والطاعة أو البسطاء المحتاجين للسكر والزيت والغاز والعلاج. أو:

احذروا الصوفية المبتدعين والقبوريين المشركين أو الخرافيين أو مرتزقة السلطان وحلفاء بني علمان البائعين لدينهم لنسخة الإسلام الأمريكي المذكورة في تقرير راند، وأتباعهم من الدراويش والجهلة والفاسدين اللاهثين خلف الرقص في الموالد والتجمع على موائد الفتة والطواف حول القبور.

فلا تستغرب حينئذ عندما تتحول مجتمعات الأمة الواحدة إلى مجموعة أعداء يناضلون أو يجاهدون للقضاء على بعضهم بوهم محبة الوطن أو وهم الجهاد في سبيل الله. ولا تستغرب إذا أصبحت النظرة إلى البقاء مرتبطة بالفناء، فتنازع البقاء يؤدي إلى الفناء كما قال شيخنا الإمام عبد الله بن بيه.

إلا أنّ الحذر الراشد مطلوب فقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[1]، ولكن إذا التزم الحذر صفة «الرشد».

والحذر الراشد لا يحمل صفة التعالي ولا الاحتقار ولا سوء الظن، والحذر الراشد لا يحمل لغة التعميم ولا الحكم على النيات

(١) سورة النساء: ٧٠.



ولا تبرير العدوان. الحذر الراشد لا يجعل من الصراع غاية، ومن الخصومة منهجًا، ومن الكراهية أصلاً، ومن البذاءة لغة؛ والحذر الراشد لا يحوّل الاختلاف الفكري إلى عداء شخصي وتحريض جماعي.

غير أننا مع هذا كله ننسى التحذير من الخطر الحقيقي، نعم التحذير من الخطر الحقيقي. فلا نسمع جيدًا وبوضوح من يقول:

احذروا ضياع القيم الأخلاقية والمبادئ التي فطر الله الناس عليها، احذروا ضياع الرحمة والمحبة والأخوة الصادقة والألفة الحقيقية، احذروا ضياع العلم والمعرفة والتوثُّق والتثبّت.

احذروا تفشي الغش والكذب والسرقة والظلم، احذروا تفشي الحقد والكراهية والبغضاء والحسد والانتقام، احذروا تفشي الجهل البسيط والجهل المركّب والأمية الدينية والأمية المعرفية.

احذروا استغلال فقر الفقير وجهل الجاهل ومرض المريض. واحذروا التخلف عن فريضة التقدم العلمي والبناء الحضاري والاكتفاء الذاتي الضامن لخروجنا من حالة التبعية المهينة إلى الشراكة الإنسانية العالمية.

احذروا انتشار حالة التأخر والنقص في المقومات الأساسية للبنية الصناعية والتقنية والطبية والاقتصادية وبقاء الأمة عالة على الآخرين.

احذروا تفشي البطالة والإحباط المنتشرَين بين شبابنا الذي يمتلك مقومات نهضة الأمة ومفاتيح رقيّها. واحذروا إهمال الشباب وتجاهل وجودهم، فهم قوة انطلاق الأمة، إن احترمنا عقولهم وآمنّا بعلو همتهم وأنصتنا إلى طرحهم وجعلناهم في أولوية حساباتنا في كل مرحلة نمر بها وفي كل قرار نتّخذه.

احذروا مواصلة التعامل مع الشباب على أنهم مجرد وقود لمعاركنا، دينيةً كانت أو وطنية، فنستحلّ ونستحلي تعبئتهم والزج بهم في كل معترك متوهمين أنهم سيبقون أسرى لحماستهم واندفاعهم وراء شعاراتنا وخطاباتنا ومشاريعنا؛ فقد بدأ الشباب يعي ويميّز.

احذروا لحظة إفاقة الأتباع، لأنها ستكون كارثية ومدمرة لمن تُطربهم الهتافات ويروق لهم الحمل على الأكتاف، بل ستكون مدمرة للقيم النبيلة التي ينادي بها الكبار من كل الأطراف. وذلك عندما يكتشف التابعون أنها كانت وسائل للاستغلال والتعبئة.

احذروا، فقد بدأ الشباب ثورتَه على هذا الاستغلال وإعلانَه الاشمئزاز من هذه الانتهازية ورفضَه هذا النوع من الوصاية. وإذا تحولت هذه البداية إلى رؤية عامة فلن يستطيع أحد أن يوقف اندفاعها، ولا أن يلوم أصحابها.

احذروا وصول الشباب إلى حالة انعدام الثقة في الكبار، الذين لم يعودوا في نظرهم كبارًا، لأن نتيجة ذلك هي اتخاذهم قرار الانفصال الكلي عن صلتهم بمن سبقهم ليرسموا طريقهم منقطعين عن امتدادهم الثقافي، وعندها فالخسارة ستشمل الجميع.

احذروا الاكتفاء باجترار تاريخ الأمجاد أو الاقتصار على التنظير لرؤى المستقبل الحضاري، مع الرضا بالتوقف عن التطور «الثقافي» والاتساع «المعرفي» والاستيعاب «العملي» لسنّة التغيير، فالتطوير والاتساع والاستيعاب هو ما يجعل منا حلقة في سلسلة امتداد هذه الأمة وجزءًا من استمرار ارتقائها.

احذروا ضياع تعظيم حرمات كل من الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وتفشي تبرير العدوان اللفظي والجسدي والتجرؤ على الأذى والضرب والقتل والتحريض عليه، بل والأسوأ من ذلك هو محاولة تأصيله دينياً أو تبريره وطنيًا.

والتحذير الكبير الكبير الذي لم نعد نسمع من ينادي به: احذروا إغفال تزكية أنفسكم وإهمال الصدق في نقد الذات وضعف الإخلاص في معاملة «عالِم السر وأخفى» سبحانه وتعالى، فهذا هو الخطر الأعظم.



وأخيراً: التحذير النافع هو التحذير الجاد المصحوب بالحرص وإرادة الخير والصادر عن صدق المحبة والرحمة والرأفة.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1].

اللهم يا رؤوفًا بالعباد آتِ نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليُّها ومولاها يا نعم المولى ونعم النصير، اللهم وقنا شرّ أنفسنا وسيّئات أعمالنا وألهمنا من الرشد ما تُبلّغنا به رضاك فننال سعادة الدارين، اللهم واحفظ شبابنا ووفقهم وخذ بأيديهم وألهمهم سبيل الرشاد.



(١) سورة آل عمران: ٣٠.

الشريعة تُقرِّر ولا تُبرِّر



[الأحد ٠٩/٠٦/٢٠١٣]

الحمد لله

تكثر الشكوى هذه الأيام من الاحتجاج بالشريعة في مغالبة الخصوم السياسيين عند الاختلاف معهم.

ويرى البعض أن من حق المسلم أن يحتج بالشريعة في البلاد التي تَنُصُّ دساتيرها على مرجعية الشريعة، وأنه لا يرفض ذلك سوى المعادي للإسلام. بينما يرى البعض الآخر في هذا التترُّس السياسي خلف الشريعة نوعًا من الانتهازية التي تمسّ قدسية الشريعة، لذلك فهو يطالب بفصل الدين عن السياسة. وعند تأمُّل طرح الطرفين يلوح جانب فكري وإشكالية أخلاقية.

أمّا الجانب الفكري فهو اختلافٌ بين مدرستين:

❁ **المدرسة الأولى**: ترى أن مقتضى الإيمان بالله أن نمتثل أوامره في جميع شؤون حياتنا، ويستدلُّ أصحابها بآيات من القرآن



الكريم كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(1).

۞ **المدرسة الثانية:** ترى فصل الدين عن الدولة وتقدِّم أربعة أسباب رئيسة لهذه الرؤية:

* أن الشريعة تشتمل على تنوّع في الآراء واختلاف في الاجتهادات تسمح لكلّ طرف بالاحتجاج بما يناسب رؤيته ممّا يوجد معتركًا يمكن أن يُفسد انتظام العمل السياسي تحت مُسمّى الدين.

* أن للدِّين قدسية في النفوس تُحوِّل التنافس السياسي إلى مواجهة مُزيّفة مع الدين.

* استحالة انتظام الحياة بتطبيق منهج مضى عليه أربعة عشر قرنًا تغير العالم خلالها تغيرًا جذريًا.

* وجود غير المسلمين في بعض هذه البلدان مما يجعل من إلزامهم بأحكام الشريعة نوعًا من الظلم.

والتعامل مع هذا الاختلاف الفكري يكون بتحقيق أوجه الاختلاف على النحو التالي:

---

(1) سورة النساء: ٦٤.





* التنوع المذكور في المسائل الاجتهادية له ضوابط منهجية تُتيح للدولة حق اختيار الاجتهادات المناسبة للزمان والمكان ضمن عملية التقنين لتكون مُلزِمة لجميع الأطراف في فصل المنازعات، فلا يُقبَل احتجاج من يرفضها باجتهادات شرعية أُخرى.

* ليس لأي إنسان بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم حق العصمة بحيث تصبح مخالفة فهمه لمسألة اجتهادية مخالفة للدين، كما أن المسائل القطعية محددة ومحدودة، والاحتجاج بجهل الناس بذلك لا يختلف مُنطلقه عن الاحتجاج بعدم مناسبة الديمقراطية لهؤلاء الناس، والجواب عنه بأن الحلّ يكمن في توعية الناس وتعليمهم.

* مراعاة تغيّر الأزمنة، وحتى الأمكنة، جزء من الشريعة ضمن منهجٍ مُقرّر للاستنباط، فلا يُعرقل تغيّرُ الزمان مرجعيةَ الشريعة، غير أن المعضلة تكمن في قصور فهم كثير من المتدينين لمتغيرات الواقع، وتصدّر غير المؤهلين للفتوى ممّا قد يُشعر بجمود الشرع المصون.

* الشريعة قد قررت حق احتكام غير المسلمين إلى شرائعهم التي يمكن الاتفاق معهم على تقنينها بحيث يتم ضبط تعاملاتهم وأحوالهم الشخصية وفق مقتضاها، وهذا ما نجح تطبيقه بالفعل في مراحل مختلفة من التاريخ؛ ثم إنّ القوانين المعاصرة يُقررها الأغلبية



شريطة عدم الإضرار بحقوق الآخرين وذلك في حالة الالتزام بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وهو ما لم تلتزم به كثير من الدول المتقدمة في عصرنا.

وأما الإشكالية الأخلاقية:

فهي تكمن في تعامل البعض مع الشريعة بوصفها وسيلة لتبرير مواقفهم السياسية، مما يجعل المخالف السياسي يبدو وكأنه محارب للشريعة، وهذا ما يضعه في موقف ضعيف أمام منافسه السياسي، فيلجأ إلى المطالبة بفصل الدين عن السياسة لضمان عدم استغلال الدين في حسم المعركة السياسية.

وهذه الإشكالية هي التي ينبغي التوقف عندها بجديّة وحزم، فإن الشريعة المطهرة تُلزم من اختار اتّباعها بالانضباط الأخلاقي في مواقفه وتجعل ذلك معيارًا لصحّة تدينه وكمال إيمانه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم: «أربعٌ من كُنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمنَ خان، وإذا حدّثَ كذب، وإذا عاهدَ غدر، وإذا خاصمَ فجَر»[(١)].

(١) صحيح البخاري، باب إثم من عاهد ثم غدر، صحيح مسلم باب بيان خصال المنافق.





فمن التزم بعقد اجتماعي غير مخالف للشرع فلا يجوز له أن يعدل عنه إلى اجتهادات أخرى ولو كانت صحيحة النسبة إلى الشريعة عند بعض أهل العلم.

ومثال ذلك أنه إذا تراضى الناس على آلية سياسية معينة لتسيير نظام الدولة تتيح لهم المطالبة بتغيير حكوماتهم، فلا يجوز العدول عنها إلى أقوال الفقهاء المتعلقة بالنهي عن الخروج على الحاكم المبايَع، وذلك لاختلاف صورتي العقد الذي بين الحاكم والمحكوم، وإلا أصبح ذلك نقضًا للعهد الذي بموجبه تمّ انتخاب الحاكم، بل يعتبر هذا العدول عن العقد الاجتماعي بذريعة الشريعة تحايلاً على الشريعة، وتكون دعوى الاحتكام إليها وسيلة لتبرير المواقف التي اتخذها هذا الفريق أو ذاك لترجيح كِفّته في ميزان السياسة، وهذه جريمة كبيرة قد تُقاس بجريمة الاستهزاء بآيات الله تعالى.

وهنا ينبغي تقرير هذا المبدأ:

المقصود من تحكيم الشريعة: أن «تُقرّر» الشريعة مواقفنا لا أن «تُبرّر» الشريعة مواقفنا.

فالترتيب الصحيح في تحكيم الشريعة هو: معرفة الواقع، ثم معرفة حكم الشرع فيه، ثم ترتيب المواقف على أساسه.



وهذا يختلف عن ترتيب من ينظر إلى الواقع، ثم يحدد ما يراه مناسبًا لاختياره، ثم يبحث في الشريعة عن نصٍّ أو اجتهاد يُبرّره، ثم يضرب منافسه بسيف الشريعة وكأنه قد خالفها.

وهنا يأتي من يقول إن هذه متاهة غير مأمونة العواقب وأن قابلية الشريعة لهذا النوع من التلاعب تُعرِّض المجتمع إلى خطر الاقتتال أو الظلم أو تبرير الاعتداء، لذلك ينبغي أن نُنحّي الشريعة جانبًا ونُقيم حياتنا على أساس القانون المجرد تجنبًا للتلاعب.

والحقيقة أن هذا السؤال له وجه من الاعتبار لولا أن الشريعة لا ترفض تقنين أحكامها وفق الاجتهادات الفقهية التي تتوافق مع طبيعة الزمان والمكان كما ذكرنا، لكن السؤال الذي يُطرح حينئذ هو: هل استطاع القانون أن يسلم من التلاعب على نصوصه واختراق ثغراته أم أنه يقع تحت نفس الطائلة؟ أوَلم يُسجَن العديد من الأبرياء بالقانون نفسه؟ أوَلم يلجأ القضاة في بعض الحالات إلى روح القانون لعدم اطمئنان نفوسهم إلى عدالة تطبيق نصّه؟ أولم يتحدد مصير الكثير من المتهمين بدهاء المحامين وخبرتهم بدهاليز القوانين؟

والسؤال الأكبر هو: هل استطاع فكر أو منهج وضعي أن يُفلِت من إمكانية استغلاله لتبرير تصرفات البشر وإعطاء المشروعية لرغباتهم وأطماعهم؟



ألم تُشنّ الحروب التي دمّرت دولاً وقتلت أعدادًا هائلة من شعوبها وشردت أخرى على أيدي أنظمة ديمقراطية وتحت مُبرِّر نشر تعاليم الديمقراطية تحقيقًا لأطماع الرأسمالية الغربية؟

ألم يُقتَل ما يزيد على أربعة وعشرين مليونًا من شعوب الاتحاد السوفييتي تحت مبرر تطبيق تعاليم الماركسية الملحدة تحقيقًا لأطماع قيادات الحزب الشيوعي؟

ألم تقتل الحرب العالمية الثانية ما يزيد على سبعين مليون إنسان وكانت جميع أطراف النزاع فيها دولاً علمانية فصلَت الدين عن الدولة؟

إذًا أين تكمن المشكلة؟

من الواضح أن المشكلة لا تتعلق بالمناهج والمعتقدات وحدها، ولكنها تتعلق بشكل أساسي بالإنسان الذي يُطبقها على أرض الواقع، فإن كان صادقًا مع نفسه مُنصفًا للآخرين منها، استتبّ الأمر واستقر النظام بالعدل.

نقل الشيخ تقي الدين ابن تيمية رواية: «إنّ الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة».

وسمع عمرُو بن العاص من المستوردِ بن شدادَ حديثًا عن



النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول! فقال المستورد: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال عمرو: لئن قلت ذلك، إنّ فيهم لخصالاً أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرّة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظُلم الملوك. رواه مسلم[1].

وفي هذا المقام جاءت شريعة السماء مؤسِّسَة لمفهوم أوسع وأدق وأعمق وهو أن الفلاح متوقف على تزكية النفس، وبدون الاعتناء بتزكية نفس الإنسان لا يمكن لأي نظام، ولو كان مُستنبَطًا من الشريعة الإسلامية، أن يُحقق السعادة للأُمّة. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2].

فالشريعة نصوص لا يُفعّلها على أرض الواقع سوى صدق التزام الإنسان بها، وذلك هو الأصل الذي تكون القوانين وأنظمة الحكم خادمة له، وبدونه لا يختلف تطبيق الدول للشريعة عن أي منهج وضعي آخر.

قال النبي المعصوم المؤيَّد بوحي السماء صلى الله عليه وآله وسلم مُرسِّخًا

(١) صحيح مسلم، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس.

(٢) سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ١٠.



لهذا المفهوم: «إنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضَكم أن يكون ألحنَ [أفصح] بحجّته من بعض، فأقضي له على نحوٍ مما أسمع منه، فمن قطعتُ له من حق أخيه شيئًا، فلا يأخذه فإنّما أقطع له به قطعة من النّار». رواه البخاري ومسلم(١)

اللهم آتِ نفوسنا تقواها وزكِّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها.



(١) صحيح البخاري باب موعظة الإمام للخصوم، صحيح مسلم باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة.

الاعتذار لغاليليو

[الأحد ١٣/٠١/٢٠١٣]

الحمد لله

كان غاليليو يدافع عن نظرية كوبرنيكوس التي تقول بأن الشمس ثابتة والأرض والكواكب تتحرك حولها، فاستاء قساوسة الفاتيكان آنذاك لأن هذه النظرية تخالف الثقافة السائدة التي على أساسها اعتقدوا أن ثبات الأرض ودوران الشمس حولها مفهوم إنجيلي يُحكَم بـ(تكفير) من يخالفه ويحاكم بتهمة الهرطقة وقد يكون مصيره الإعدام حرقًا.

وأصدر القسيس باولو أنتونيو فوسكاريني عام ١٦١٥ كتابًا أراد أن يثبت به عدم صحة الاستنتاجات الفلكية لكوبرنيكوس وأنها لا تتطابق مع ما جاء في الإنجيل. وبناءً على ذلك أنشأت السلطات البابوية لجنة لتقصي الحقائق ونتج عنها منع كتاب القسيس فوسكاريني من التداول، كذلك منعت عدة مخطوطات عن الاستنتاجات الفلكية

لكوبرنيكوس، إلا أن كتاب كوبرنيكوس الأصلي لم تمنعه الكنيسة وإنما مُنع من التداول، وحُفظ حتى عام ١٨٢٢ في مكتبة الفاتيكان.

وكان غاليليو بعيدًا عن النزاع، وتركه رجال الكنيسة بسبب صداقته مع الكاردينال مافيو بالرباريني الذي أصبح فيما بعد البابا أوربان الثامن، فتكاتف خصومه واشتكوا غاليليو أمام البابا وضغطوا عليه لمحاكمته، ثم خُلِّصَ من الورطة على اعتبار أنّ إدانة غاليليو قامت على أساس خطاب مزور.

ثم فقد غاليليو من يحميه ويدافع عنه في روما فحكمت عليه المحكمة عام ١٦٣٣ بالاشتباه في الهرطقة وكانت العقوبة هي السجن لإرضاء خصومه الثائرين، وفي اليوم التالي خُفف الحكم إلى الإقامة الجبرية مع منعه من مناقشة تلك النظرية، وأعلنت المحكمة بأن كتاباته ممنوعة.

ومنذ ذلك الحين اعتكف غاليليو في بيته حيث أمضى بقية حياته ملتزمًا بعدم نقاش نظرية كوبرنيكوس علنًا. واهتم في عمله بدراسة حركة أقمار المشتري واتخاذها أداةً لقياس الزمن من أجل حل مشكلة خطوط الطول، ثم حوّل التلسكوب إلى الميكروسكوب، ثم كتب غاليليو كتابًا عن الكينماتيكا (علم حركة الغازات وصلابة المادة) الذي أشاد به أينشتاين كثيرًا، ولُقّب

غاليليو بسببه بأبي العلم الحديث.

ولما أصابه العمى وعانى من فتق مؤلم سُمح له بالسفر إلى فلورنسا للعلاج، ثم بقي تحت الإقامة الجبرية في منزله حتى توفي عام ١٦٤٢.

ولم تعترف الكنيسة الكاثوليكية بخطئها في حق غاليليو إلا بعد مرور أكثر من ٣٠٠ سنة على محاكمته! فوصف البابا بيوس الثاني عشر عام ١٩٣٩ غاليليو بأنه أكثر أبطال البحوث شجاعة، لم يخش من العقبات والمخاطر ولا حتى من الموت. ثم عبَّر البابا يوحنا بولس الثاني عام ١٩٩٢ عن الندم تجاه الطريقة التي تعاملت بها الكنيسة الكاثوليكية مع أعماله العلمية وأعلن اعترافه بالأخطاء التي ارتكبتها الكنيسة.

وفي مارس ٢٠٠٨ أتمّ الفاتيكان تصحيح أخطائه تجاه غاليليو بوضع تمثال له داخل الفاتيكان. وفي ديسمبر من العام نفسه أشاد البابا بندكتيوس السادس عشر بمساهماته في علم الفلك أثناء احتفالات الذكرى ال٤٠٠ لأول تليسكوب لغاليليو.

ليس الحديث هنا بصدد السرد التاريخي، ولا التدقيق في تفاصيل رواياته. ولست بصدد (تعيير) الكنيسة الكاثوليكية بماضيها فقد اعتذرت والاعتذار هو اعتراف بالخطأ وهذا يدعو إلى الاحترام.

وإن كان الاحترام سيكون أكبر إذا امتلك الفاتيكان شجاعة الاعتذار لمسلمي الأندلس عن جرائم محاكم التفتيش أيضًا.

كما أن الخاطرة هنا ليست لتقييم تصرفات غاليليو، وهل كان تصرفه حكيمًا في التخلص من الصدام مع الكنيسة ليستمر في أبحاثه ودراساته التي نتجت عنها اختراعات ونظريات أسست لنقلة علمية، أم أنه كان ينبغي له الثورة بشجاعة على استبداد الكنيسة مهما كانت النتائج، بدلاً من التظاهر بخلاف معتقده كما يلومه عليه بعض مروجي الإلحاد اليوم.

لكن القصد من وراء ذلك اليوم لنتساءل، فنتعلم الدرس، ونعتبر، لنفهم:

* هل من الصواب أن نتمادى في إقحام النصوص المعصومة في تفاصيل تنافساتنا وخصوماتنا على نحو يخلط بين فهمنا غير المعصوم والنص المعصوم، أم أننا سندرك خطر هذا التصرف على ثقة الناس بعصمة النص؟

* هل من الصواب الاستمرار في رفع المصاحف على رماح معاركنا السياسية والقتالية لمحاولة كسب الوقت أو احتكار الصواب والاستئثار بالمشروعية، أم أن هذه الجريمة التراكمية قد تُعرِّض مشروعية تفعيل تعاليم القرآن للاهتزاز في صدور المؤمنين به؟

* هل من الصواب المضي قدمًا في اتهام كل مخالف بالهرطقة (التكفير أو التشكيك في إيمانه) والعمل على حرمانه (تشويهه وتخوينه والسعي إلى محاكمته)، أم أننا سندرك خطأ الاغترار بالتفاف عموم الناس حولنا وثقتهم بالدين الذي اعتبرونا ممثلين له، وخطورة التمادي في الاستقواء برجحان كفة التوازنات السياسية العالمية سريعة التغير، وندرك أن كل هذا غير كاف لأن يجعل خطأنا صوابًا؟

والخلاصة هنا هل من الصواب أن نبادر بالاعتذار للجيل عن سوء تصرفاتنا معهم وعن المستوى الرديء الذي قدمنا لهم به تعاليم الإسلام العظيمة، أم أننا سننتظر ثلاثة قرون حتى نعتذر كما فعل الفاتيكان؟

مع ملاحظة أنّ اعتذار الفاتيكان جاء بعد أن تمكن الإلحاد من أوروبا وتمت تنحية الدين عن الحياة عبر نضال مريع خُنق فيه الإقطاعي بأمعاء القسيس، وأصبح الفاتيكان اليوم يحاول تدارك وجوده ولو بوضع الثوابت الدينية والقيمية على طاولة التفاوض للتوصّل إلى مصالحة مع النُخب الثقافية التي كان بالأمس يرميهم بالهرطقة ويعمل على إعدام رموزهم، فاعتبروا يا أولي الألباب.

وهذه التساؤلات لا تجعل الطرف المقابل اليوم في مكان



غاليليو بل تدعوه إلى التساؤل:

هل من الصواب الاكتفاء باعتمادنا على كشف أخطاء الطرف المقابل ومحاولة إسقاطه في نفوس الناس، أم أن المطلوب أن نحمل مشروعًا حقيقيًا بأبعاده المعرفية والأخلاقية والعملية؟

هل من الصواب أن تطمئن نفوسنا وتطرب لمجرد استدعاء نموذج غاليليو ونتوهم التكرر المكتمل للتجربة، أم أن المطلوب أن يكون فينا بالفعل أمثال كوبرنيكوس وأينشتاين ونيوتن في البحث العلمي والإنجاز؟

وهل من الصواب أن نُسلِّم لنموذج معرفي كان من نتائج تفعيله دون تمييز في منطقتنا وصول من نشكو منهم اليوم إلى مراكز القرار بل وحصولهم على مساندة العالم المتقدم، أم أننا بحاجة إلى العمل على تطوير هذا النموذج وحسن النظر فيما يفيد منه وما يحتاج منه إلى تقويم؟

هل من الصواب أن نستسلم لفكرة تحميل الدين مسؤولية ما نحن فيه ونعمل على إقصائه من الحياة، أم أننا بحاجة إلى أن نعرف حقيقة الدين ونتخلق بأخلاقه ونتذوق روحانيته ونعمل على تحرير خطابه من أيدي مختطفيه ونطلقه من سجن مضطهديه؟

على أن تقدم العلم أثبت خطأ جزئيًّا في نظرية كوبرنيكوس



حول ثبات الشمس ولولا خلط رجال الدين بين مفاهيمهم المبنية على الثقافة السائدة في وقتهم حول ثبات الأرض وتسرعهم في نسبتها إلى كلام الله ومعاداتهم لأبحاث العلم التجريبي التي تثبت خطأها واضطهادهم للعلماء الباحثين على الرغم من أن لديهم نصوصا تدفع وهم التعارض، إضافة إلى ممارساتهم الاستبدادية الأخرى معتمدين على سلطتهم المستمدة من إيمان العوام لربما بقي للدين وجود حقيقي في مجتمعاتهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»(١).

اللهم اجعل لشباب الأمة نصيبًا وافرًا من هذه البشارة النبوية يا عظيم النوال ويا واسع الإفضال.



(١) مسند الشاميين رقم ٥٩٩، سنن البيهقي الكبرى رقم ٢٠٧٠٠.

هل هبط نيل أرمسترونغ على سطح القمر؟



[الأربعاء ٠٩/٠١/٢٠١٣]

الحمد لله

سمعت في طفولتي كبار السن يتداولون خبرًا عن فتوى نُسبت إلى أحد المفتين في الجزيرة العربية بأن الأرض ليست كروية وأنها لا تدور حول الشمس وأن ما نقلته وسائل الإعلام آنذاك عن هبوط نيل أرمسترونغ على سطح القمر مجرد كذبة أمريكية وأن الصور المنقولة كانت مزيفة كان الحديث محل تندر وتفكّه.

وأصبح ذكرُ هذه الفتوى في السنة التي توفي فيها نيل آرمسترونغ محلَّ غضبٍ لفريق وسُخْطٍ لآخر. إذ لم يتحمّل الفريق الغاضب من الذين عُرفوا بتبجيلهم لذلك المفتي تصوّر انتقاده ولم يخطر ببالهم تقبُّل نسبة الخطأ إليه. وذلك على الرغم من اعتقادهم بأنه غير معصوم وانتقادهم اللاذع لمخالفيهم بأنهم «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله». فاشتد غضبهم مِن تطاول «السفهاء»

على أصحاب الفضيلة العلماء والمشايخ والدعاة، وتكررت نماذج تشويه المشايخ كالتي في فيلم «الزوجة الثانية» لكن بصورة أشد ضراوة، وأكثر نكاية، وأخفّ ظلاً.

وقد أرعد إعلامهم وأبرق، فأمطر سبابًا ولعنًا وقذفًا وتكفيرًا وتخوينًا على الإعلام الفاسد المنحل الذي ينشر المجون والفساد والرذيلة، ويتطاول على أهل الدين وعلماء الشرع وأصحاب الفضيلة. وقد فاض كيلهم من تظاهر الفاسدين بالفسق والفجور، وبلغ سيلهم الزبى من جرأة الجهلة بدين الله.

ثم قرأت لمن ينفي صحة نسبة الفتوى إلى ذلك المفتي، رحمه الله، ويستشهد بفتوى له تؤكد كروية الأرض ومقال ينفي فيه القول باستحالة وصول الناس إلى القمر. وبعد بحث تبين أنه بالفعل لم ينفِ كروية الأرض لكنه نفى أنها تدور حول الشمس لظنه أن ذلك يقتضي ثبات الشمس واستدل على صحة هذا النفي بما توهم أنه دليل من القرآن الكريم! لم ينفِ إمكانية هبوط الإنسان على سطح القمر لكنه شكك في صحة حصول ذلك.

وبالطبع رفض كبار العلماء هذه الفتوى ورد عليها الإمام الشعراوي ردًّا جميلاً ونسبها د.مصطفى محمود إلى العقل المتحجّر، واعتبر الشيخ محمد الغزالي أمثالها من الفقه المتصحّر.

ثم انتشرت شائعة إعلامية تشكك في وصول نيل أرمسترونغ إلى القمر وتحاول إثبات أن ذلك الخبر كان مجرد مسرحية أراد بها الأمريكيون إثبات تفوقهم على الروس فهلّل هذا الفريق وكبّر، ثمّ صرخ في وجوه المنتقدين: ألم يقل لكم الشيخ بأن هذا الأمر مشكوك فيه؟ وهمس بعضهم قائلاً: لن يصدق هؤلاء بأن الأرض لا تدور إلا عندما تأتيهم وكالة أنباء كافرة باكتشاف يؤكد أنها ثابتة!

وإنّ تذكر هذه الفتوى اليوم صار محل سُخطٍ عند الفريق الآخر وهم فئة متسعة من الشباب لم تعد تحتمل تكرر عقلية محاكم التفتيش التي أسسها البابا غرينوار التاسع، فأحرقت برينو وجان هوس وحاكمت غاليليو واضطرت كوبرنيكوس إلى أن يُخفي نظريته عن دوران الأرض حول الشمس إلى يوم وفاته، وكل ذلك ارتُكب باسم الدين.

وقد ملّت هذه الفئة من السكوت عن تخلف الأمة عن ركب الحضارة الإنسانية وبقاء دولنا تحت وطأة التبعية والعيلة، وإهدار طاقات الشباب في نقاشات لا تغني ولا تُسمن من جوع. ولم تعد تحتمل أن يُسلّط على الرقاب سيف الدين أو يلهِب الظهور سوطُه في كل تحرك يتحركونه وفي كل مجال يخوضونه من المجالات العلمية التجريبية أو الاقتصادية أو السياسية. فغدت رافضة لتسلّط الآخرين باسم الدين على حياتهم وتقييدهم لتحركاتهم وعدّهم



لأنفاسهم ومحاسبتهم على أحلامهم.

وهذه الفئة هي التي لم تعد تستسيغ الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن بعد اكتشاف أخطاء كثيرة لعدد ممن تسابقوا في مضمار بطولة من يأتي بإعجاز جديد ولو باعتصار حروف كلمات آية كريمة من القرآن ولَيِّ عنقها ليستخرج «إعجازًا علميًا» منها؛ والتي اشمأزت من فوائد مرابحة البنوك الإسلامية التي صارت أكثر إيغالاً في امتصاص محدودي الدخل من البنوك الربوية، وأسوأ حيلاً في تعاملاتها؛ ولم تعد تحترم الحديث عن أسلمة المعرفة بعد نماذج الإدارة الإسلامية، والقيادة الإسلامية، التي لم تختلف كثيرًا عن الإدارة الرأسمالية والقيادة الانتهازية إلا بإقحام نصوص الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة عليها لإعطائها ختم الأسلمة على غرار (حلال فود) دون أي جهد يُذكر في مراجعة فلسفة تعاملها المنبثقة من رحم مرحلة ما بعد الحداثة.

وتأملت هذه الحالة من الانقسام والتفرق بين أصحاب الوطن الواحد بل أبناء الأب الواحد أحيانًا، فوجدت أن (الدين) هو قطب رحاها (الظاهر) للأعين. فتساءلت متعجبًا: كيف يكون أساس هذا التنافر هو الدين، الدين الذي جاء ليجمع أشتاتهم المتفرقة ويفتح عين بصائرهم المغلقة ويطلق عقال عقولهم العالقة وينتشل سفينة نفوسهم التي أصبحت في أوحال المطامع غارقة؟

وهل جاء الدين مناهضًا لعقل الإنسان وانتصاره لحريته؟ وهل ينتصر الإنسان لعقله بزعم حريته في إيذاء إنسان آخر بإهانة مقدساته، وانتهاك عِفّة سمعه وبصره؟

وعبثًا حاولت أن أجد ما يبرر هذا التضاد المتوهم بين نصرة الدين وتعظيم العقل والحرية. وبحثت في النصوص الحاكمة لقواعد هذا الدين فوجدت أن مناط التكليف الشرعي يقوم على العقل والحرية؛ فالمجنون يسقط عنه التكليف والمكرَه تسقط عنه المؤاخذة! فكيف أصبحت «العقلانية» تُهمة من وجهة نظر من ينتسب للدين؟ وكيف أمسى «التحرر» سُبَّة عند من ينتسب إلى الدعوة؟

وكذلك الأمر مع العقل والحرية فقد حاولت مرارًا أن أفك شيفرة ضرورة معاداته لمعتقدات الآخرين ومفاهيم العفاف لديهم، وقرأت لأساطين الديمقراطية وفلاسفة الليبرالية فوجدتهم يطالبون باحترام رأي الأغلبية والانصياع لرغبتها وينشطون لحفظ حقوق الأقلية وعدم جرح مشاعرها. فكيف أصبحت مراعاة الآداب العامة تخلفًا عند من ينتسب للديمقراطية؟ وكيف أمسى احترام المقدسات نقيصة لدى من ينتسب إلى الليبرالية؟

لعلها سكرة المطامح النفسية والأهواء التسلطية هي ما تُفسر

مثل هذه التناقضات. ولعله التكاثر بالأتباع هو الذي ألهى العقول وغيّب الموضوعية عن كثير من هذه السلوكيات. ربما، أو ربما اختلط الأمر على فهمي القاصر.

لا أريد الحكم ولا الجزم لأن النيات والمقاصد غيب لا يجوز لمثلي أن يقتحم هيبته ففيه ظلمة التألي على الله تعالى وظلامة التعدي على خلقه. ولا أريد الانصياع لهوى النفس وميلها نحو سوء الظن، وهو السلوك الذي نفرتُ بسببه من تصرفات الفريقين. ولكن السؤال يبقى مطروحًا بين يدي القارئ الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾[1]؟

غرّني كرمك، فسامحني يا كريمًا لا يُخيّب من رجاه.



(١) سورة الانفطار: ٦.

أوقفوا الكراهية



[الأربعاء ٢٧/١١/٢٠١٣]

الحمد لله

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ والبَغْضَاءُ، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلقُ الشَّعرَ، ولكن تحلقُ الدِّين، والذي نفسي بِيَده لا تدخلوا الجنَّةَ حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تَحابُّوا، أفلا أُنبِّئكم بما يثبِّت ذلك لكم؟ أفشوا السَّلامَ بينكم». رواه أحمد والترمذي(١).

في هذا الحديث وصفَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنا الداء والدواء، فحذرنا من داء الأمم: الحسد والبغضاء، وأخبرنا بأن هذا الداء «يحلق» الدين أي يَجُزّه ويستأصله كما يفعل الموسى بالشعر، وفي ذلك إشارة إلى أن التدين لا يتحقق مهما أُقيمت مظاهره إذا لم ينجح في تطهير القلبِ من الكراهية، لأن الله قد اختار القلوب

(١) مسند أحمد رقم ١٤٣٠، سنن الترمذي رقم ٢٥١٠.

لتكون محل نظره تعالى، فلا تصح صلة بالله من قلب تلطّخ بقاذورات الكراهية.

والكراهية باتت تنخر في جسد الأمة إلى العظم، وأصبحت لها مسارات تكسوها بأثواب زائفة متعددة، وأخذت طريقها إلى القلوب من مداخل متنوعة. فكراهية تدخل علينا عبر التدين الزائف، وأخرى عبر السياسة الوطنية، وثالثة عبر الجهوية الجغرافية، ورابعة عبر العنصرية.

كراهية تدخل علينا عبر التدين الزائف فتلبس مرة ثوب الطائفية بين السنّة والشيعة وتلبس مرة أخرى ثوب الطائفية بين المسلمين والمسيحيين، وتلبس مرة ثالثة ثوب الصراع بين الدين والعلمانية.

والخلاف الشرعي بين السنة والشيعة ثابت محقق، فبيننا وبين الشيعة خلافات جوهرية، كما أن الخلاف العقدي بيننا وبين المسيحيين خلاف جوهري، وكذلك الحال مع العلمانية، فخلافنا الفكري معها حقيقي. غير أن ربط الكراهية بالاختلاف هو مرض يتعلق بضيق الأفق، وسطوة الهوى على النفس، وظلمة القلوب؛ وهذه الكراهية تؤجج جحيم الصراع على البقاء و«تنازع البقاء يؤدي إلى الفناء»، كما يقول شيخنا العلامة عبد الله بن بيّه، حيث تدور



رحى معركةٍ المنتصرُ فيها مهزوم.

وكراهيةٌ أخرى تلبس ثوب الانتماء الزائف إلى الوطن، وتبرز من خلال التنافس السياسي على الحكم، يمين ويسار، ليبرالية ودينية، رأسمالية واشتراكية، ملكية وجمهورية، إصلاحية وثورية، حيث تدور رحى معركة لا تضبطها قوانين المبادئ، ولا تردعها زواجر الأخلاق، ولا توجد فيها أسلحة محرمة، فالكذب والتخوين وتُهَم العمالة والتآمر وتشويه الخصم كلها أسلحة دمار شامل لا تمانع الأطراف المتنازعة من استخدامها مهما كانت النتائج كارثية.

والتنافس السياسي بين الأحزاب والتوجهات أمر غير مستغرب، بل هو المتوقع من طبيعة العمل الحزبي، غير أن اقتران هذا التنافس بالكراهية يؤدي إلى نفس النتائج التي تحدثها الكراهية النابعة من التدين الزائف وإن لبست، زورًا، ثوب الوطنية.

وكراهيةٌ ثالثة تلبس ثوب الجهوية الجغرافية وتقسيم المناطق والدول؛ فاليمن أجَّج الظلم والاستبداد فيه نار الكراهية بين الشمال والجنوب حتى أضحت الوحدة بينهما مجرد هيكل دولة متهالكة يوشك أن ينهار، والمغرب العربي تتنازعه الفرقة بنار الكراهية بين المغرب والجزائر، والسودان بين شماله وجنوبه، ومطالبة الأكراد بحقّهم في أن تكون لهم دولة مستقلة تقوم على أساس قوميتهم

ليخرجوا من وطأة اضطهاد القوميات العربية والفارسية والتركية التي تقاسمتهم وفق اتفاقية «سايكس بيكو»، كما هو الحال في قضية البلوش المقسَّمين بين باكستان وإيران، وكشمير المقسّمة بين الهند وباكستان، وهكذا.

واختلاف الجهات وتنوع الطبيعة الجغرافية وانعكاسها على طبائع البشر أمر مستساغ بل إنه محمود حينما يأخذ صورة التكامل بالتنوع، بغض النظر عن التقسيمات السياسية للدول، غير أن تحوله إلى أداة لنشر الكراهية يؤدي إلى نفس النتائج الكارثية التي تُورِثها الكراهية النابعة من التدين والوطنية الزائفين.

وكراهيةٌ رابعة تلبس ثوب العنصر والجنس، فنار الكراهية تلتهم عددًا من القبائل فيما بينهم، وينظر بعض أهل البدو في السعودية إلى أهل الحضر نظرة تشوبها الكراهية والاستعلاء، كما ينظر بعض الحضر إليهم بنفس النظرة، وكذلك الحال بين العرب وكلٍّ من الفرس والأكراد والأتراك والأمازيغ.

وتنوع العناصر والأجناس هو سُنّة من سُنن الله في الخلق، وقد ذكر الله الحكمة من وجوده فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ولم يقل «لتعاركوا».

ولو أننا أكملنا تلاوة الآية لاستشعرنا عظمة قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، ولم يقل إن أكرمكم عند الله أرفعكم نسبًا أو قبيلة أو لونًا أو جنسًا أو عرقًا، وهذا النوع من الكراهية لا يقل سوءًا عن الكراهية النابعة من التدين والوطنية والجهوية.

ونتائج هذه الكراهية المتعددة المداخل وخيمة وكارثية، أدت بنا إلى استحلال المحرم والاستخفاف بالكبائر والموبقات من سفك الدماء وإزهاق الأنفس، وهتك الأعراض، وتشريد مئات الآلاف من البشر، واستفحال النزاع المؤدي إلى الضعف والفشل وذهاب الريح، وتسلّط الأمم علينا، حتى أصبحنا مجرد أحجار على رقعة شطرنج الدول الكبرى تُقدِّم منها حجرًا وتؤخر آخر، كما تقتضيه قواعد اللعبة السياسية في تنافس موازين القوى، وتنازع المصالح فيما بينها.

ومهما كانت الأسباب التي نحاول بها خداع أنفسنا لنبرر بها هذه الكراهية، فإن ذلك كله لا ينزع عنها صفة الداء الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنذر، ونزل القرآن الكريم بالنهي والزجر عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2].

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) سورة الأنفال: ٤٧.



وكراهية الأفعال السيئة والتصرفات العدوانية أمر فطري لا يُذَم صاحبه، بل إن مواجهة التعدي بما يوقفه من إجراءات مشروعة في إطار القانون أمر مطلوب وقد يصل إلى حد الوجوب للحفاظ على الكليات الخمسة: الدين والحياة والعقل والعرض والمال.

غير أن الكراهية للذوات هي الداء القاتل الذي يجب علينا تجنبه، ويُنتظر منا العمل الجاد على معالجته إذ تلوثت به القلوب.

وقد وصف صلى الله عليه وآله وسلم الدواء الذي نُطبّب به أنفسنا المريضة في الحديث نفسه الذي ذكر فيه الداء، وذلك في قوله: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنَّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أُنبِّئكم بما يثبِّت ذلك لكم؟ أفشوا السَّلام بينكم»[1].

فجعل إفشاء السلام مقدمةً للمحبة، وجعل المحبة أساسًا في التحقق بالإيمان الذي هو شرط لدخول الجنة، فيغيب الإيمان حيث تغيب المحبة مهما قامت مظاهر العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة. وإفشاء السلام معناه نشر لفظ السلام فيما بيننا، وبروزه من القلوب ليتجلّى في التصرّفات والمعاملات. لذلك فنحن أحوج ما نكون إلى مقاومة الكراهية ونشر المحبة، وبدون ذلك لن يُحفظ لنا تديّن ولا وطنية ولا جهة ولا عنصر.

(١) مسند أحمد رقم ١٤٣٠، سنن الترمذي رقم ٢٥١٠.



﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[1].

اللهم طهّر قلوبنا من الكراهية، وأسعدنا بأنوار المحبة، وانفحنا بنفحة السلام فإنّك أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام، يا قُدّوس يا سلام.

(١) سورة الإسراء: ٥٣.

اللحية والجلباب



[الأربعاء ٠١/٠٥/٢٠١٣]

الحمد لله

إنّ صدور الإساءات المتكررة ممن يطلقون اللحى ويرتدون الثياب «الجلاليب» جعل النظرة إلى هذه الهيئة الكريمة محل جدل شديد واضطراب مستمر لدى مختلف الشرائح.

فأصحاب العاطفة «الإسلامية» يتفاوتون بين اعتبارها اختيارات شخصية تتغير بتغير العصور والأعراف واعتبارها معيارًا أساسيًا في الحكم على الشيخ الذي يؤتمن على الفهم الصحيح للدين والأخذ بزمام تطبيقه في الحياة؛ وبين هذين الطرفين تدرجات في الاعتبار فهناك من يعتبرها مظهرًا مستحبًا في الشريعة الإسلامية لا يكفي لتقييم الإنسان، وهناك من يميز بين اللحية والثوب فيعتبر الأولى فريضة والثاني هيئة مستحبة، وهكذا.

ويتفاوت خصوم «الإسلاميين» أيضًا بين النفور من هذه الهيئة

على اعتبار أنها من رموز العصور الظلامية التي ينبغي أن تختفي من الحياة العامة حتى نتجاوز مرحلة التخلف إلى اللحوق بركب التقدم والحداثة واعتبارها من الهيئات الشخصية التي تدخل في الحرية الفردية للإنسان المعاصر؛ وبين هذين الطرفين أيضًا تدرجات في الاعتبار فهناك من يعتبرها مظهرًا يقتضي من صاحبه التزامًا سلوكيًا تجاه دلالته الدينية، ومنهم من يعتبر الحديث عنهما مضيعة للوقت.

وليس المقصود هنا رفض انتقاد الخطأ في سياق تقويمه أو التحذير منه؛ فليس فينا معصوم ليكون فوق النقد، لكن اللافت للنظر هو التركيز المتزايد على هذه الهيئة في إطار إلقاء الضوء على أخطاء «الإسلاميين» فتسمع من يعلق على تلفظ البعض بألفاظ غير مهذبة بالاستنكار على هيئته وتقرأ من يضع تعليقًا على صورة تنقل سلوكًا خاطئًا يشير فيه إلى كون المتجاوز ملتحيًا يلبس جلبابًا. بل لقد سمعت من يُعلق في إحدى الفضائيات مستنكرًا على صورة لملتحٍ يلبس جلبابًا أبيض وهو يقذف بحجر تجاه متظاهرين مخالفين لتوجهه فيقول: «شيخ» يلقي حجرًا!

والسياق المفهوم من التعليق أنه شيخ دين وليس شيخًا مُسنًّا أو شيخ قبيلة، وهنا يأتي السؤال الأساسي: متى كان مظهر اللحية والثوب وسيلة لاعتماد المشيخة؟ وإذا كان ذلك واقع عموم الناس



في بعض المجتمعات فالمتوقع من الإعلام العمل على تغييره وليس مجاراته.

وعلى الرغم من تكرر الإساءة البذيئة من متصدرين يُقدَّمون للناس بصفتهم علماء وشيوخًا في بعض القنوات التي تحمل لقب «إسلامية» غير أن اختطاف لقب «الشيخ» من قِبل من ليسوا أهلاً له يقتضي التعاون في العمل على استرداده من مختطفيه وليس العمل على اغتيال هذا اللقب، وإلا تحول الأمر إلى محاربة للدين وإن لم يُقصد ذلك.

فإنّ رفض تصرفات العابثين باحترام الناس لهيئة كانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الذين يستغلون محبة الناس للشريعة السمحة وولائهم لها لا يبرر بحال من الأحوال محاربة هذه الهيئة ولا الافتئات على الشريعة.

وهذا يجعلنا نستدعي طرحًا يتجاوز اللحية والثوب إلى فحوى تنافس سياسي يحتوي على أبعاد ومنطلقات ثقافية بين فريق رفع عقيرة «المشروع الإسلامي» وضم إليه أطيافًا متفاوتة المفاهيم بين التطرف والاعتدال، واستطاع أن يصنع من الصراع بين «الإسلامية» والعلمانية «قميص عثمان» لتحريض الناس ضد خصومه السياسيين، فجنّد بذلك البسطاء وأنصاف المثقفين ممن لا ينتمون إلى توجهه السياسي في معسكر واحد رفع فيه لافتة: «نصرة الشريعة».

وفريق آخر رفع عقيرة «الدولة المدنية» وضم أطيافًا متفاوتة المفاهيم بين التطرف والاعتدال أيضًا واستطاع أن يصنع من إخفاقات الفريق المنافس، وهي كثيرة ومتنوعة، خطابًا للدعوة إلى التقدم والتطور الحضاريين لا نعلم إلى أي مدى سوف ينجح في تأطيره سياسيًا على نحو يتجاوز مرحلة التخلص مِن ورطة حكم «الإسلاميين» إلى بلورة رؤية ثقافية تنطلق من هويتنا وتستوعب عصرنا كي نتأهل لمستوى الشراكة الإنسانية مع العالم.

واليوم نجد صوت التطرف مرتفعًا في الفريق «الإسلامي»، وهناك من يُذكي ناره ويشعل أُواره من داخل هذا الفريق على أمل أن يظهر أمام العالم بمظهر الطيف الوسطي المعتدل، مقارنة بالمتطرفين من باب «وبضدها تتميز الأشياء»، وهو غير منتبه إلى أن إقحام الدين في لعبة التوازنات السياسية قد أحرق أصابع من سبقوه في هذه اللعبة.

ويقابله صوت آخر للتطرف العلماني في الفريق «المدني» لا يزال حتى الآن منخفضًا بالرغم من ظهور بعض «زعقاته» بين الفينة والأخرى، غير أن إغفال تأكيد أهمية التمييز بين الإسلام وانحراف سلوكيات بعض «الإسلاميين» يجعل إخفاقات «الإسلاميين» تصب الزيت على نار التطرف العلماني في الفريق «المدني» مما يؤدي إلى تضخمه، وهذا سيكون السم البطيء أو السرطان الخطير الذي



يستشري في جسد هذا الفريق كما حصل في فريق «المشروع الإسلامي».

إخوتي الباحثين عن المصلحة العامة من كلا الفريقين وممن ينظر إليهما محتارًا أو مستاءً:

إن علّة التطرف في السلوك أو في معارضته ما أصابت جانبًا إلا وأنهكته مهما كانت نتائجه فعّالة وسريعة في كسب المعارك على المدى القصير لكنها قاتلة ماحقة فاحذروها.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1].



(١) سورة الأنعام: ٩٧.



سورية المذبوحة



[الأربعاء ٢٩/٠٥/٢٠١٣]

الحمد لله

سورية هي قلب الشام النابض، والشام أرض دعا لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبركة، وذكر أن عمود الكتاب فيها، وهي مطمح الناظرين من الشرق والغرب منذ القدم؛ ففيها ملتقى الحضارات، وتنوع الأفكار، وهي أرض الأنبياء عليهم السلام ومثوى الصحابة الكرام.

وقد عانت من ظلم الاحتلال فهبّ علماؤها ومن حولهم صفوة قياداتها من مختلف الأعراق والملل والطوائف لمقاومته، فلما شعر بضرورة الرحيل خلّف فيها ألغام الفتنة الطائفية إلى أن تولى زمامها قيادات تنتمي إلى أقلية، لتعاني البلاد بمختلف طوائفها عقودًا من الظلم والاضطهاد للإنسان أيًا كان عرقه أو ملته أو طائفته بما في ذلك أبناء الطائفة التي تنتمي إليها تلك القيادات ممن لم ينصهروا في بوتقة هذا النظام.

وعندما هبّت رياح ما سُمي بـ«الربيع العربي» صدّق أهل الشام مَن كانوا يشجعونهم على الثورة بأن الأمر يسير على النحو الذي جرى في تونس ومصر وكأن البلاد على حدٍ سواء وأمّلوا أن يتنفسوا الصعداء من ظلم النظام الذي يحكمهم فخرجوا متظاهرين مُسالمين يحدوهم الأمل، فاصطدموا بواقعين مريرين:

الأول: أن النظام الحاكم ليس لديه مانع من أن يبطش بكل من يقف في وجهه بأبشع أنواع البطش دون مراعاة للقيّم الإنسانية أو الضوابط الأخلاقية، مستنداً في ذلك إلى ما يملك من أدوات إقليمية يستمد العون من بعضها ويهدد دول الجوار ببعضها الآخر.

الثاني: أن من كانوا يشجّعونهم على الخروج وقفوا موقف المتفرج من كل الدمار الذي أصابهم ولحق بالإنسان قبل العمران، ولا يزال مستمرًا، وغاية ما قدموه لهم هو بعض المال، ومعسكرات إيواء، وكثير من الخطب الرنانة والشعارات الطنانة، ومئات من البرامج الإعلامية، مع العجز التام أمام واقع تجاذب القوى العالمية وصراعها على مواقع التأثير في المنطقة.

وما إن اضطر أهل الشام إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم المنتهَكة حتى فُتحت الأبواب أمام فوضى الجماعات التكفيرية المتطرفة لتعمل على تحويل سورية إلى أرض الميعاد التي

يطمحون إلى تأسيس الإمارة الإسلامية في ربوعها بعد فشلهم في العراق، مع أمل إحياء وجودهم في العراق عبر التركيز على البُعد الطائفي الذي يغذيه ظلم النظام الحاكم في العراق.

وتشكّلت هيئات للمعارضة السورية تجوب العالم بحثًا عن دعم حقيقي لمظلمة الشعب مع شدة اختلاف توجهات أفرادها واستعصاء تباين أفكارهم ومآربهم على الانصهار أو حتى الانسجام في بوتقة واحدة تعمل لمصلحة الوطن بالرغم من تشكيلهم لائتلاف يجمعهم جمعًا صوريًا لا يوقف تنازع التوجهّات على دِفّة قيادته.

وتشكل ما سُمّي «بالجيش الحر» في صورة كتائب مختلفة انضم إليها الكثير من الضباط الأحرار الرافضين لمسايرة النظام في القتل والجريمة ومن المخلصين المكلومين الذين شاهدوا فظاعة البطش على أيدي أمن النظام وزبانيته، وقد سئموا استمرار الظلم والقهر اللذين وُلد الكثير منهم ونشأ وهو لا يعرف غيرهما في بلادهم، وهؤلاء من صفوة شباب سورية الذين يبذلون التضحيات الحقيقية، يحدوهم الرجاء الصادق في التغيير إلى الأفضل، واتسعت دائرة الملتحقين بالقتال من كل حدب وصوب وتشكلت جبهات متعددة ضمّت التكفيري والمجرم وتاجر المخدرات، وهذا بالطبع أفرز واقعًا مستعصيًا على التناغم والتنسيق والضبط بين المقاتلين.



وبينما ترددت الدول والتنظيمات التي أعلنت دعمها وتأييدها لثورة السوريين بين التسليح وعدمه، وبين تحديد حجمه ونوعه، والجهة التي تستلمه، وتذرّعت بالخوف من وقوعه في أيدي المتطرفين؛ كانت الدول والتنظيمات المؤيدة للنظام الحاكم جادّة وسخية في دعمه بالثقل السياسي في المحافل الدولية وبالمال والعتاد بل بالمقاتلين على الأرض.

ودقّت طبول الطائفية المقيتة لترتفع أصوات التطرف البغيض في كل طرف، بعد أن أمعن النظام منذ البداية في ترسيخ البعد الطائفي لا سيما سعيه إلى تعبئة الأقليات على الأكثرية خاصة الأقلية التي ينتمي هو إليها.

فبرز في المشهد طرفان، طرف دخل فيه من تسمّوا «بالمجاهدين» الذين نشأت حركتهم وترعرعت في أفغانستان ضد الاتحاد السوفيتي السابق بدعم سخي من الولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة.

وقد رفع أولئك شعار الانتصار للصحابة من الشيعة الذين يعتبرونهم كفارًا وأعداء للإسلام وروّجوا لمفهوم أنهم أشد خطرًا على المسلمين من اليهود، مما أعطاهم المبرر لجعل قتالهم مقدمًا على قتال الكيان الصهيوني نفسه، بل وصل بهم الأمر إلى الاحتفاء



بالعدوان الصهيوني المتكرر على سورية بذريعة أن الصهاينة يهاجمون من هم أسوأ منهم!

وطرف آخر يضمّ مَن خاضوا حربًا ضد الكيان الصهيوني بدعم متنوع من روسيا وحلفائها في المنطقة باعتبار أنّ ذلك الكيان يمثل مرتكز الوجود الأمريكي في المنطقة، وانضمت الصين إلى روسيا في هذه الجبهة كي لا تتكرر الخسارة التي تكبّدتها في ليبيا.

وقد رفع هذا الطرف شعار الانتصار لآل البيت من السُّنة الذين يعتبرونهم الأعداء النواصب أحفاد يزيد بن معاوية لتبرير القتل والذبح دفاعًا عن مقامات آل البيت وانتصارًا على القوى العميلة الصهيوأمريكية التي تدعم الطرف الأول بزعمهم، مما يبرر لهم التحالف مع روسيا وغض الطرف عن معاداتها المسلمين في أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك وكوسوفا!

وبدأت ثقافة التحريض التي تستدعي التاريخ والجغرافيا والنصوص وصيحات الثأر، بل لقد أخرجت آل البيت والصحابة من قبورهم لتقسمهم إلى فريقين كل منهما مع طرف وكأن الحرب الدائرة هي معركة بين الصحابة وآل البيت في حرب تأكل الأخضر واليابس وقودها جيل ذهب ضحية للتجهيل بفقه دينه ودنياه!

كل هذا وأهل سورية وحدهم مَن يدفعون أغلى الأثمان،

فتحولت بلادهم العظيمة إلى أطلال مدمَّرة، وتفرّق أهلها بين قتيل وجريح ومعتقَل ومشرَّد، وشاهدنا هذا الشعب المضياف الكريم النفس، الذي فتح أبناؤه بالأمس قلوبهم قبل بيوتهم للنازحين واللاجئين من العراق ولبنان دون تمييز طائفي أو عرقي، وقد تحولوا إلى لاجئين في مخيمات لا تمنع بردًا ولا حرًا، أو مشردين في مختلف البلاد تعاملهم الدول بريبة وتوجّس، خشية تعرضها لخطر اندساس عملاء النظام بينهم، وأصبح من كانوا يشجعونهم بالأمس على الثورة يروّجون للزواج من بناتهم بدعوى مساعدة الإخوة النازحين! وكأن هذه المساعدة لا يمكن أن تكون بتزويج الفتيات السوريات بالسوريين، أو لا تكون بتوفير الأعمال الكريمة لهم، وهم الشعب العامل المكافح.

وآه من مرارة هذا الواقع، فقد زرت سورية مرارًا وعرفت أهلها كرامًا أعزة، يأكلون من عمل أيديهم مُجدّين في صناعتهم وزراعتهم إلى حدّ الاكتفاء الذاتي من القمح، مع تحمّلهم لمشقّة الواقع الداخلي الصعب والحصار الخارجي المرهق، يعطف غنيهم على فقيرهم ويصون كرامته، حتى أن بعض مؤسساتهم الخيرية أقامت سوقًا للفقراء والأيتام تدخل إليه الأم مع أيتامها ببطاقة ذكية تأخذ بها ما يكفيها وتخرج وكأنها كانت تتسوق، حفاظًا على كرامتها وكرامة أبنائها.

وعرفتُهم أيضًا مرحبين بمن يفد عليهم من كل حدب وصوب دون تعالٍ أو تفرقة عنصرية، فهم الذين آووا الأمير عبد القادر الجزائري وجنوده حتى استوطنوا البلاد وأصبحت لهم ذرية تنتمي إليها، وهم الذين لم يجدوا غضاضة في أن يتولى رئاسة أول حكومة لهم بعد الاستقلال رجل من أصل مغربي لما علموا من حسن تربيته على يد والده الإمام بدر الدين الحسني، وهم الذين لم يترددوا في انضمام بلادهم إلى مصر تحت مظلة الوحدة العربية.

وأما بعض مشايخ سورية ودعاتها الذين كانوا منفيين في الخارج بسبب صراعهم القديم مع النظام فقد وجدوا في هذا الواقع فرصة للثأر من النظام الذي بطش بهم بالأمس، وأملاً في صلاح الأوضاع في الغد، فتزعّموا الموقف منذ بدايته بتأييد من الدول التي تقف في المعسكر المضاد، وتشجيع من الجماعات «الإسلامية» التي تتفق مع منطلقاتهم، حتى سمعنا مِن بعضهم مَن يقول لو أن ثلث الشعب استُشهد في سبيل تحرير البلاد فلا مانع لدينا! وانتهى الحال بالبعض الآخر إلى استجداء الولايات المتحدة باسم الله أن تقف مع الثوّار، بعد أن كان يفتي بحرمة الاستعانة بها لتحرير الكويت بعد احتلالها من قبل صدّام!

بينما وقف علماء سورية الذين في الداخل منذ بداية الأحداث موقفًا مُتزنًا مسؤولاً دعوا فيه طرفي النزاع (النظام والثوار) إلى

التهدئة وبذلوا النصح الصادق لرئيس النظام الحاكم بأن يتدارك الوضع بإصلاحات حقيقية وواجهوه بشجاعة صادقة وطالبوه بكف أيدي زبانيته عن الشعب، كما حذّروا الشباب من عواقب هذا الانطلاق لما يعلمونه من قسوة النظام وصعوبة الواقع المحيط بسورية.

فلم يتفاعل النظام مع دعوتهم تفاعلاً جادًا بل استخفّ بنصيحتهم منذ بداية الأمر، ولم يُنصت إليهم الشباب الذي سئم الواقع المرير والبطش المتزايد، لا سيما وأبواق التحريض من الخارج تعِدُهم وتُمنّيهم بالمستقبل المشرق الذي يحلمون به.

فلمّا تطورت الأحداث وارتكبَت المجازر فتحولت الأمور إلى المواجهة الدموية الفظيعة انقسم علماء الداخل إلى ثلاثة مسالك حاملين مع اختلافهم إرادة الخير في مقاصدهم وفي صدق اجتهاداتهم.

الفريق الأول: أوصله اجتهاده إلى مغادرة البلاد وإعلان تأييد الشباب الثائر لما رآه من اشتداد وطأة الظلم وفظاعة البطش والعدوان، وهم الآن متنقلون بين العواصم يعيشون القلق على بلادهم وهم يرون تخاذل من كان يعد بالعون، وتنازع بعض الدول والتنظيمات والتوجهات على احتواء مستقبل بلادهم، أو استغلال قضيتهم، مع بذل هؤلاء العلماء جهودًا عظيمة في خدمة النازحين

معنويًا وماديًا عبر مؤسساتهم الخيرية وثقة الناس بهم، فعملوا على تشييد المدارس وتأسيس المستوصفات الطبية وجمع المعونات الغذائية لإغاثة النازحين، وبذلوا الوسع في توعية من يستجيب لهم من المقاتلين وإرشادهم.

الفريق الثاني: أوصله اجتهاده إلى ترجيح كفّة رفض ما اعتبروه مؤامرة غربية ترفض وجود دولة لا تنضم للنظام العالمي الجديد، ورأوا أن الصبر على ظلم نظام واحد خير من تحول البلاد إلى شتات منقسم، فبقوا في البلاد يحاولون نفع الناس بما يستطيعونه من شفاعات للإفراج عن المعتقلين ومساعدة المعوزين، متحمّلين في سبيل ذلك كل مظاهر الاغتيال المعنوي الذي مارسته ضدهم الميكنة الضخمة للإعلام المضاد، والجماعات المتحمسة منذ بداية الأحداث.

والقاسم المشترك بين الفريقين أن كلاً منهما يعتبر الآخر مُخطئًا في اجتهاده مع التعفف عن الطعن في أمانته وصدقه، بخلاف حال مشايخ المنفى والجماعات المنسجمة مع توجهاتهم حيث سارعوا منذ البداية إلى الطعن في صدق الفريق الثاني واتهامهم في دينهم وتحريف خطاباتهم بل إهدار دمائهم.

الفريق الثالث: اعتبر ما يجري فتنة عظيمة تقتضي البقاء في



البلاد مع اعتزال الفريقين والاكتفاء بالعمل الخيري مع لزوم المساجد والبيوت والدعاء إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، مستشهدين بأحاديث وروايات فتن آخر الزمان، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم في وصف إحدى هذه الفتن: «تطيف بالشام، وتغشى بالعراق، وتخبط بالجزيرة بيدها ورجلها، تعرك الأمة فيها عرك الأديم»(١). وقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إذا اختلف الرمحان بالشام لم تنجل إلا عن آية من آيات الله. قيل: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: رجفة تكون بالشام، يهلك فيها أكثر من مائة ألف، فإذا كان ذلك فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهب المحذوفة، والرايات الصفر، تُقبل من المغرب حتى تحل بالشام، وذلك عند الجوع الأكبر والموت الأحمر. فإذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من دمشق يقال لها حرستا»(٢). وما رواه نعيم بن حماد في كتاب الفتن: «عن أرطأة قال إذا اصطكت الرايات الصفر والسود في سُرّة الشام فالويل لساكنها من الجيش المهزوم، ثم الويل لها من الجيش الهازم»(٣). وما رواه ابن المسيب: «تكون فتنة بالشام، كان أولها لعب الصبيان، تطفو من جانب، وتسكن من جانب، ثم لا يستقيم أمر الناس على شيء، وَلا

(١) رواه نعيم بن حماد في الفتن رقم ٦٧٦.

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني، تفسير المنار.

(٣) الفتن لنعيم بن حماد.



تكون لهم جماعة..»[1]، وربطوا هذه الرواية الأخيرة بما كان من بداية الأحداث ما كتبه بعض الصبية على الجدران في درعا.

ولا تزال رحى الأزمة تطحن البلاد والعباد، ولا تزال مفاوضات الدول الكبرى حول مستقبل سورية تشهد مباراة المغالبة وصفقات التراضي، التي لا يدفع ثمنها سوى الإنسان السوري وحده من دمه ومستقبل بلاده.

وليس في هذا القتال ما يطمئن القلب إلى صحته سوى قتال من قاتل المعتدي الصائل دفاعًا عن نفسه وعرضه وماله.

وأخيرًا، لست سياسيًا ولا أحب السياسة، لكن الذي دفع إلى كتابة هذه الخاطرة نفثة مصدور مشفق على مستقبل الأمة، قلق من استمرار تقديم القرابين على مذبح السياسة باسم الله، تعالى شأنه عما يقولون ويفعلون علوًا كبيرًا.

وأعلم أنّ هذه الخاطرة لن تُرضي غلاة الطرفين المتنازعين، ولا من يطمحون في غنائم المعركة. وربما يُساء فهمها من قِبل كثير من الأحبّة الذين لم تعد عقولهم تستوعب سوى تصنيف واحد «معنا أو ضدنا» لكثرة معاناة نفوسهم من توالي مشاهد الإجرام والبطش واحتراق قلوبهم على من فَقدوا من الأهل والأحبة.

---

(١) المصدر السابق.





غير أن التحدي الذي أمامنا يتطلب صراحةً يعقبها عمل كبير وطويل وشاق من النظرة المتبصرة إلى أزماتنا؛ ابتداء بجذورها العقدية والثقافية ومرورًا بجذوعها الاقتصادية وأوراقها السياسية ووصولاً إلى ثمارها المرجوّة في الدنيا والآخرة.

ومع هذا وذاك فالثقة بالله كبيرة، واليقين راسخ في القلب بأن المستقبل سيكون مشرقًا إذا فقهنا الدرس المؤلم وعدنا إلى التبصر وصدقنا الله في غيرتنا على ديننا من أن يوظفه أصحاب المنافع الضيّقة في المعترك القذر للسياسة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(١).

اللهم فرجك القريب لعبادك في الشام فقد اشتدّ عليهم البلاء وامتدّ، يا لطيفًا بالعباد.



(١) سورة المائدة: ٣٤.



الإمام لاياما والأسقف ديودوني في مأساة أفريقيا الوسطى



[الخميس ٢٠/٠٢/٢٠١٤]

الحمد لله

معلومات موجزة عن البلاد:

* تقع بين دول السودان وتشاد والكاميرون ودولة الكونغو.

* البلاد غنية الموارد «بترول ومناجم ألماس ويورانيوم» فقيرة السكان مع انتشار الجهل والمرض.

* سكانها يتجاوزون ٤,٥ ملايين نسمة يشكل المسيحيون أغلبية بنسبة ٥٠٪، والمسلمون ٢٥٪، والوثنيون ٢٥٪، مع اختلاف في التقديرات يبقى فيها المسلمون أقلية.

* تعاني البلاد من توالي الانقلابات منذ إعلان استقلالها عن فرنسا، مع بقاء شركات فرنسية تسيطر على امتيازات المناجم والتنقيب عن النفط.

خلفية الأحداث الدامية:

* تأسَّس تحالف يدعى سيليكا «Séléka» مكوَّن من عدة جماعات غالبيتها من الشباب المسلمين غير الملتزمين دينيًا إلا أن نظرتهم إلى الغالبية المسيحية نظرة متطرّفة.

* تشكلت جماعة مسلحة تدعى انتي بيلكا «anti balaka» من الشباب المسيحيين تحمل توجهات متطرفة معادية للأقلية المسلمة بالرغم من أنهم غير ملتزمين دينيًا، ودخلت في مواجهة مسلحة مع تحالف سيليكا.

* سعى تحالف سيليكا إلى الوصول إلى الحكم عبر الانقلاب على الرئيس المسيحي «فرانسوا بوزيزيه» الذي وصل إلى الحكم عن طريق انقلاب على الرئيس الذي سبقه.

* عندما شعر الرئيس «فرانسوا بوزيزيه» بأن تحالف سيليكا «المسلمين» أصبح يشكل خطرًا على كرسيه وسلطته، أخذ يحرض جماعة انتي بليكا «المسيحيين» على المسلمين وزعم كذبًا أنهم من العرب المهاجرين وأنهم يريدون القضاء على الكنائس والسيطرة على البلاد، ودعا إلى قتالهم.

* نجح تحالف سيليكا في الانقلاب إثر تخلي فرنسا عن الرئيس المسيحي «فرانسوا بوزيزيه» بعد أن أصبحت فضائح الفساد

المالي لنظامه لا يمكن سترها أو الدفاع عنها، بالإضافة إلى أنه قد أعطى بعض امتيازات التنقيب عن النفط لشركات صينية وفتح أمامها المجال لتنافس الشركات الفرنسية مما أثار غضب فرنسا.

* تمكن تحالف سيليكا من الوصول إلى الحكم وتولّى قائده المسلم «محمد ميشيل جوتوديا» رئاسة البلد وأعلن حل جماعته المسلحة، غير أنه لم يستطع السيطرة عليهم وكبح جماح نشوتهم بالوصول إلى السلطة، كما تحمّس للانضمام إليهم أعداد من الشباب المسلمين وأخذوا يعتدون على المسيحيين وعلى كنائسهم ويتفاخرون بأن المسلمين يسيطرون على البلاد وأنهم سوف يجعلونها بلدًا مسلمًا، بالرغم من أن غالبية هؤلاء الشباب ليسوا ملتزمين بالأحكام الشرعية، وهم أقرب إلى العصابات.

* رفض أئمة المسلمين في البلاد تعدّيات تحالف سيليكا على المسيحيين ووقف رئيس الجالية المسلمة «إمام عمر كوباين لاياما» ضد ممارسات بعضهم الإجرامية وقتلهم للمسيحيين وتعدياتهم على الكنائس.

* تعرض إمام عمر للأذى والتهديد من قيادات تحالف سيليكا فأصرّ على الدعوة إلى حماية المسيحيين وكنائسهم واتّحد هو والأسقف «وبانغي ديودوني انزابالاينغا» للعمل على دعوة المسلمين

والمسيحيين للسلام، وذهبا إلى أوروبا لمخاطبة الساسة الأوروبيين في ضرورة العمل على استقرار البلاد والتوقف عن تسليح الجماعات المسلحة من المسلمين والمسيحيين.

* استجاب عدد من الشباب المسلم الملتزم لدعوة «إمام عمر كوباين لاياما» فوقف ٣٠ منهم في حي «كيلوميتر٥» في جنوب العاصمة لحماية الكنيسة الكاثوليكية، وكانوا يحاولون إقناع شباب جماعة سيليكا المسلحة بأن الإسلام لا يُجيز الاعتداء على الكنائس غير أن الاستجابة كانت ضعيفة في ظل نشوة الانتصار والشعور بالسلطة.

* انضمت أعداد كبيرة من الشباب المسيحي إلى جماعة انتي باليكا واشتدت المواجهة بين الجماعتين المسلحتين وتجاوز القتال المسلحين إلى قتل المواطنين العُزّل بما فيهم النساء والأطفال وأصبح الوضع في البلاد خارج السيطرة.

* تدخلت القوات الفرنسية لنزع السلاح من الجماعات المسلحة، إلا أنها لم تعمل على توازن نزع السلاح إذ يبدو أنها لم تنزعه إلا من الطرف المسلم فكانت الكفة لصالح جماعة انتي باليكا فكثر القتل في المسلمين.

* استقال الرئيس المسلم «ميشال جوتوديا» وتولّت الحكم

الرئيسة المسيحية «سامبا بانزا» التي أعلنت رفضها للجرائم ودعت العالم للوقوف معها في حربها ضد الجرائم البشعة التي تُرتكب ضد المسلمين.

* وفي هذه الأيام حيث ترتكب مليشيات الجماعة المسيحية المتطرفة «anti balaka» أبشع جرائم الاستئصال العرقي ضد المسلمين العُزّل برز من قساوسة الكنائس من يسعى إلى إيواء المسلمين العُزّل وهم يتحملون بسبب ذلك اتهامات المتطرفين المسيحيين وهجومهم عليهم.

يقول القسّ المحترم «إكزافي فاغبا» راعي كنيسة «سانت بيتر» في بلدة «بوالي» ردًا على تعرضه للهجوم من الشباب المسيحي المتطرف بسبب إيوائه أكثر من ٦٥٠ لاجئ مسلم في كنيسته:

«لقد حان الوقت الآن لكل من هو صالح أن يتخذ موقفًا جادًّا، ويُثبت قوة إيمانه»؛ ويشكو من هجوم المتطرفين المسيحيين عليه فيقول: «لم يفهم أحد ما قمت به، بل هددوني وهاجموني».

* لا تزال المأساة الإنسانية قائمة إلى حين كتابة هذا التقرير والمجازر ترتكب ضد المسلمين العُزّل، وتم تهجير الآلاف منهم وهدمت عشرات المساجد.

وأخيرًا:

* هذه الجرائم ليست دينية وإنما هي جرائم سياسية ذات خلفية اقتصادية ألبسها مرتكبوها رداء الدين ليستثيروا الفتنة الطائفية ويشعلوا حميّة الشباب من الطرفين.

فقد نقلنا سابقًا أن من أهم أسباب هذه المجازر البشعة خدمة مصالح شركات النفط وإدارة المناجم المتنافسة على امتيازات التنقيب في أفريقيا الوسطى، وهم من العلمانيين الذين يستغلون العصبية الدينية لدى الشباب والبسطاء في إدارة الصراع.

* إن السكوت على هذه المذابح الإجرامية وعدم التدخل الجاد لإنقاذ المسلمين العُزّل لا يقل إجرامًا عن ارتكابها.

* يجب العمل الفوري على إيقاف هذه الانتهاكات، والمسارعة إلى تقديم المعونات إلى المهجّرين المسلمين حتى يعودوا إلى بيوتهم آمنين.

* إذا لم يتم العمل الجاد على إيقاف هذه المجازر البشعة التي تُرتكب ضد المسلمين العُزّل فقد يؤدي ذلك إلى استجابة الغاضبين الغيورين من الشباب المسلم إلى دعوات التنظيمات المسلحة التي تتردّى برداء الدين للتوافد على أفريقيا الوسطى والقتال فيها دفاعًا عن المسلمين، مما قد يوسّع دائرة الصراع

لتتدخل التنظيمات المسلحة الأخرى التي تتستر برداء الدين مثل جماعة «جيش الرب» وتُحرّض الشباب المسيحي الغاضب من مختلف دول أفريقيا فتشتعل نار يصعب إطفاؤها.

* والأشد من ذلك هو ما نراه ونسمعه من لغة التحريض على المسلمين في الدول الغربية من قِبل اليمين المتطرف والجماعات النازية الجديدة، والتحريض على المسيحيين في منطقتنا من قِبل الجماعات «المتأسلمة» وخوارج العصر، واستغلال أمثال هذه الجرائم البشعة وصور الاعتداء والذبح والتمثيل بالجثث لصب الزيت على نار الفتنة وتجنيد الشباب الغيور الغاضب في توسيع رقعة العمليات الإجرامية في مختلف دول المنطقة.

* لقد حان الوقت لأن يقف العقلاء الصادقون من المسلمين والمسيحيين وقفة شجاعة في وجه هذا العبث والتلاعب بالدين في تبرير الجرائم وإعطائها الغطاء الديني تحت مسمى الجهاد من الطرف المسلم أو الحروب الصليبية من الطرف المسيحي، وألا يخضع أي منّا لابتزاز المتطرفين وتهديداتهم وضغوطاتهم عن طريق حملات التشويه والاغتيال المعنوي أو الاغتيال الحسّي.

والله المستعان وعليه التكلان. اللهم فرجك القريب يا رؤوفًا بالعباد.


(٧)
إلى النخبة المثقفة

عش الدبابير



[الأحد ١٤/٠٤/٢٠١٣]

الحمد لله..

ترسّخ في ثقافتنا الموروثة والمعاصرة مفهوم خاطئ مفاده حظر التعرض لبعض المواضيع بالنقاش أو النقد.

وأحاط بكل موضوع من هذه المحظورات حُرّاس مسلحون بأنواع من الأسلحة التقليدية والحديثة بل والمحظورة، ولديهم جاهزية للانقضاض على من يقترب من هذه المواضيع، وهم في حالة استنفار مستمر على مدار الساعة، مما يجعلها شبيهة بعُش الدبابير، فلا ينال من يحاول ادخال يده فيه إلا الندم والألم.

فمن هذه المواضيع «الدين» بشقيه الثابت المقدس والمتغير الاجتهادي، ويُعرف من يتصدى لمن يحوم حول مناقشته «بالإسلاميين أو حرّاس العقيدة».

ومنها «العلمانية والليبرالية» ويُعرف من يتصدى لمن يحوم



حول مناقشتها «بالنُخب المثقفة»، ومنها «حرية النشر وحق التعبير عن الرأي» ويُعرف بالتصدي لمن يحوم حول مناقشتها «بالحقوقيين والإعلاميين».

وعلى غرار ثقافة اقتحام المحظورات أو «التابوهات» الثلاثة الممنوعة «الدين والجنس والسياسة» في القرن الماضي والذي قبله، تجد فيمن يناقش هذه المواضيع أصحاب رؤى ذات منهجية علمية عقلية أخلاقية ومن يرد عليهم بنفس المنهجية، كما تجد من يقتحم النقاش بفوضى غوغائية تدميرية ومن يرد بأشد منها.

فالدين بشقه الثابت المقدس من حق المؤمن به أن يناقش محتواه مستفهمًا، ومن حق غير المؤمن أن يناقش محتواه معترضًا في سياق علمي عقلي أخلاقي. والدين بشقه المتغير الاجتهادي من حق المؤمن وغير المؤمن أن يناقش محتواه مستفهمًا ومعترضًا في نفس السياق.

غير أن الغالب على واقعنا هو نقيض ذلك، فما إن يُطرح موضوع ديني للنقاش حتى تهب عواصف كثيرين ممن يسمّون أنفسهم «حراس العقيدة» بالهجوم والطعن واللعن والتكفير والاتهام بالعمالة دون بيّنة، ثم تتطور في كثير من الأحيان إلى سفك للدماء في ظل الاستغلال السياسي لهذه الفوضى ووجود من يبرر هذه

الجرائم من فريق «الإسلاميين وحرّاس العقيدة» بل ويحاول منحها غطاء شرعيًا.

ويُلاحَظ أيضًا أن فقد المنهجية سمة بارزة لغالبية من يتعرض لموضوع الدين بالنقد.

ولم تسلم أيضًا أكثر «النخب المثقفة» في دفاعهم عن العلمانية والليبرالية من هذا التعصب الذي يجعل من يضعها على طاولة النقاش والنقد عرضة لهجوم لا يمكن توصيفه بمنهجية علمية ولا قواعد عقلية ولا حتى بالتزام مبادئ الليبرالية نفسها، فيصبح من يجرؤ على الاقتراب من محتوى هذه المبادئ بالنقد ظلاميًا متخلفًا أو متطرفًا مستترًا تحت عباءة الوسطية، كما أن سفك الدماء في هذه الحالة أيضًا غير غائب منذ الثورة الفرنسية إلى حالات التطبيق المتطرف للعلمانية في بعض الدول المستقلة عن الاتحاد السوفييتي هذه الأيام مع تبرير بعض «النُخب المثقفة» في تلك البيئات لهذه الدموية.

ويُلاحَظ أيضًا أن فقدَ المنهجية سمةٌ بارزة أيضًا لكثير ممن يتعرض لموضوع العلمانية والليبرالية بالنقد.

وحرية النشر والتعبير عن الرأي لم تخرج عن هذا النسق فتجد أن مجرد الاقتراب منها بالنقد لبعض مفاهيمها أو إطلاقاتها يُعرّض



صاحبه لهجوم كثير من «الحقوقيين والإعلاميين» دون التفات إلى حقه هو في التعبير عن رأيه ليتحول عندهم إلى عدو للفكر منتهك لحقوق الإنسان مكرّس للاستبداد. غير أن ما يميّز هذا الفريق أنه لم يتلوّث بسفك الدم سوى بعض استثناءات قام أصحابها بالتبرير لمن يسفك الدماء في سبيل الوصول إلى الحرية.

ومثل ما سبق يُلاحَظ أن فقد المنهجية سمة بارزة لكثير ممن يتعرض بالنقد لموضوع «حرية النشر وحق التعبير عن الرأي»، بل ويضاف إليها إشكالية تكرر التورط بتبرير سفك الدماء في مواجهة مفاهيم «حرية النشر وحق التعبير عن الرأي» مع شدة التباس هذا التناول بالتوجهات السياسية الاستبدادية.

بل إن هذا الداء العضال قد انتقل فيما يبدو إلى ساحات البحث العلمي التجريبي فتسمع شكوى بعض كبار الباحثين من عصبية صادمة في تعامل بعض مجلات البحث العلمي الكبرى مع من يقدم أبحاثًا علمية تخالف نظريات المدارس التي تنتمي إليها إدارات هذه المجلات!

ولعل مشكلة «عش الدبابير» هذه تكمن في النفوس أولاً، وفي الأخلاق ثانيًا، ثم في الثقافة ثالثًا. والتوقف عند الإشكالية الثقافية دون تناول معالجة أمراض النفوس وتدارك الاختلال الأخلاقي لن



يُجدي في معالجة المشكلة.

فصاحب النفس المريضة هو من يبحث عن الأخطاء الشخصية لمن ينتقد فكره ليجعل منها سلاحاً للهجوم عليه، وهذا السلوك غير الأخلاقي يدلُّ على افتقار صاحبه إلى الحُجّة والبرهان وعجزه عن مناقشة الفكر بالفكر، مما يدفعه إلى الانحراف عن تناول محتوى الطرح إلى محاولة النيل من شخص من يختلف معه، على أمل أن ينجح فى تدمير فكرته من خلال اغتياله معنوياً، غير أن الفكر لا يُدحض إلا بالفكر، وشواهد التاريخ تجزم بأن النجاح المؤقت المعتمد على «شخصنة» الاختلاف لا يستمر طويلاً بل إنه سرعان ما يتحول إلى مُرجّح لكِفّة المخالف.

وهنا أتذكر عبارة كتبها جان جاك روسّو لفولتير بعد أن كتب الأخير كتابًا نشره باسم مستعار بعنوان: «عواطف المواطنين» أهان فيه شخص روسّو على نحو فجّ وصل فيه إلى درجة النيل من عِرضه على إثر خصومة كانت بينهما، فأجابه روسّو بقوله: «حين يحضرني الموت، أُفضّل أن أكون قد ارتكبتُ ما يتهمني به المؤلف من خطايا، وأن يكون بي ما ذكر من عيوب، على أن أكون كاتبًا لهذا الكتاب».

وأخيرًا، من يؤمن بعظمة دينه لا يعوزه أن يحوّل الدفاع عنه



إلى عش دبابير. ومن يثق في مبادئ العلمانية والليبرالية والديمقراطية لا يعوزه في الدفاع عنها أن يجعلها المحظورات أو «التابوهات» البديلة لمحظورات القرون الماضية «الدين والسياسة والجنس».

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1].

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.



(١) سورة الشعراء: ٢٣ ـ ٢٧.



الأسئلة العشرة.. إلى فلاسفتنا ومثقفينا



[الأحد ٠٥/ ٠٥/ ٢٠١٣]

الحمد لله

أغرق المجتمع الإنساني في الاستسلام لوهم الثنائيات التي تقود معترك الثقافات وتشغل عقول الفلاسفة، وتحولت إلى واقع من الصراع المرير شملت أضراره الإنسان ومحيطه.

وأصبح التفكير حبيسًا لفرضية حتمية هذه الثنائيات، وضاقت مساحات الحلول أمام اقتناع كل مدرسة بصوابية مسلكها، واتساع أفق مداركها، وحلّ التمكن من فرض الواقع محل الصواب.

ومن تجليات استسلامنا لحالة التخلف عن الإسهام في صياغة الفكر الإنساني المعاصر أن تجاوز توقُّف الإنتاج وتغوّل الاستهلاك عالم المواد لتمتد ظلاله فتشمل عوالم الأفكار.

والأمة التي لا تسهم في إنتاج الفكر لا يمكن أن ترسخ أقدامها

في إنتاج المواد، وفي هذه الحالة يصبح الحديث عن استقلال القرار فكاهة يُشبه ضحكها البكاء.

لهذا أطرح على أساتذتنا من الفلاسفة والمثقفين هذه الأسئلة التي نتج كل واحد منها عن مقدمتين فرضيتين قد لا يوافق على بعضها كثير منهم، لكن كثيرًا من الأفكار الكبيرة التي أحدثت تغييرًا في الواقع كانت ثمرة لأسئلة بدت غير ذات جدوى عند غالبية الناس، وربما لا يرى القارئ المثقف في هذه الأسئلة ما يستحق الاهتمام، وله أقدم اعتذاري عن إضاعة وقته في قراءتها.

الأسئلة العشرة:

١ ـ الاشتراكية الشيوعية تضاد الفطرة والرأسمالية الإمبريالية تُفسدها. آما آن الأوان لصياغة مفهوم جديد للعدالة الاجتماعية؟

٢ ـ الديكتاتورية ظُلم معلن، والديموقراطية تُعطيه غطاء المشروعية. آما آن الأوان لصياغة مفهوم جديد لإدارة الحُكم؟

٣ ـ التسلّط الديني يجعل الإنسان عبدًا لإنسان آخر، والليبرالية المطلقة تجعله عبدًا لرغباته. آما آن الأوان لصياغة مفهوم أعمق للحرية؟

٤ ـ الحرية الجنسية تُطلق حيوانية الإنسان، والكبت الجنسي



يعمّقها في داخله. أما آن الأوان لصياغة مفهوم أعمق للرغبة والعفّة؟

٥ ـ التركيز على واجبات الإنسان يغتال قابلية العطاء، والتركيز على حقوق الإنسان يُنمّي أنانية الأخذ. أما آن الأوان لصياغة مفهوم أدقّ لاحتياجات النفس ومتطلباتها؟

٦ ـ الإغراق في كتم الأهداف يقضي على المبادئ في أعماقنا، والإغراق في حق الإعلان عنها يقضي عليها في مجتمعاتنا. أما آن الأوان لصياغة مفهوم متوازن بين حق الخصوصية والحق العام؟

٧ ـ الانتصار للمعاني المجردة سموّ موهوم، ودفنها في مقبرة الماديّات انحطاط حقيقي. أما آن الأوان لصياغة مفهوم يجعل السمو حقيقيًا والانحطاط واقعًا مرفوضًا؟

٨ ـ الإفراط في إطلاق الحقائق يحول الحياة إلى سجن من الأوهام، والتفريط فيها لصالح النسبية المطلقة يحول الحياة إلى سجن من المتاهات. أما آن الأوان لصياغة مفهوم يؤسس للاعتراف بالمطلق والنسبي؟

٩ ـ بناء الحلول على حتمية العنف يجعل الحياة جحيمًا، وبناء الحلول على وهم القضاء عليه يجعل الجحيم حياة. أما آن الأوان لصياغة مفهوم بديل قادر على الجمع بين زجر النفس عن



استسلامها لدواعي العدوان وحثّها على امتلاك قوة العفو؟

١٠ ـ التركيز على مشروعية الغايات على حساب استقامة الوسائل أسس لفلسفة تقنين الإجرام، والتدقيق على استقامة الوسائل مع تغييب مشروعية الغايات حوّل بعض الجرائم إلى غايات نبيلة. أما آن الأوان لصياغة مفهوم جديد لانسجام الغايات مع الوسائل؟

وأخيراً استوقفتني آية كريمة فتحت باباً لاحتمال امتداد التحرر من مفهوم حتمية الثنائيات إلى بعض مواقف الدار الآخرة التي يعتبرها كثير من المؤمنين عالماً يقوم على ثنائية مطلقة: السعادة والشقاء، الجنة والنار، الرضا والسخط، هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١)

اللهم وسّع مشاهدنا وصفّ مواردنا.. وألهمنا رشدنا يا كريم.



(١) سورة الأعراف: ٤٦، ٤٧.

فذلكم الرِّباط

[الأربعاء ٢٠/٠٣/٢٠١٣]

الحمد لله

أعلم أن موضوع هذه الخاطرة قد يبدو بعيدًا عن تفاعلات المرحلة بما فيها من حماسة الهتافات وأنين الجراح وحرارة الدماء ووهج الآمال وقلق النفوس. لكنها محاولة لتشخيص المرض وعدم التوقف عند انفعال العَرَض لهذا ألتمس من القارئ الكريم أن يعتبرها استراحة محارب للنظر في عمق الواقع ورحابة المستقبل:

تطلق كلمة الرباط في الشريعة على حراسة الثغور وهي المناطق الحدودية لبلاد المسلمين. وللمرابطين ثواب عظيم عند الله تعالى أشار إليه النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»(١).

وهناك ثغور عديدة قلّ مرابطوها في زماننا فداهمتنا من جهتها

(١) صحيح البخاري، باب فضل رباط يوم في سبيل الله.

المخاطر، منها ثغور الصناعة وثغور الزراعة وثغور الاقتصاد. بل لقد شمل هذا الفراغ ثغور العوالم الثلاثة: عالم «الأشياء» وعالم «الأحداث» وعالم «الأفكار» كما قسّمها المُنظِّر العبقري مالك بن نبي ﵀ وأفاض في شرحها شيخنا فضيلة الإمام علي جمعة.

ومن أهم هذه الثغور وأخطرها ثغر «بناء الإنسان» وهو العالم الذي نعته مالك بن نبي بعالَم «الأشخاص». بل يمكن القول إنّه محور العوالم الأخرى، فالإنسان مُستخلَف في عالَم «الأشياء» وهو المتفاعل الأول مع عالَم «الأحداث» وهو محل تولُّد عالَم «الأفكار» وتلاقحها.

لهذا فإن ثغر بناء الإنسان هو الثغر الأهم والأخطر، ويترتب على الارتقاء به ارتقاء «الأفكار» التي تُدير «الأحداث» فيَحسُن بذلك التعامل مع «الأشياء».

وإذا تأمّلنا جذور ما نمر به من مشكلات وجدناها لا تكاد تخرج عن هذا النطاق. فإهمال ثغر التجديد المعرفي نتج عنه صراع الهوية بمصطلحات ثنائياته التعيسة: «الإسلامي أو العلماني»، «الجمود أو التماهي»، «الصراع أو التبعية». وكأنه لا طريق سواها! أو ثنائياته المغلوطة: مثل «المحافظة أو الإصلاح» وكأنهما ضدان لا يجتمعان مع أن المحافظة يقابلها التضييع، والإصلاح يقابله الإفساد!

كما نتج عنه صراع متخلّف بين ثنائيات: الدكتاتورية والديمقراطية، الرأسمالية والاشتراكية، وكأننا لم نكتفِ بكسل الركون إلى الاستهلاك في المجالات المادية فَرَاق لنا تعميمه على الفكر والمعرفة دون أن نتطلّع إلى الإنتاج والابتكار، أو لعل الركون المعرفي كان هو الأصل الذي تفرّع عنه التواكل المادي.

نعم، وإلا فما هو سر جمود علماء السياسة والاقتصاد والاجتماع عندنا على ثنائية الدكتاتورية والديمقراطية وكأنها حتمية مقدسة قطعية الثبوت قطعية الدلالة وليست نتاجًا لفكرٍ بشري يقبل النظر والتطوير؟ لماذا لم يفكروا في التوصّل إلى رؤية سياسية تنقل العالم إلى مرحلة ما بعد الديمقراطية؟

وما سر جمودهم على ثنائية الاشتراكية والرأسمالية، السياسي منها والاقتصادي والاجتماعي؟ لماذا لم يعملوا على تطوير هذه النظريات لينتجوا للعالم نظرية جديدة؟ أم أن علينا الانتظار إلى أن ينتجها غيرنا لنستهلكها؟

والأسوأ من ذلك هو إهمال ثغور الخطاب الشرعي «تأصيلاً وتوصيلاً»، كما يعبّر عنها شيخنا الإمام عبد الله ابن بيّه، فقد أنتج هذا الإهمال ثنائيات أشد تعاسة وأسوأ حالاً.

فثنائية «الجمود والتمييع» كشفت ثغر «التجديد» مما حدا

البعض إلى محاولة المرابطة عليه دون تأهّل ناضج ولا تحقيق متقن. فنتج عن ذلك ثنائية «حراسة العقيدة أو فاعلية الواقع» التي كشفت ثغر «المنهجية»، وثنائية «الأصالة والمعاصرة» وثنائية «السلفية والحداثة» وثنائية «الجهاد والحوار»، وما فيها من التخلّف والمغالطة كاشف عن ثغور عديدة تفوق ما تكشف عنه ثنائيات ثغر التجديد المعرفي.

والأسوأ حالاً من إهمال الثغور المعرفية والثغور الشرعية معاً هو الفصل بينهما في الأذهان مع كونهما ممتزجتين في واقعنا على نحو يستعصى على الفصل بينهما بالرغم من فظاظة الصراع الجاري اليوم بين من يُطلق عليهم «الإسلاميين» و«الليبراليين»، وحالة الفقر المعرفي لدى من يُديرون قرار هذا الصراع المَقيت، وتشوّش الرؤية لدى من يتوهّمون أنهم المستفيدون من إذكاء اشتعاله، وبالرغم من سوء تأثير هذا الصراع على الغد.

وأخيراً، هذه الثغور تتطلب مرابطين من شبابنا يحملون روح الرجاء الواسع والأمل الفسيح، والعزيمة القوية والهمة العالية، والبصيرة المستنيرة، والرؤية الاستباقية التي تبادر الحدث ولا تعيش على هامش ردة الفعل.

وفي هذا المعنى يقول سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أدلكم على

ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرةُ الخُطا إلى المساجد وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكمُ الرِباط فذلكمُ الرِباط»[1].

ففي إسباغ الوضوء في البرد القارس على الرغم من استثقال النفس له ما يشير إلى قوة العزيمة، وفي كثرة الخُطا إلى المساجد ما يشير إلى علو الهمة، وفي انتظار الصلاة بعد الصلاة ما يشير إلى الرؤية الاستباقية التي تبادر الحدث قبل حصوله.

وهكذا تكون هذه العبادات منبعًا لاستلهام الصفات وتربية النفوس عليها بنور الصلة بالخالق البديع سبحانه وتعالى، وهو ما يُظهر ملمحًا من معنى قول النبي الكريم: «فذلكم الرِباط فذلكم الرِباط».

والرباط الذي ننشده هنا يسبقه صبر ومصابرة في العمل وترتبط نتائجه بتقوى الله في الأقوال والأفعال. فلا استعجال مُخلّ يسبقه ولا سوء استغلال مُضلّ يلحقه، ليكون بذلك طريقًا للنجاح والفلاح.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2].

اللهم يا من وفق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفقنا للخير وأعنا عليه، يا ذا الجلال والإكرام.

---

(١) مسند أحمد رقم ٨٠٠٨.

(٢) سورة آل عمران: ٢٠٠.

ثورة المثقفين



[الأحد ١٩/٠٥/٢٠١٣]

الحمد لله

دُعيت قبل سبعة أعوام إلى ندوة في باريس مع الشهيد العلّامة محمد سعيد البوطي والأستاذ كمال الهلباوي والشيخ العربي الكشاط ورجلين من الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية ود. محمد أركون وأستاذ فلسفة وأستاذ علوم سياسية كلاهما من جامعة السوربون وأستاذة فلسفة من جامعة هارفرد؛ وكانت الجلسات متنوعة المواضيع بين معالجة مشكلة الإرهاب وفلسفة التعامل مع المقدَّس وضرورة الحفاظ على ناموس التنوع وحقوق الأقليات في إطار مفهوم التعايش.

وكانت مشاركة الفقير حول ضرورة العمل على تحرير الدين والثقافة من استغلال لعبة السياسة لهما، فكان الطرح قائمًا على ضرورة أن يعمل أهل الدين على تحريره من توظيف الساسة له في

نطاق تحقيق مآرب لا صلة لها بمقاصد الدين إلا في جعله غطاء أو وسيلة لتمرير السياسات؛ ومن أمثلة ذلك استغلال الإرهابيين «الإسلاميين» لغضب المسلمين من واقعهم المرير وبوادر اليأس لدى الشباب لإيهامهم بأن فهم هؤلاء للجهاد يجمع بين تمهيد الطريق لاستعادة عزة الإسلام وفرصة اختصار الطريق إلى الجنة عبر عملية انتحارية ينتقل فيها الشاب من معاناته الاجتماعية والاقتصادية والسلوكية إلى معانقة الحور العين في الجنة.

وكذلك استغلال القوى العالمية لهذا الفكر في تمرير مشاريعها وخططها الداخلية والخارجية بذريعة الحرب على الإرهاب مُغفلة لمفهوم إرهاب الدولة، فكانت تمارس الإرهاب على مواطنيها بتخويفهم من الإرهاب الإسلامي لتمرر بذلك القوانين المناقضة للمفاهيم والمبادئ التي بنيت عليها الحضارة الغربية المعاصرة من حقوق الإنسان وحرية التعبير واحترام حقوق الأقليات، مع تقديم الغطاء لاستمرار تجارة الأسلحة وتضاعف أرباح الشركات الكبرى على حساب العدالة الاجتماعية، ومع عدم الممانعة من استغلال المسيحية واليهودية في ذلك، فتارة نسمع الحديث عن الحرب الصليبية وتارة نسمع الحديث من القيادات العسكرية الغازية عن دعم التبشير الإنجيلي في بلاد المسلمين المنكوبة.

كما كانت تمارس إرهاب الدولة على البلاد المسلمة فتسمي

قتل الأبرياء «الأضرار الجانبية» للحرب على الإرهاب وتبرير خرق القوانين وانتهاك مبادئ حقوق الإنسان، وتمارس الضغط على دول المنطقة لتقوم بتسديد جزء من فواتير هذه الحرب وتعمل كما تشاء على التخطيط لإعادة تقسيم المنطقة.

ثم توجه الحديث إلى المثقفين بأن ذلك يحصل أيضًا باستغلال القيم الثقافية في تقديم الغطاء الفلسفي لهذه الجرائم من الحديث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات المتعلقة بالتعبير عن الرأي وحق الشعوب في المشاركة السياسية، مع عجز المثقفين المخلصين لمبادئهم عن إيقاف هذا العبث أو تبيين خطورة هذا المنحى والكشف عن خيانة كثير من المثقفين لهذه المبادئ في إعطائهم الغطاء الثقافي لهذه الجرائم وخداع شعوبهم عن طريق التلاعب بالقيم على نحو يشبه من بعض الوجوه عجز علماء المسلمين عن كشف تلاعب «المتأسلمين» من مدعي الجهاد بقيم الشريعة المطهرة ومخالفتهم الصريحة لمبادئها الشريفة.

وكانت خاتمة الطرح أننا بحاجة إلى ثورة المثقفين الثانية بعد الثورة «التنويرية» الأولى التي خلّصت شعوبهم من تسلّط الكنيسة، ولكنها هذه المرّة لتخليص الشعوب من التلاعب بالمبادئ والقيم وتوظيفها في المشاريع السياسية التي تمكّن للاستبداد المقنَّع.

واليوم نحن بحاجة ملّحة على نحو مضاعف إلى هذه الثورة



التي ينبغي أن يشترك فيها المخلصون من علماء المسلمين ومثقفيهم مع المخلصين من فلاسفة العالم ومثقفيهم بترسيخ مفهوم التعايش القائم على قبول التنوع في النموذج المعرفي وتعددية المنظور الثقافي [Paradigms] المختلفة دون إصرار نموذج معرفي على محو الآخر أو إقصائه.

نعم نحن بحاجة إلى هذا التحالف الصادق الجاد لمواجهة هذا العبث المستخفّ بالأرواح والحقوق والمبادئ والقيم الإسلامية والليبرالية على حد سواء.

فهل نجد من يستشعر أهمية هذه الثورة ليعود للعلماء والمثقفين دورهم في تبصير الشعوب والرقي بهم مع تعفُّفِ القائمين على هذا المشروع عن الاستجابة لدواعي شهوة السلطة أو المشاركة في التنافس عليها؟

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

اللهم أيقظ الضمائر ونوّر البصائر ونقِّ السرائر يا مقتدر يا قادر.

---

(١) سورة هود: ١١٦، ١١٧.


(٨)
محمّديات

وُلِدَ الهدى

[الأربعاء ١٦/٠١/٢٠١٣]

الحمد لله

ولـد الهـدى فالكائنـات ضـياء   وفـمُ الزمـان تبسـم وثنـاءُ[1]

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك يا رحمة الله المهداة، الصلاة والسلام عليك يا من ارتقيت ذروة الخُلق العظيم.

أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

والقلوب متشوِّفة إلى البلسم المحمدي ليُطبب جراحها، والأرواح متشوّقة للمحبوب الأسمى ليمسح بتَحنانه آلامها، وأعين السرائر التي أضناها الجوى متلهفة إلى مرور طيف المحبوب.

ومُـر طيفـك الميمـون فـي غفلـة العـدا

يمـرُّ بطَـرْفٍ زاد فيـك بكـاؤهُ[2]

(١) همزية أحمد شوقي.

(٢) الإمام العارف الحبيب علي الحبشي.



أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

والنفوس ذاوية مما يعصف بها قد أَرهقت وأُرهقت، أَرهقت ذوات أصحابها في معترك الطمع والرغبة وما يترشح عنهما من مماحكات البغضاء والنزاع والكراهية والغضب، وأرهقها طول أمد الحرمان من الطمأنينة والسكينة والسلام الذي لم تحصل عليه في مسعاها.

نعم أحبتي، فنفوسنا لا تحظى بهذه المعاني بالاسترسال في متابعة الأطماع والرغبات.

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ[1]

ونفوسنا لا تحظى بهذه المعاني بمنحة توهب من البشر، بل بتحنُّنٍ من الحنَّان ورحمة من الرحمن تتلقاها بأيدي الصدق في الطلب والإخلاص في الرَغَب.

أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

لنتعلم من آياته دروسًا في الصفاء والارتقاء، فتستشعر أرواحنا أن مولدك الشريف شهد آية انطفاء نار المجوس لتشهد في ذكراه انطفاء نار الحقد المشتعلة في النفوس؛

(١) بردة الإمام البوصيري.

وتستشعر أرواحنا أن مولدك الشريف شهد آية سقوط الأصنام الحجرية المثبتة بالرصاص المذاب حتى ضاق بها صحن الكعبة لتشهد في ذكراه سقوط أصنام أنانيتنا المثبتة برصاص تعالينا الموهوم حتى ضاقت بها ساحات قلوبنا الرحبة؛

وتستشعر أرواحنا أن مولدك الشريف شهد آية اهتزاز عروش الملوك الظالمين لتشهد في ذكراه اهتزاز عروش (الأنا) التي ما تفتأ تبرر ظلمنا لما يحيط بنا في كل حين؛

وتستشعر أرواحنا أن مولدك الشريف شهد بروزك من بطن أمك ساجدًا ورافعًا طرفك إلى السماء لتشهد قلوبنا سر السجود تواضعًا وانكسارًا لعظمة الحق مرتفعة بصائرنا في آمالها إلى سماء إيثار الحق على الخلق.

أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

لتُعيد وهج الحنين إلى مسراك الذي بارك الله حوله؛ فتنهض الهمم لتلبية نداء الأقصى، وتتذكر القلوب إخوة في القدس نسيهم إخوانهم، فتركوهم يعانون حصاراً وتشريداً وفاقة، وهم مرابطون ثابتون ثبات الرواسي.

أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

وأرض الشام، التي شاهدت أُمُّك السيدة آمنة ليلة مولدك



الشريف قصور بُصراها، تُسقى كل يوم من دماء أهلها، لتجدد ذكراه الرجاء في أن تُنبت فرجًا يداوي سرورُه جراحَ المحن، فتُثمر رشدًا تأوي إليه الناس إذا هاجت الفتن، مصداقاً لقولك: «يكون جنود أربعة فعليكم بالشام فإن الله قد تكفل لي بالشام»[1].

أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

ويَمَن الإيمان والحكمة والفقه يئنُّ شماله من تصارع الطامحين إلى السلطة، ويصرخ جنوبه من تراكم الظلم على أهله، لتحيا فيهم أسرار البشارة: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا»[2]، وتذكِّر عرب الجزيرة بوصيتك في أهل اليمن: «إذا مرّوا بكم يسوقون نساءهم، يحملون أبناءهم على عواتقهم فإنهم مني وأنا منهم»[3].

أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

ليغسل ثجّاج الرحمة آلام أمهاتٍ في مصر انخلعت قلوبهن جزعا ونزفت دما من فقد أبنائهن وجوانحهن تضطرب كاضطراب جناحي أنثى الطائر التي انتُزِع منها فرخها فلما نظرتَ إليها أشفق

(١) المعجم الكبير، جامع الأحاديث.
(٢) صحيح البخاري.
(٣) مسند أحمد، المعجم الكبير.





قلبك الرحيم عليها. فقلتَ نفسي لك الفداء: «من فجع هذه بولدها؟! ردوا ولدها إليها»[١]. نعم، أقبلت أيام مولدك الشريف لتتلو على أهلها المتنافرين الجزعين سكينة قوله تعالى: «ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ»[٢]. وتذكّر من نسى بوصيتك لمن يتولى حكمها: «فاستوصوا بأهلها خيرا»[٣].

أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

لتُذكّر أُمّتك في العراق وليبيا والسودان ومالي وبورما وأفغانستان وفى كل مكان، حقائق قولك: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من السماء»[٤].

أقبلت أيام مولدك الشريف ولياليه..

لتجدد عهود المحبة، وتوقظ الشوق إلى الأحبة، وتبعث مع نسائم السَحر رسائل الوجد وتباريح الغرام. فتحنّ إلى لقياك وتشتاق إلى رؤياك

من لي؟ وهل لي أن أراكم سادتي؟

---

(١) سنن أبي داوود، جامع الأصول.

(٢) سورة يوسف: ٩٩.

(٣) صحيح مسلم، باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر.

(٤) مسند أحمد رقم ٦٤٩٤، سنن أبي داوود باب في الرحمة، سنن الترمذي باب ما جاء في رحمة المسلمين.



فضلا وإلا من أكون؟ ومن أنا؟

إني لأرثي من بُلى ببعادكم

مثلى وأغبط من إليكم قد دنا

(الإمام الحداد)

وتبعث مع نسائم السَحر رسائل الوجد وتباريح الغرام..

وا نسيم السحر هل لك خبر؟ عن عُريب بوادي المنحنى
فارقوني ولَم أقضِ وطر من لقاهم ولا نلت المُنى[1]

الصلاة والسلام عليك يا سيد المرسلين

الصلاة والسلام عليك يا خاتم النبيين

الصلاة والسلام عليك يا من أرسلك الله رحمة للعالمين.



(١) الإمام العيدروس العدني.



مولد الرحمة



[الأربعاء ٢٣/ ٠١/ ٢٠١٣]

الحمد لله

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾[(١)].

نعم سيدي، هكذا أرسلك الله، رحمة للعالمين وليس للمسلمين فقط! رحمة للعالمين وليس للملتزمين المطيعين فقط! فكنتَ صلى الله وسلّم عليك وعلى آل بيتك وصحبك رحمةً للعالمين.

قيل لك: يا رسول الله، ادع على المشركين. قلتَ: «إني لم أُبعَث لعّانًا وإنما بُعِثتُ رحمة»[(٢)].

وجاءك الطفيل بن عمرو ساخطًا على قومه لرفضهم الإسلام فقال: يا رسول الله إن دوسًا [اسم قبيلته] قد عصت وأبت، فادعُ الله

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥.

(٢) صحيح مسلم، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها.



عليها، فاستقبلْتَ القبلة ورفعتَ يديك، فظن الناس أنك ستدعو عليهم، فقلتَ: «اللهم اهدِ دوسًا وائت بهم»[1]. فجاءت قبيلة دوس وقد شرح الله صدور أهلها للإسلام.

وحين رموك بالحجارة حتى تخضب نعلُك بدمك الشريف واستأذنك ملَكُ الجبال بأن يطبق على قومك الأخشبين من جبال مكة، أبى قلبُك الرحيم ورجوت، إن لم يؤمن هؤلاء، أن يُخرج الله من أبنائهم من ينصر الحق الذي جئتَ به[2].

وحين قال حامل لوائك يوم فتح مكة: اليومَ يومُ الملحَمة، أجبتَه قائلاً: اليومَ يومُ المَرحَمةِ[3].

وأعلنْتَها خالدة لمن آذوك وعذبوا أصحابك وقتلوهم: «اذهبوا فأنتم الطُلقاء»[4]

وكم يرتجف فؤادُ محبك ويقشعرُّ جلده وهو يقرأ حديثك عن

---

(١) صحيح البخاري باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، صحيح مسلم، باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيء.

(٢) صحيح البخاري، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الآخر غفر له ما تقدم من ذنبه، صحيح مسلم باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.

(٣) أسد الغابة في ترجمة سعد بن عبادة.

(٤) سنن البيهقي الكبرى رقم ١٨٠٥٥.





امتثالك لأمر الله بالجهر بالدعوة حين ناديتَ: يأيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة؟ «أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تُفلحوا ولكم الجنة»(١). ووصفت ردة فعلهم قائلاً:

«فما بقي رجلٌ ولا امرأةٌ ولا صبيٌ إلا يرمون عليّ بالتراب والحجارة، ويبزقون في وجهي، ويقول: كذاب صابئ؛ فعرض علي عارض فقال: يا محمد، إن كنت رسول الله، فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك». فقلتَ فداك نفسي: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»(٢).

ومن فيض هذه الرحمة التي غمرت فؤادكَ الطاهر لم ترضَ بأن تُصيب اللعنة قومًا وصلت أفعالهم إلى حدّ استحقاق اللعن فدعوتَ الله بأن يجعل اللعنة دعاء لهم ورحمة عليهم.

وتأكّدَ عدم قبولك جَعْل هذه الحالات النادرة مبررًا لاستباحة اللعن حين رسّختَ القاعدة وأعلنتها مبداً باقيًا: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء»(٣).

بل لقد أمرتَ الجيش الذي سار لفتح مكة بأن يفترق إلى

---

(١) الأحاديث المختارة ١٠/١٣.

(٢) جامع الأحاديث، رقم ٥٤٢٧.

(٣) سنن الترمذي في باب ما جاء في اللعنة، صحيح ابن حبان في ذكر نفي اسم الإيمان عمن أتى ببعض الخصال التي تنقص بإتيانه إيمانه.

فرقتين في مسيره حتى لا يُروِّع كلبة أجهدتها آلام الولادة فلم تستطع حمل أولادها بعيداً عن طريق الجيش، حين رأيت في عينيها الجزع والخوف على أولادها الصغار[1].

لهذا سوف يُدهِش العالمَ كلَّه عظيمُ مقامك المحمود يوم القيامة، حين تُجيب من يطلبون منك الشفاعة العظمى ثقةً بفضل الله عليك قائلاً: أنا لها.

نعم سيدي ومولاي أنت لها. فإنه لا يجرؤ على الوقوف ساعة الغضبة الإلَهية الكبرى لطلب الشفاعة في شأن العالمين إلا من أرسله الله رحمة للعالمين.

وما أشد حاجة أُمّتِك اليوم إلى الاقتباس من نور هذه الرحمة، لتعود للأم أمومتها، وتعود للأب أبوّتُه، وتعود للأخ أخوّتُه، وتعود للرَحم مرحمتُه، وتعود للجار جيرتُه.

نعم يا نبي الرحمة، ما أشد حاجة التاجر إلى أن يعامل المستهلك بحال الرحمة. وما أشد حاجة الطبيب إلى أن يُطبّب المرضى بحال الرحمة. وما أشد حاجة السياسي إلى أن يَسوسَ الناس بحال الرحمة. وما أشد حاجة المُعلّم إلى أن يُعلِّم الطلاب بحال الرحمة. وما أشد حاجة الإعلامي إلى أن يُعْلِمَ المشاهدين

(١) إمتاع الأسماع، مغازي ابن إسحاق.

والمستمعين والقرّاء بحال الرحمة.

أواه يا حبيبي، وما أشد حاجة الخطيب إلى أن يخاطب المصلين بحال الرحمة، حتى تستجيب قلوبهم لموعظَته. فبالرحمة يمكن أن نُنبه المخطئ، وبالرحمة يمكن أن نُقوّم المعوج، وبالرحمة وحدها تخشع القلوب القاسية وتدمع العيون الجامدة:

وإذا رحمــتَ فأنــت أمٌّ أو أبٌ هذان في الدنيا هما الرحماءُ
وإذا خطبــت فللمنــابرِ هــزةٌ تَعرو النـدي وللقلوبِ بكـاءُ(١)

فاهتزاز منبرك الشريف بموعظة الرحمة والإشفاق والحرص، التي تحمرُّ من حُرقتها عيناك وتنتفخُ من تألُّمها أوداجك، هو ما يُبكي القلوب قبل العيون. وليس اهتزازه من صراخ الغضب والسخط والقسوة، ولا اهتزازه من عبارات السباب والشتم واللعن.

ما أعذب رحمتك سيدي، حتى في عتابك، حتى في لومك، وحتى في تعنيفك للمصرِّين على تكرار الخطأ، فقد كان كل ذلك مسبوقًا بالرحمة، واستَبطَن مظهرَه الغاضب تَحنان الرحمة، ثم تتلوه مسحة الرحمة. فلا يصل منه إلى القلوب إلا حقيقة الحرص علينا لأنه نابع ممن جاءنا مِنّا، ومن الله مَنًّا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) همزية أحمد شوقي.

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

بأبي أنت وأمي يا من تسبقُ رحمتُه حَزمَه وعَزمَه.

رحمةٌ كله وحزمٌ وعزمٌ ووقارٌ وعصمةٌ وحياءُ
مُعجز القول والفعال كريم الخلق والخُلق مقسطٌ مِعطاءُ[2]

كم أحبك يا رحمة الله المهداة، وكم أحب أن أرى معاني الرحمة تتجدد على ألسنة أتباعك وفي تعاملاتهم.

اللهم اجزِ عنّا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خيرًا، واملأ قلوبنا من أسرار الرحمة التي أرسلته بها، ونوّر بها أقوالنا وأفعالنا، يا رحمن يا رحيم.



(١) سورة التوبة: ١٠٩.

(٢) همزية الإمام البوصيري.



فليفرحوا

[الأحد ٢٠/٠١/٢٠١٣]

الحمد لله القائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١)، وصلِّ اللهم وسلم على مظهر رحمتك في الوجود من خاطبته بقولك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

وفي أيام ذكرى مولده الشريف تساءلتُ: كيف يمكن أن تدخل حقيقة الفرح إلى قلوب أحاطت بها الأحزان واكتنفتها الهموم واقترن نبضها بالآلام ومزقتها الصراعات؟

فالأقصى يُهدم هدمًا متدرجًا والأمة لم تعد تراه قضيتها الأولى، بل لم يعد مفهوم «الأمة» اليوم حاضرًا، وعليه فقد أمسى «الأقصى» شعارًا تتناوب على رفعه جماعاتنا المتفرقة في أوقات الاحتياج إلى الحشد الجماهيري السياسي لتأييد فصيل ضد آخر أو

(١) سورة يونس: ٥٨.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٦.





تحريضه عليه.

والشام يُسقى ترابه كل يوم بدماء أهله. واليمن يرزح تحت صراعات صدّعت أساس وحدته. ومصر تغلي بين إصرار الحكام على المضي قدمًا في مشروعهم وإصرار الثوار على تحقيق مطالبهم وأنين ضحايا الفقر والإهمال. وليبيا تصارع الانقسام ويصرعها مقتسمو الغنائم من الداخل والخارج. والعراق يؤذن بانفجار بركانه وانشطار أجزائه. والصومال انقطع صراخها بعد أن تقطعت حبال استغاثاتها الصوتية. وبورما يُسحق مسلموها مع صمت مخزٍ للعالم المتحضر والمتخلّف، ولا يدفع خزيه كونها بلادًا فقيرة لا يوجد فيها من المغريات السياسية والاقتصادية ما يدعو للالتفات إلى نداءات منظمات حقوق الإنسان أو مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين. وأفغانستان.. والسودان.. و.. و.. فقائمة المعاناة طويلة.

وفي عمقها دمعة أمٍ تُبلل وسادتها التي تشهد على طول سهرها وتوالي تنهّد صدرها ومرارة لوعة قلبها على من فقدَت.

فهل بقي متسع للفرح؟ أم أنه أصبح نوعًا من التغييب عن الواقع يشبه جرعة المخدرات التي يلجأ إليها من فقد الأمل وفقد القدرة على احتمال فقده؟





فلاحت في ظلمة المعترك الحالك لمعة مضيئة، فأتبعتها البصر فإذا بها تأخذه إلى رحاب الحبيب المصطفى الذي وُلد في عصر كانت ظلمته أشد وظلمه أعظم، فكان في مولده انبثاق لحقائق التنوير التي أضاءت الوجود. وعندها أخذت أُقلّب الوجه في سماء شمائله العطرة وسيرته المنورة فاستوقفني ملمحٌ عميق.

وهو أن التغيير الذي جاء به نبع من عمق الإنسان ومشهد نظرته إلى الوجود. وبرز هذا المعنى من خلال موقفٍ جوهري مفتاحي كنت أمرّ عليه مرور الغافلين عند قراءة الشمائل وكتب السيرة، ولكنه هذه المرة استوقفني مليًّا لأتمكن من رؤيته من زواياه المتعددة المضيئة.

وإليكم الموقف الذي يرويه خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه:

النبي الكريم يسير مع مجموعة من أصحابه في الطريق، فتعترضه امرأة معوّقة عقليًّا، وتخبره بأنها تريده على انفراد، فيجيبها: لبيك يا أم فلان، ويطلب منها أن تختار أحد الشوارع التي حواليه، فتفرح وتهرول إلى أحد الشوارع فيتبعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة قيام ينظرون إلى المشهد(١).

فالنبي الكريم جالس على تراب الطريق أمام المرأة المعوقة

(١) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ١/١٠٦.

وهي تشير إليه بيدها وتخاطبه في حاجتها، والنبي يتكلم معها بتلطف ويُناجيها بتحنان ويقضي لها حاجتها. ثم يرجع إلى أصحابه لينطلقوا إلى عملهم الذي خرجوا من أجله.

نعم كان صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إلى ما يحيط به بالرحمة المتصلة بالأدب مع الله في التعامل مع خلقه. وهو ما نحتاج اليوم إلى استشعاره وتذوقه كي نحياه فنبثه في محيطنا.

لذا تجده عند انصرافه من صلاة الصبح يقف خارج المسجد مع خدم المدينة وضعفائها وهم يمدون أيديهم بآنية الماء ليضع صلى الله عليه وآله وسلم يده الشريفة فيها مباركًا إياها غير مبال بصقيع شتاء المدينة تطييبًا لخواطرهم كما روى ذلك خادمه أنس(١).

وتجده أيضًا يقول كانت الأَمة من إماء أهل المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما ينزع يده من يدها فيدور بها في حوائجها حتى تفرغ. ويقول: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا لقي الرجل فكلمه لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، وإذا صافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزعها، ولم يُرَ متقدمًا بركبتيه جليسًا له قط(٢).

---

(١) صحيح مسلم، باب قرب النبي عليه السلام من الناس وتبركهم به.

(٢) سنن ابن ماجه، باب إكرام الرجل جليسه.



ولاحظوا أن من تنبّه لهذه المواقف ورواها هو خادمه، بل تجده يصف تعامل النبي الكريم معه طيلة السنوات العشر التي خدمه فيها فيقول: «خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين فما سبّني سبة قط ولا ضربني ضربة ولا انتهرني ولا عبس في وجهي ولا أمرني بأمر قط فتوانيت فيه فعاتبني عليه فإن عاتبني عليه أحد من أهله قال: دعوه فلو قدر شيء كان». ويقول: «خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يُعيِّر علي شيئًا قط أسأت فيه»[(١)].

وتذكر زوجته أمُّنا الصديقة عائشة رضي الله عنها هذا الملمح فتقول: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك»[(٢)].

فلذلك أنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٣)].

هذا المعنى كلما تواصلنا معه استشعرت القلوب أن الارتباط به هو مفتاح العلاج لما نشكوه من مصائب نزلت بالأمة، حيث إن القاسم المشترك بين هذه المصائب هو ضياع بَوصلة الفهم لمعنى تعامل الإنسان مع الإنسان.

---

(١) أخلاق النبي وآدابه ١/٢١٤.

(٢) كتاب الشفا كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، فصل في حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه.

(٣) سورة القلم: ٤.



ومن يقرأ كتاب «أخلاق النبي» للإمام أبي الشيخ الأصبهاني أو كتاب «الروض الباسم في شمائل أبي القاسم» للإمام المناوي أو غيرهما من كتب الشمائل يجد هذه المعاني جلية في هديه الشريف.

فحمداً لربٍّ خصَّنا بمحمدٍ   وأخرجنا من ظلمة ودياجرِ
إلى نور إسلام وعلم وحكمةٍ   ويُمنٍ وإيمان وخيرِ الأوامرِ[1]

اللهم ارزقنا محبته وخلّقنا بأخلاقه وافتح لبصائرنا مشكاة مَشاهِده وأكرمنا في ذكرى مولده بحقيقة الفرح بالرحمة التي أرسلته بها، يا ودود.



(١) الإمام الحداد.



محتويات الكتاب



الموضوع	الصفحة

٣ ـ عن الشباب.. وإلى الشباب




الموضوع	الصفحة

٤ ـ مفاهيم

٥ ـ كفَّر يُكفِّر، فهو كافر!






الموضوع	الصفحة

٧ ـ إلى النخبة المثقفة

٨ ـ محمّديات



الإنسانيّة قبل التديّن

إن هذا الشباب ماض في طريقه ولن توقفه قوة سياسية ولا عسكرية ولا اقتصادية، محلية كانت أو إقليمية أو دولية، ولن يوقفه قتل ولا حبس ولا تشويه.

ومهما انخدع، مؤقتًا، بشعارات بعضنا أو هتافات البعض الآخر فلن يستمر ذلك طويلاً؛ ويجب أن نعي ذلك جيدًا لنقرر: إما أن نؤدي خدمة حقيقية لهذا الجيل، أو نتنحى عن طريقه، ونتركه يخوض تجربته إلى أن ينضج ولا نلومه على الثمن الباهظ الذي سندفعه جميعًا لنتائج هذه التجربة أو قل لنتائج تقصيرنا نحن تجاهه.

www.daralfaqih.com

